بيانات السوريالية و الأوانى المستطرقة

أندريه بروتون

39

ترجمة: صلاح برمدا





آفاق الترجمة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق الترجمة
مارس ١٩٩٨

٣٩



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

بيانات السوريالية
و
الأوانى المستطرقة

نصوص : أندريه بروتون
ترجمة : صلاح برمدا





لوحة الغلاف

للفنان رضا عبد السلام

التصميم الأساس للغلاف

عمر جهان

المراسـلات باسـم مديـر التحرير على العنوان التالى : ١٦ ش أمين سامى - القصر العينـى - القـاهـرة . رقـم بريـدى ١١٥٦١

الكتاب الأول

André Breton,
Manifestes du Surréalisme,
Gallimard, Paris.

الكتاب الثانى

André Breton,
Les Vases Communicants,
Gallimard, Paris.

الطبعة الثانية

الطبعة الأولى
بيانات السوريالية، دمشق، ١٩٧٨
الأوانى المستطرقة، دمشق، ١٩٨٥

بيان السوريالية
١٩٢٤

تصدير

السوريالية هى أهم حركة أدبية فى عصرنا. وكان تأثيرها هائلاً فى جميع بلاد العالم وتجاوز الميدان الأدبى الصرف. لقد طبع أسلوب تفكيرنا بل وطريقة معيشتنا.

وفى «بيانات السوريالية» يعرض أندريه بروتون الأسس النظرية والمرامى البعيدة لهذا المذهب الثورى.

مقدمة لطبعة البيان الجديدة

١٩٢٩

كان فى الحساب أن يتغير هذا الكتاب، وبقدر ما تناول الوجود الأرضى مع تحميله كل ما يقتضيه داخل وخارج الحدود المتعارف تعيينها له، أن يرتهن، وثيقا، نصيبه بنصيبى الذى هو، مثلا، أنى ألفت ولم أؤلف كتبا. وتلك المعزوة إلىّ لا تبدو لى مؤثرة فىّ بأفعل من كثير غيرها، ولعلى لم أعد أستوعبها بالتمام الضرورى. ومهما أحدث «**بيان السوريالية**» من جدل، من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٩، دون التزام صحيح معه أو ضده، فإن المغامرة الإنسانية ظلت، لا مراء، تجازف، خارج ذلك الجدل، فى أضيق الخطوط، من جميع الجوانب معا، تقريبا، حسب أهواء المخيلة التى « **تصنع**» وحدها الأشياء الواقعية. وسماح المرء بإعادة نشر كتاب له هو ككتاب لغيره لم يحسن قراءته، شبيه «بالاعتراف»، لا أقول، حتى، بولد تُثُبِّت سلفا من ملاحة سيمائه ومتانة بنائه، بل بأيما شئ، «**سبق أن كان**» على أقصى عظمة يراد تصورها له، ولم يعد ممكنا أن يكون. ولا حيلة لى فى هذا غير إدانة نفسى أن لم أكن فى كل شئ وفى كل ظرف نبيا. ولا يزال ينطبق السؤال الشهير الذى طرحه أرثور كرافان، «بلهجة وانية جدا واهية جدا» على أندريه جيد: «يا سيد جيد، أين نحن مع الزمان؟». فأجاب هذا، دونما خبث،: «السادسة إلا ربعا!». نعم، يجب علينا التسليم بأننا مع الزمان فى حال هى شر حال.

هنا، كما فى كل مكان، يتشابك الإقرار والنكران. لست أدرك لماذا وكيف، ولا كيف أيضا أحيا، ولا، بالأولى، ما أحيا. ومن نظام

انخذته، ولاءمته مع ذاتى متأنيا، مثل السوريالية، إذا بقى، إذا كان سيبقى ما يكفى لتكفينى، فما كان فيه أبدا ما يجعل منى ما أردت أن أكونه، مع كل المحاباة التى أجامل بها نفسى. وهى محاباة نسبية قياسا إلى التى ربما وجهت إلى ذاتى (أو لاذاتى، لا أدرى). ومع ذلك فأنا أحيا، بل اكتشفت أنى متمسك بالحياة. وكلما خامرتنى حجج، أحيانا، للخلاص منها، كلما باغتنى أنى أعجب بذلك اللوح من أرض الغرفة، يبدو لى كالحرير حقا، كحرير فى مثل جمال الماء. كنت أحب هذ الألم الواعى، كما لو أن مرت خلالى مأساة الكون كلها، وكما لو كنت لاحتوائها أهلا. لكن كنت أحبها على ضوء ما يمكن أن أسميه أشياء جديدة ما رأيتها قط تتألق هكذا. ومن هذا أدركت أن الحياة، رغم كل شئ، « **معطاة** » وأن قوة مستقلة عن قوة التعبير، والإفهام روحيا، تبعث، فىّ ما يخص إنسانا حيا، ردود فعل ذلك أهمية قصوى سيحمل سرها معه إذ يتوفى. هذا السر لم يكشف لى ذاته، ومن جهتى، فإن اعترافى به لا ينقض فى شئ عدم قابليتى المعلن للتأمل الدينى. فأنا أومن فقط بأن بين فكرتى كما تتوضح مما يكون قرئ بتوقيعى، وبين ذاتى التى لا أعلم إلى الآن بماذا تُلزمها الطبيعة الحقيقية لفكرتى، يوجد عالم، عالم لا يمكن تجديد رؤيته، من أوهام بصرية ومن تحقق فرضيات ومن رهانات خاسرة ومن أكاذيب، يثنينى سبر سريع له عن تناول هذا الكتاب بأى تمحيص. فذلك يحتاج إلى كل غرور الذهن العلمى وكل سذاجة تلك الحاجة للبعد الزمنى التى توافينا بتحفظات التاريخ الفظة. ولهذا المرة أيضا، وفيا للإرادة التى عهدتها دوما فى نفسى أن أتجاوز كل نوع من عائق عاطفى، لن أتوقف لأحاكم أولئك، من رفاقى الأوائل، الذين خافوا

وارتدوا، ولن أعمد إلى تبديل أسماء عقيم بغية جعل هذا الكتاب يعتبر مماشيا للأحداث. وعدا التذكير بأن أثمن مواهب الفكر لا تحتمل فقدان ذرة من شرف، لن أفعل سوى أن أؤكد ثقتى الراسخة فى مبدأ نشاط لم يخيبنى أبدا، ويبدو لى مستحقا تكرسا أوفر سخاء وأشد كلية وأجمع حماسا منه فى أى وقت، وذلك لأنه وحده المفيض، وإن فى فترات متباعدة، للأنوار المصعَّدة لنعمة قاصر تماما على وضعها مقابل النعمة الإلهية.

بيان السوريالية

١٩٢٤

لطول ما يدوم الإيمان بالحياة، بأكثر ما فى الحياة قابلية للزوال، أعنى الحياة « الواقعية » طبعا، ينتهى هذا الإيمان إلى الضياع. والإنسان، هذا الحالم النهائى، المتزايد السخط، يوما عن يوم، على مصيره، يستعرض بعناء الأشياء التى سيق إلى استعمالها والتى نالها بتراخيه أو بجهده، بجهده دائما، تقريبا، لأنه وافق أن يعمل، أو، على الأقل، لم يأنف أن يجازف بحظه، (بما يسميه حظه!). التواضع الكبير هو الآن قسمته. إنه يعرف أية نسوة امتلك وأية مغامرات مضحكة سلك. لا شأن عنده لفقره أو لغناه، فهو ما يزال، من هذه الناحية، الطفل المولود لساعته، وأما رضى ضميره الخلقى فأسلم بأنه يستغنى بسهولة عنه. فإن بقى لديه بعض من وعى فليس له حينئذ غير أن يلتفت إلى طفولته التى تظل تبدو له، رغم إفساد المربين، مليئة بالفتنة. هناك، يفسح له غياب كل قيد تصور حيوات عديدة مسرودة معا. ويترسخ فى ذلك الوهم، ولايريد، من بعد، أن يعرف سوى السهولة الوقتية، البالغة، لكل شئ. فى كل صباح يذهب الأطفال دون قلق. كل شئ قريب، وأسوأ الظروف المادية ممتازة. والغابات بيضاء أو سوداء. ولن ينام أبدا.

على أن أحدا، فى الصحيح، لا يمكن أن يبلغ هذا المدى. ولا يقتصر الأمر على المسافة. فالتهديدات تتراكم، والمرء يخضع ويتخلى عن جزء من الميدان المهيأ للفتح. وتلك المخيلة التى لم تكن تقبل حدودا، لن يعود مسموحا لها أن تزاول إلا حسب قوانين فائدة تحكمية؟ وهى عاجزة عن القيام طويلا بهذا الدور الثانوى، لذا،

تفضل، حول سن العشرين، ترك الإنسان لمصيره الخالى من النور.

وليحاول، فيما بعد، بنزوة أو بأخرى، استرجاع ذاته، إذ يشعر بافتقاده، شيئا فشيئا، جميع موجبات الحياة، وإذ هو غير مستطيع مواجهة ظرف استثنائى مثل الحب، فلن يبلغ كبير توفيق. ذلك أنه غدا، بجسمه وروحه، أسير ضرورة عملية غالبة لا تحتمل أن يصرف النظر عنها. جميع حركاته سينقصها الرحب، وجميع أفكاره سينقصها المدى. لن يتمثل مما حدث له أو قد يحدث غير ما يربط ذلك الحادث بالجم من أحداث شبيهة، أحداث لم يسهم فيها، أحداث «مخطأة». ما قولى هذا! إنه سيحكم بالنسبة لأحد تلك الأحداث، الأكثر طمأنة فى عواقبه. ولن يرى فيه، بأية حجة كانت خلاصه.

أيتها المخيلة الغالية، إن ما أحبه خاصة فيك هو أنك لا تغفرين.

إن كلمة «الحرية» وحدها هى كل مالايزال يحمسنى. ويقينى أنها قادرة أن تديم إلى مالا نهاية له التعصب الإنسانى العريق. وهى توافق بلا شك طموحى الشرعى الوحيد. وفى وفرة السماجات التى ورثنا يجب الاعتراف بأن «**أوسع حرية فكرية**» قد تركت لنا. وعلينا، نحن، ألا نسئ استعمالها بالشكل الخطير. وإخضاع المخيلة للعبودية، حتى فى سبيل ما يسمى، جهلاً، بالسعادة، إنما هو التهرب مما نجده، فى أعماقنا، من عدالة سامية. إن المخيلة وحدها تعلِمنى بما «**يمكن أن يكون**»، وهذا كاف للتخفيف، بعضا، من الخطر الرهيب، كاف أيضا لكى أستسلم لها دون خوف أن أخطئ (كما لو كان مستطاعا مزيد من خطأ). أين تبدأ تنقلب شرا. وأين ينقطع أمان الذهن؟ وبالنسبة للذهن، أليس إمكان الهيم، بالأحرى، احتمال وجود الخير؟

يبقى الجنون، «الجنون الذى يُحبَس» كما أحسن القول... ذاك أو الآخر... الكل يعلم، فى الصحيح، أن المجانين ما كانوا ليحجَزون لولا أفعال قليلة العدد يدينها القانون، وأن حريتهم (ما يُرى من حريتهم)، خلا تلك الأفعال، لا يمكن أن تكون موضع مس. أما أنهم، بنسبة أو بأخرى، ضحية مخيلتهم، فأنا مستعد للاعتراف بذلك، بمعنى أنها تدفعهم إلى عدم التقيد ببعض القواعد التى يشعر الجنس البشرى، خارجها، أنه معتدى عليه، الأمر الذى يعرفه، بالتجربة، كل إنسان. لكن اللامبالاة التى يبدونها نحو النقد الذى نتناولهم به يجيز الافتراض أنهم يستمدون عزاء عظيما من مخيلتهم وأنهم يلذون هذيهم حتى لحتملوا أن لا يقدَّر إلا منهم. وفى الحق، ليست التهاويل والأوهام وما إليها بمصدر المتعة المستهان به. والشهوانية الأشد احتشاما تجد فيها نصيبها، وأعلم أنى أتمنى لو أروض، لأمسيات طويلة، تلك اليد الجميلة التى، فى آخر صفحات «ذكاء» تين، تنهمك فى آثام طريفة. وأما نجاوى المجانين فقد أمضى عمري فى استجرارها. فهم أناس ذوو صدق دقيق وطيب سريرة لا يماثله غير طيب سريرتى أنا. وقد وجب أن يذهب كولومبوس مع مجانين ليكتشف أمريكا. وانظروا كيف تجسد ذلك الجنون ودام.

ليست خشية الجنون بالتى ستقسرنا على إبقاء راية المخيلة منكسة.

ومقاضاة الموقف الواقعى تتطلب التحقيق فيها، بعد مقاضاة الموقف المادى. على أن هذا، الأكثر شاعرية من سابقه، يتضمن من قبل الإنسان تكبرا منكرا، فى الصحيح، لا انحطاطا جديدا وتاما. ويجدر أن نرى فيه، قبل كل شئ، رد فعل موفقا ضد بعض اتجاهات

مضحكة للروحانية. وأخيرا فهو غير ممتنع عن التلاؤم مع بعض العلو الذهنى.

أما الموقف الواقعى، المستوحى من المذهب الوضعى، من القديس توما الاقوينى إلى أناتول فرانس، فيبدو لى وكأنه معاد لكل ارتقاء فكرى وخلقى. إننى أمقته، لأنه مؤلَّف من بلادة ومن بغضاء ومن عجرفة فارغة. وهو الذى يؤتى، اليوم، هذه الكتب المشينة وهذه المسرحيات المهينة. وهو لا ينى يتقوى فى الصحف ويحبط العلم والفن، بدأبه على تملق العامة فى أنواقها الأحط. الوضوح المقارب البلاهة، عيشة الكلاب، وأثر ذلك فى نشاط الأذهان الأصفى. وانتهى قانون الجهد الأقل بأن فرض نفسه عليهم كما على الآخرين. ونتيجة فكهة لحال الأمور هذا فى الأدب، مثلا، هى وفرة الروايات المطولة، الكل يوافى «بملاحظته» المتواضعة، وقد عرض بول فاليرى أخيرا، لضرورة التصفية، جمع كتاب يضم قدر ما يمكن من مطالع روايات وكان يتوقع من سخفها كثيرا، وكان ذلك سيتناول المؤلفين الأشهر. ومثل هذه الفكرة لاتزال تشرف بول فاليرى الذى كان يؤكد لى، منذ أمد، أنه سيرفض أبدا أن يكتب: «**خرجت المركيزة فى الساعة الخامسة**». لكن، هل صدق وعده؟

إذا كان إنشاء الإعلام المحض البسيط، الذى نرى مثاله فى الجملة الملهوجة، هو الدارج وحده تقريبا فى الروايات، فذلك، ويجب الاعتراف، لأن طموح المؤلفين لا يرمى بعيدا، والطابع الطُرَفى، الخاص دونما فائدة، لكل من شروحهم، يسوقنى إلى الظن أنهم يلهون على حسابى. إنهم لا يكفوننى أيا من ترددات شخصهم: هل سيكون أشقر، كيف سيدعى، هل سنمر لنأخذه فى الصيف؟ كلها

أسئلة حلّت، مرة وإلى الأبد، كيفما اتفق. ولا يتركون لى من حرية تصرف غير أن أغلق الكتاب، الأمر الذى لا أتورع عنه، حول الصفحة الأولى. والأوصاف! لا شئ يوازى غثاثة هذه، إن هى إلا ركم صور شائعة، يتبجح فيها المؤلف كما يشاء، وينتهز الفرصة ليدس لى رسومه المستنسخة محاولا جعلى أوافق معه على ما هو معروف مبتذل:

«كانت الغرفة الصغيرة التى ادخل إليها الشاب منجدة بورق أصفر: كان فيها أزهار غرنيق وستائر من شفوف على النوافذ. كانت الشمس الغاربة تلقى على كل هذا نورا سافرا. لم تكن الغرفة تحوى شيئا مميزا. والاثاث، من خشب أصفر. كان كله قديماً جدا. اريكة ذات مسند كبير مقلوب ومنضدة ذات شكل بيضوى مواجهة للأريكة. ومغسلة ومرآة ما بين النافذتين، وكراسى على مدار الجدران. ومنقوشتان أو ثلاث تمثل أوانس ألمانيات وفى أيديهن عصافير. ذلك هو الاثاث كله».[1]

أن يتقصد الذهن، ولو عرضا، « **مواضيع** » كهذه، أمر لا أطيق التسليم به. سيؤكد لى أن الرسم المدرسى هذا جاء فى محله وأن للمؤلف، فى هذا المكان من الكتاب، أسبابه لإبهاظى. ولن يمنع ذلك أن يكون قد أضاع وقته، إذ أنى لا أدخل غرفته. إن كسل وتعب الآخرين لا يستوقفاننى. فلى عن استمرار الحياة فكرة هى من التقلب بحيث لا أعادل بفتراتى الأفضل لحظات غمى وضعفى. أريد أن يُصمَت حين يَتوَقف عن التأثر. واعلموا جيدا أنى لا أتهم عدم الطرافة «**من أجل**» عدم الطرافة، وإنما أقول إنى لا أعرض الآناء العميقة من حياتى، وأنه قد يكون من غير اللائق بأى إنسان أن يبلور

١ ـ دوستويفسكى: الجريمة والعقاب.

تلك التى تبدو له باطلة. ووصف الغرفة هذا، دعونى ،**أغربله**، مع كثير غيره.

حذار! لقد بلغت علم النفس وهو موضع أحرص ألا أهزل بصدده. يختار المؤلف طبعا يحمله المسئولية. وحين يستقر عليه، يجعل بطله يجول خلال العالم. ومهما يحدث، فإن هذا البطل، الذى توقَّعَت أعماله وردود فعله بصورة مدهشة، عليه ألا يحبط، وأن يبدو، مع ذلك أنه يحبط، والحسابات التى قدرت له، يمكن لأمواج الحياة أن تبدو تختطفه وتدحرجه وتهبطه، فإنه سيظل ينتسب إلى ذلك النموذج من الإنسان «المصنَّع». إنها مجرد لعبة شطرنج أنا فيها جد زاهد، لأن الإنسان، أيا كان، هو عندى خصم عاجز. وما لا أطيق عليه صبرا هو تلك المناقشات الزرية حول نقلة أو أخرى، فى حين لا ربح ولا خسار فى الأمر. وإذا كان الحاصل لا يفى بالعناء، وإذا كانت الحجة الموضوعية تسيئ شديدا، كما هى الحال هنا، إلى من يلجأ إليها، ألا يجد الانعزال، ذهنيا، عن هذه المقولات؟. «إن التنوع من السعة بحيث كل لهجات الأصوات، كل المشيات، كل السعلات، كل التمخطات، كل العطسات...[1]». إذا لم يحو عنقود حبتين مثيلتين، لماذا تريدون أن أصف لكم هذه الحبة بالأخرى، بكل الأخر، وأجعلها حبة صالحة للأكل؟ إن الهوس العضال القائم على إرجاع المجهول للمعلوم، لقابل التصنيف، «يهدهد» الأدمغة. والرغبة فى التحليل تتغلب على المشاعر[2]. وينجم عن ذلك شروح مستفيضة لا تستمد قوة إقناعها إلا من ذات غرابتها ولا تخدع القارئ إلا باستعمال مفردات تجريدية، هى، مع ذلك، غير بينة المؤدى. لئن كانت الأفكار العامة، التى تنوى الفلسفة، إلى الآن، مناقشتها، قد دلت بذلك على

١ - باسكال.

٢- باريس - بروست.

اختراقها النهائى لمجال أوسع، سأكون أول المبتهجين. لكن الأمر لا يعدو التكلف المتأنق. وإلى اليوم، ماتزال الطرائف، وسواها من اللطائف تتبارى لتخفى عنا الفكرة الحقيقية التى تتحرى ذاتها، بدلا من الانشغال «بفتح الفال» بالورق. ويبدو لى أن كل فعل يحمل فى ذاته تبريره، على الأقل لمن قدر على ارتكابه، وأن له قوة مشعة من شأن أى تفسير أن يضعفها. بل إنها، من جراء هذا التفسير، تتوقف، نوعا، عن الحدوث. فأبطال ستندال يسقطون تحت تقويم هذا المؤلف لهم، وهو تقويم مختلف التوفيق لا يضيف لمجدهم شيئا. وإنما نجدهم حقا حيث يكون أضاعهم ستندال.

مازلنا نحيا فى ظل المنطق، هذا، بالطبع، ما أردت الوصول إليه. لكن الأساليب المنطقية، فى أيامنا، لا تطبق إلا على حل مسائل ذات أهمية ثانوية. والعقلانية المطلقة الرائجة إلى الآن لا تتيح النظر لغير الوقائع المتعلقة، وثيقا، بتجربتنا. والغايات المنطقية، فى المقابل، تفوتنا. ولا فائدة من إضافة أن التجربة نفسها قد عُيِّنت لها حدود. فهى تدور فى قفص يتعذر أكثر فأكثر إخراجها منه. وتعتمد، هى أيضا، على النفع المباشر، ويحرسها العقل الراشد. وتحت راية الحضارة، وبحجة التقدم، توفق إلى إخلاء الذهن من كل ما يمكن أن يُنعت، حقا أو باطلا، بالتطير وبالأسطورة، وإلى حظر كل طريقة بحث عن الحقيقة لا تتلاءم مع العرف. وإنما لمجرد مصادفة، فى الظاهر، أن أعيد إلى النور جزء من العالم الفكرى، هو، فى رأيى، الأهم بما لا يقاس، كان يتظاهر بالانقطاع عن الاكتراث به، والشكر على ذلك لاكتشافات فرويد. وبناء على هذه الاكتشافات ارتسم، أخيرا، تيار رأى عام، سيستطيع بفضله المنقب الإنسانى أن يعمق

تحرياته، بعد أن يجوز له عدم الاقتصار على اعتبار الوقائع الوجيزة. ولعل المخيلة أضحت على أهبة أن تسترجع حقوقها. فإذا كانت قرارة ذهننا تحوى قوى غريبة قادرة أن تزيد قوى السطح أو أن تكافحها بنجاح، فالنفع كل النفع فى التمكن منها، التمكن منها أولا، بغية إخضاعها، من بعد، إذا لزم الأمر، لرقابة عقلنا. ولن يجد المحللون أنفسهم، فى ذلك، إلا ربحا. لكن ينبغى الملاحظة أن لا وسيلة معينة «بديئيا» للسير فى هذا المشروع، وأنه، حتى إشعار آخر، قد يكون سواء من اختصاص الشعراء أو من اختصاص العلماء، وأن نجاحه لا يتوقف على الطرق المتباينة الهوى التى ستسلك!

كان فرويد على غاية الصواب حين صرف بحثه إلى الحلم. فمن غير المقبول، حقا، أن يظل هذا الجزء العظيم من النشاط النفسانى لا ينتبه إليه إلا بمقدار. (مادام الفكر لا ينقطع استمراره، على الأقل من ولادة الإنسان حتى مماته، فإن مجموع فترات الحلم، من حيث المدة، حتى إن لم نعتبر غير الحلم المحض، حلم السبات، ليس أدنى من مجموع فترات الواقع، ولنكتف بالقول: فترات اليقظة). والفارق البالغ فى الأهمية والخطورة الذى تبديه للملاحظ العادى أحداث الصحو وأحداث النوم لا ينى يدهشنى. ذلك أن الإنسان، حين يخرج من رقاده، هو قبل كل شئ ألعوبة ذاكرته، وأن هذه، فى الحالة الطبيعية، تلذ أن تعيد له، فى غير جلاء، ظروف الحلم، وأن تجرد هذا من كل نتيجة حاضرة، وأن تطلق «المحدد» الوحيد من النقطة التى يظن أنه خلفه فيها قبل بضع ساعات: هذا الأمل المكين، هذا الشغل الشاغل. ويتوهم أنه يواصل شيئا يستحق العناء. وهكذا يغدو الحلم مرتدا إلى فترة معترضة، كما الليل. وكما الليل، عموما، لا يحمل

نصحا. إن هذا الوضع الغريب يستدعى، فى رأيى، بعض الخواطر:

١ ـ إن الحلم، فى نطاق عمله (ما يُعدّ عمله)، وحسب الظاهر، متصل وحامل معالم النظام. والذاكرة، وحدها، تدعى حق إحداث حذف فيه وعدم اعتبار نقاط الانتقال وتزويدنا بسلسلة أحلام بدلا من «**الحلم**». وكذلك، لا ندرك، فى كل لحظة، من الحقائق، إلا صورا متميزة يكون الربط بينها من شأن الإرادة[1]. والأمر الواجب الملاحظة هو أن لا شئ يجيز لنا حمل العناصر المكونة للحلم على تشتت أكثر. ويؤسفنى أن أتكلم فى صيغة تتنافى مع الحلم، مبدئيا. إلى متى المنطقيون، والفلاسفة الراقدون؟ بودى أن أنام لأبوح بذاتى للنوم كما أبوح بها للذين يقرؤوننى مفتوحى الأعين، لانتهى، فى هذا الصدد من ترجيح الإيقاع الواعى لفكرى. ولربما كان حلمى فى الليلة الماضية متابعة لحلمى فى الليلة التى سبقتها، بدقة جديرة بالتقدير. «**ذلك جائز**»، كما يقولون. وبما أنه لم يثبت، مطلقا، فى هذا التوالى، أن «الواقع» الذى يشغلنى يستمر فى حلم الحلم، وأنه لا يضمحل فى عراقة التقادم، لماذا لا أمنح الحلم ما أمنعه، أحيانا، عن الواقع، أى قيمة اليقين فى ذاته تلك، التى، فى وقتها، لا تتعرض لإنكارى؟ ـ لماذا لا أتوقع من دلالة الحلم أكثر مما أتوقع من درجة وعى هى، كل يوم، أعلى؟ ألا يمكن للحلم، هو أيضا، أن يطبَّق فى حل قضايا الحياة الأساسية؟ هل هذه الأسئلة هى نفسها فى حالة كما فى أخرى، وفى الحلم، هل هذه الأسئلة موجودة، سلفا؟ وهل

١ ـ يجب أن تدخل فى الحساب «سماكة» الحلم. فأنا لا أحفظ، عموما، إلا ما يأتينى من طبقاته الأشد سطحية. وأفضل ما أحب تصوره منه هو كل ما يتبدد عند اليقظة. كل مالا يتبقى لى من شئون ذلك اليوم السابق، أوراق شجر داكنة، وأغصان بليدة. وفى «الواقع»، كذلك، أفضل «السقوط».

الحلم أقل أحداثا لأثر مما سواه؟ إننى أشيخ، وأكثر من ذلك الواقع الذى أحسبنى مقتصرا عليه، قد يكون الحلم، لا مبالاتى به، هو الذى يجعلنى أشيخ.

٢ ـ أتناول، مرة أخرى، حالة اليقظة. وإنى ملزم أن أعتبرها ظاهرة تداخل. لا يبرهن الفكر، فى تلك الظروف، على ميل غريب للتحير فحسب (وهى قصة التبلبلات والأخطاء على أنواعها التى بدأ سرها يتكشف لنا الآن)، بل أيضا، لايبدو فى عمله الطبيعى، خاضعا لغير إيحاءات تأتيه من ذلك الليل العميق الذى أعهد به إليه. وتوازنه، مهما يكن محكما، نسبى. وهو لا يكاد يجرؤ على التعبير، فإن يفعل، فليكتف بملاحظة أن هذا الرأى أو تلك المرأة ،**قد أثر فيه**،. أما أى تأثير، فهو عاجز تماما أن يبينه، موضحا بذلك مدى ذاتيته، ولا شئ سواه. هذا الرأى، أو هذه المرأة، **يشوشه**، يدعوه إلى صرامة أقل، ومن فعله أنه يعزله، للحظة، عن محله، ويضعه فى السماء، كالراسب الجميل الذى يمكن أن يكونه، الذى هو. وإذ تعييه الحيل، يستشهد المصادفة، الإله الأكثر غموضا من غيره، ويعزو إليه جميع ضلالاته، ما أدرانى أن الزاوية التى أثر به منها هذا الرأى، وأن ما أحبه فى عين تلك المرأة، ليسا، **بالضبط**، ما يربطه بحلمه، ويقيده بمعطيات أضاعها بخطئه؟ ولو كان الأمر على غير ذلك، ما أكثر ما كان، فى ظنى، يستطيع فعله؟ بودى لو أعطيه مفتاح ذلك الممر.

٣ ـ إن ذهن الإنسان الذى يحلم يرتضى تماما ما يقع له. ومسألة الإمكان المقلقة لا تبقى مطروحة. إقتل، طر بأسرع، أحب قصارى ما يحلو لك. وإن تمُت، ألست واثقا من أنك ستستيقظ من بين الموتى؟ دعك تقاد، فالأحداث لا تحتمل أن تؤجلها. أنت لا اسم لك. إن سهولة كل شئ لا يحيطها تقدير.

أى علة؟، إنى لأسأل، علة أوسع جدا من الأخرى، تمنح الحلم هذا المسلك الطبيعى، وتجعلنى أتقبل، دون تحفظ، حشدا من الأحداث، يمكن لغرابتها، فى الساعة التى أكتب، أن تصعقنى؟ ومع ذلك فإنى أصدق عينى وأذنى، هذا اليوم السعيد جاء، وهذا الوحش تكلم.

فإن تكن يقظة الإنسان أصعب، وإن يبطل السحر بالشكل الأحسم، فلأنه سيق إلى أخذ فكرة هزيلة عن التفكير.

٤ ـ من اللحظة التى يخضع فيها الحلم لفحص منسق، والتى يتوصل فيها، بوسائل واجبة التعيين، إلى تعريفنا به فى تمامه، (وهذا يفترض تدريبا للذاكرة يتناول أجيالا، ولنبدأ، مع ذلك، فى تسجيل الوقائع البارزة)، والتى ينتشر فيها خطه البيانى، فى انتظام واتساع لا مثيل لهما، يمكننا أن نأمل أن الغوامض التى ليست غوامض ستخلى المكان «للغامض» الأعظم. وإنى مؤمن بالحل المستقبل لهاتين الحالين بالغتى التضاد، فى الظاهرة ، التى هما الحلم والواقع، فى نوع من واقعية مطلقة، من «**سوريالية**»، أى «**واقعية خارقة**»، إذا جاز القول. إلى بلوغ ذلك أسير، موقنا من عدم الوصول، لكن غير مهتم بموتى لدرجة أن لا أحصى، قليلا، مباهج ذلك الامتلاك.

يروى عن سان ـ بول ـ رو، فى القريب، إنه كان، عندما يذهب إلى النوم كل يوم،، يأمر بتعليق لافتة على باب منزله، كتب عليها «**الشاعر يعمل**».

وهناك الكثير مما يمكن قوله لكنى لم أرد، مرورا، غير أن ألامس موضوعا يحتاج وحده إلى عرض شديد الإسهاب وإلى تدقيق شديد الصرامة. سأعاوده. أما هذه المرة فكانت غايتى عقاب «بعض الخارق» المتفاقم عند بعض الناس، وذلك الهزء الذى يريدونه له هدفا.

ولنحسم الأمر: «إن الخارق جميل دائما، وكل خارق جميل، بل لا جميل إلا الخارق مطلقا.»

وفى مجال الأدب، ليس غيرالخارق قادر أن يخصب أعمالا تتبع نحوا دونا، كالرواية، وبشكل عام، كل ما ينتسب إلى الحكاية، و«راهب» ليويس[١] برهان على ذلك رائع. فنَفَس الخارق يحيى القصة بتمامها. ومن قبل أن يحرر المؤلف أشخاصه الرئيسيين من كل قيد (نبوى) نشعر بهم متهيئين للفعل فى نخوة لا سابقة لها. هذا الشغف بالخلود الذى يحمسهم بلا فتور يعطى نبرات لكربهم ولكربى. أعنى أن هذا الكتاب لا يهيج، من أوله إلى آخره، وعلى أصفى وجه، إلا الذى، فى الذهن، يصبو إلى مغادرة الأرض، وأنه، إذ يجرَّد من جزء زهيد من تنسيق الروائى، حسب رائج الزمان، يعتبر مثالا للإتقان وللعظمة البسيطة[٢]. وأحسب أن أحدا لم يأت بأفضل، وأن شخصية «ماتيلدا» خاصة هى الإبداع الأوقع فى النفس الذى يمكن تسجيله لصالح هذا النمط «الممثل» فى الأدب. إنها إغراء مستمر أكثر منها شخصية. وإذا لم تكن الشخصية إغراء فماذا تكون؟ على أنها إغراء بالغ. و«لا شئ يستحيل على من يعرف أن يجرؤ» يعطى، فى «الراهب» كل مداه المقنع. الأشباح تلعب فيه دورا منطقيا، طالما أن الذهنيةالناقدة لا تستولى عليها لتنازع فى حقيقتها. وكذلك عقاب أمبروزيو عتالج بطريقة منصفة طالما أن الذهنية الناقدة قبلته، أخيرا، كخاتمة طبيعية.

قد يبدو تحكميا أن أقترح هذا المثال، حين يتعلق الأمر بالخارق الذى تناولته آداب الشمال والآداب الشرقية، باقتباس بعد اقتباس

١ ـ ليويس (ماتيو غريغورى) روائى إنجليزى (١٧٧٥ ـ ١٨١٨) ـ مؤلف «الراهب».
٢ ـ الرائع فى الوهمى هو أنه لم يعد هناك من وهمى. فليس إلا الواقعى.

دون الحديث عن الآداب الدينية الخالصة، فى جميع البلاد. ذلك أن أغلب الأمثلة التى كان لهذه الآداب أن تزودنى بها مشوبة بالولودية إذ هى موجهة إلى الأطفال. وباكرا يعظم هؤلاء عن الخارق ولا يحتفظون بنقاء الذهن الكبير الكافى ليتمتعوا شديدا ، **بجلد الحمار**،.[١] ومهما بلغ جاذب قصص الجنيات فإن الإنسان يتوهم الانحطاط إن هو اغتذى بها. وأسلّم أنها ليست كلها من سنه. إن نسيج اللامحتمل المحبب يتطلب أن يكون أدق قليلا، كلما تقدم بنا العمر، ولانزال ننتظر أنواع العناكب تلك... لكن الخواص لا تتبدل جذريا. إن الخوف وحب الطريف والحظوظ والميل إلى الترف هى وسائل لا يمكن أن يُلجأ إليها دون جدوى. وهناك قصص تنتظر كتابتها للكبار، قصص ماتزال زرقاء تقريبا[٢].

وليس الخارق ذاته فى جميع الأزمان. فهو ينتمى، بشكل غامض، إلى نوع من إلهام شامل لا يبلغنا منه إلا الجزئيات. إنها ،**الأطلال**، الرومنسية، أو ،**عارضة الأزياء**، الحديثة، أو أيما رمز من شأنه أن يحرك الإحساس الإنسانى لزمن. وفى هذه الأطر التى تجعلنا نبتسم، يرتسم، مع ذلك، دوما، الجزء الإنسانى المقيم. وهذا سبب أنى أحترمها، سبب أنى أعتبرها غير منفصلة عن أعمال عبقرية هى أشد من غيرها تأثرا وألما. إنها مشانق ڤيّون، إغريقيات راسين، أرائك بودلير. وهى تتوافق، فى الزمن، مع كسوف للذوق، جعلتُ لأشقى به، أنا الذى أتصور الذوق كبقعة فسيحة. وفى فساد ذوق عصرى أجهد لأذهب إلى أبعد من أى سواى. لى أنا، لو عشت فى

١ ـ عنوان قصة للأطفال.

٢ ـ القصص الزرقاء: قصص الجنيات السواحر (م).

عام ١٨٣٠، لى أنا فطيرة «الراهبة» الدامية، لى أنا أن لا أبخل بذلك «لنداهن» المبتذل الخبيث الذى تحدث عنه المقلد الهازئ كويزان، لى أنا، لى أنا أن أجتاز فى استعدادات بيانية جبارة جميع أطوار «القرص الفضى». أما لليوم فإنى أفكر فى «**قصر**» لا يكون نصفه، حتما، مهدما، هذا القصر ملكى، أراه فى موقع زراعى، غير بعيد عن باريس، ملحقاته لا تنتهى، وأما الداخل فقد رمم بشكل ممتاز حتى لم يعد فيه ما يقال من حيث الراحة. سيارات تقف أمام الباب الذى تخفيه ظلال الأشجار. بعض من أصحابى يقيمون معى فيه: هذا لويس أراغون يذهب، لا يجد وقتا إلا لتحيتكم، وفيليب سوبو ينهض مع النجوم، وبول ايلوار، ايلوارنا العظيم، لم يعد بعد. وها روبير دسنوس وروجيه ڤيتراك يقرآن مرسوما قديما ردئ الخط حول المبارزة، وجورج أوريك وجان پولان، وماكس موريز البارع فى التجذيف، وبنجامان بيريه فى معادلاته عن الطيور، وجوزيف ديلتيل، وجان كاريڤ؛ وجورج ليمبور، وجورج ليمبور، (هناك سياج كامل من جورج ليمبور)، ومارسيل نول، وهذات. فرانكيل يشير إلينا من منطاده المقيد، وجورج مالكين وأنطونان أرتو وفرنسيس جيرار وبيير ناڤيل، وج.أ. بوافار، ثم جاك بارون وأخوه، جميلين أنيسين، وكثير غيرهم أيضا، ونساء فاتنات، حقا. هؤلاء الشباب، ماذا تريدون أن يمتنعوا عنه، إن رغباتهم، بالنسبة للثراء، أوامر. ويأتى فرنسيس بيكابيا ليرانا، وفى الأسبوع الماضى، استقبلنا فى بهو المرايا المدعو مارسيل دوشان الذى لم نكن عرفناه بعد. وبيكاسو يصطاد فى الجوار. وروح «**التثبيط**» قد اختارت القصر لها مسكنا، وبها نعمل حين يتعلق الأمر بصلاتنا مع مثلائنا. لكن الأبواب مفتوحة دائما، ولا

نبدأ «بصرف» الناس، كما تعلمون. وفوق ذلك، فإن العزلة واسعة ولا نتلافى كثيرا. ثم أليس المهم أن نكون سادة أنفسنا، وسادة النساء، والحب، أيضا؟

وسيثبَت عليّ الكذب الشاعرى: سيروح كلٌ مرددا أنى أقطن فى شارع فونتين وأنه لن ينخدع بهذا القول. فليكن! أما هذا القصر الذى استقبلته فيه، هل هو متأكد من أنه صورة؟ وماذا لو كان موجودا، مع ذلك! ها هم ضيوفي يشهدون، وسنوحهم هو الطريق المضئ الموصل إليه. إننا نعيش، حقا، بنزواتنا «حين نكون فيه». وكيف يمكن لما يفعله الواحد أن يضايق الآخر، هناك، فى المأمن من الملاحقة العاطفية ومن مواعيد المناسبات؟

إن الإنسان يقرر ويقدر. ويتوقف عليه وحده أن يملك كل ذاته، أى أن يُبقى فى حالة الفوضى عصابة رغباته، المتزايدة الخطر يوما عن يوم. إنها تحوى فى نفسها التعويض الكامل عن الشقاء الذى نعانى. ويمكن لها أن تصبح منظمة، أيضا، لمجرد اعتبار أية خيبة غير صميمة كفاجعة. وليأت الزمن الذى تأمر فيه بنهاية المال، وتتناول فيه، وحدها، خبز السماء للأرض. ستظل هناك تجمعات فى الساحات العامة. و**تحركات**، ما كنتم تأملون المشاركة فيها. لكن، وداعا للاصطفاءات المستحيلة، لأحلام الهاوية، للمنافسات، للجَلَد الطويل، لتوالى الفصول، لترتيب الأفكار المصنّع، لمنحدر الخطر، لوقت كل شئ. وحسب المرء أن يعنى **بممارسة** الشعر. أليس علينا، نحن، أن نحاول ترجيح ما نعتبره واسع علمنا؟.

لا يهم أن يكون شئ من عدم التناسب بين هذا الدفاع وبين الصورة التى ستتبعه. فقد كان الشأن العودة إلى منابع الخيال

الشعرى، وما هو أكثر، البقاء فيها. ذلك مالا أزعم أننى فعلته. وينبغى إلزام النفس، شديدا، لاختيار الإقامة فى تلك البقاع النائية حيث يبدو كل شئ، للوهلة الأولى، يجرى على أسوأ حال، وبالأحرى، لاختيار قيادة أحد إليها. هذا إلى استحالة التأكد من بلوغها تماما. فإن تكن النتيجة عدم الارتياح، فهناك وكل مكان آخر سواء. على أن سهما يشير الآن إلى جهة تلك الأصقاع، وإن إدراك الهدف الحقيقى لم يعد يتوقف إلا على تحمل المسافر.

إننا نعرف، على وجه التقريب، السبيل المنتهج. وقد عنيت أن أروى، فى مجرى دراسة عن حال روبير دستوس، بعنوان «مدخل الوسطاء[1]»، أننى انسقت إلى «تثبيت انتباهى على جمل مجزوءة بنسب مختلفة، تغدو، فى العزلة التامة وعند اقتراب النوم، محسوسة الذهن، دون إمكان اكتشاف قصد مسبق لها.». كنت، حينذاك، أباشر محاولة المغامرة الشعرية، فى أقل حظ نجاح متاح، أى أننى كانت لى ذات مطامحى الحاضرة لكنى كنت أثق بإطالة التفكر لتجنبنى الملابسات العقيمة، الملابسات التى أستنكرها شديدا. كان ذلك حياء ذهنيا لاتزال عندى منه بقية. وفى أواخر عمرى سيعسر على أن أتكلم كما يتكلم الغير، وأن أعذر صوتى وعدد حركاتى القليل. كانت ميزة الكلام، (والكتابة، أكثر كثيرا)، تبدو لى فى القدرة على أن أقصر، بشكل مذهل، العرض (مادام هناك غرض) لعدد قليل من الأمور، شعرية وغير شعرية، جعلت نفسى مادتها. كنت أتصور أن رامبو لم يكن ينهج إلا هكذا. وكنت أنظم، فى حرص على التنويع يستحق حاصلا أفضل، آخر قصائد «دار الرهونات»، أى أنى كنت أتوصل أن أحصّل من السطور البيضاء فى

١ ـ ينظر كتاب: «الخطى الضائعة».

هذا الكتاب، فائدة ما كانت ترجى. تلك السطور كانت العين المطبقة على أعمال ذهن حسبت واجبا كتمانها عن القارئ. وما كان ذلك من قبلى غشا، بل حبا بالعنت. كنت أخال فيها تواطؤا محتملا لم أعد أجد عنه غنى. ودأبت أدلل الكلمات، مفرطا، للفسحة التى تقبلها حولها، ولتماسها مع كلمات أخرى، لا تحصى، لم أكن أنطق بها. وقصيدة «**غابة سوداء**» تنتمى إلى الحال الذهنى هذا. لقد أمضيت ستة أشهر فى كتابتها وصدقوا أنى لم أرتح يوما واحدا. لكن الشأن كان يخص التقدير الذى كنت أكنه لنفسى، أليس ذلك كافيا، وسأجد عند القارئ عذرا. إنى أحب هذه الاعترافات الحمقى. فى ذلك العهد كان الشعر المزعوم التكعيبى يحاول أن يترسى. لكنه كان خرج من دماغ بيكاسو أعزل، وفى ما هو عنى، كنت أُعتبر مملا كالمطر (ومازلت أيضا). كان يخامرنى، من جهة أخرى، أنى، من الناحية الشعرية، قد جانبت الهدى، لكن كنت أغطى خطلى قدر طاقتى، متحديا الغنائية بركم التعاريف والتراكيب (وكانت ظاهرات الدادائية وشيكة الحدوث[1]، متصنعا البحث عن تطبيق للشعر فى النشر الدعائي، (كنت أزعم أن العالم سينتهى، لا بكتاب جميل، بل بإعلان جميل للجحيم أو للنعيم). وفى الفترة ذاتها كان رجل، فى مثل إضجارى، على الأقل، هو بيير ريفيردى، يكتب:

الصورة خلق ذهنى خالص.

لا يمكن أن تولد من مقارنة، بل من مقاربة واقعين متباعدين، بنسبة أو بأخرى وكلما كانت الصلات بين الواقعين المقاربين بعيدة، كلما جاءت الصورة قوية وكلما زادت قدرتها التأثيرية وزاد واقعها الشاعرى... إلخ[2].

١ ـ الدادائية: مدرسة فن وأدب، ظهرت عام ١٩١٦ كان برنامجها يهدف إلي إلغاء كل صلة بين الفكرة والتعبير، للوصول إلى الواقع الصحيح. أسسها، فى فرنسا، الشاعر رومانى الأصل تريستان تزارا.

٢ ـ مجلة «شمال ـ جنوب» ـ آذار ١٩١٨.

هذه الكلمات، التكهنية عند جاهلي السر، كانت كاشفة قوية جدا وقد تأملتها طويلا. لكن الصورة كانت تولى عنى، وكانت جمالية ريفيردى، وهى جمالية **تستدل على العلة بمفعولها**، تجعلنى أعتبر المسبَّب سببا. وفى غضون ذلك صرت إلى التخلى، نهائيا، عن وجهة نظرى.

ذات مساء، إذن، قبل أن أنام، سمعت، ملفوظة بوضوح لايمكن معه تبديل كلمة، مفصولة، مع ذلك، عن كل حس صوتى، جملة على قدر من الغرابة، أفضت إلى، غير حاملة أثرا للأحداث التى كنت، باعتراف ضميرى، منشغلا بها فى تلك اللحظة، جملة بدت لى ملحة، جملة، أجرؤ على القول إنها «**كانت تطرق النافذة**». أخذت بها، سريعا، علما، وتهيأت أن أتجاوزها حين استوقفنى طابعها العضوى. فى الحق، هذه الجملة أدهشتنى، لم أحفظ للأسف نصها إلى اليوم، كانت على غرار «رجل مقطوع نصفين بالشباك»، لكن ما كانت تحتمل لبسا، إذ روفقت بتمثل بصرى خفيف لرجل سائر يشطره عند وسطه شباك متعامد مع محور جسمه[1]، وليس من شك فى أن الأمر كان مجرد انتصاب فى الفضاء لرجل كان منحنيا على النافذة. لكن، إذ تبعت هذه النافذة تحرك الرجل، أدركت أن أمامى صورة من نمط

١ ـ لو كنت رساما لتقدم عندى، دون ريب، هذا التمثل البصرى على الانفعال السمعى. لكن استعدادي المسبق هو بالتأكيد الذى قضى. ومنذ ذلك اليوم صادفنى أن ركزت قصدا انتباهى على مظاهر مشابهة وأعلم أنها لا تقل وضوحا عن الظواهر السمعية. ولو أزود بقلم وورقة لكان سهلا على أن أتابع نطاقاتها. فالأمر هنا ليس الرسم بل هو «النقل» كما بوضع الورق الشفاف. كنت أستطيع هكذا أن أصور شجرة وموجة ومعزفا، وكل الأشياء التى أعجز الآن أن أعطى عنها ولو مخططا ابتدائيا. وكنت أغوص، مع التأكد من الخروج، فى متاهة خطوط لا تبدو لى، لأول وهلة، تستهدف شيئا. وكنت أحس، وأنا أفتح عينى، بانطباع قوى «بما لم ير قط» والبرهان على ما قلت حققه عدة مرات روبير دسنوس: وليس، للاقتناع بذلك، غير تصفح العدد ٣٦ من «أوراق حرة» الحاوى عدة رسوم له (روميو وجولييت ـ رجل توفى هذا الصباح... وغيرهما) اعتبرتها تلك المجلة كرسوم مجانين ونشرتها بسلامة نية على هذه الصفة.

على درجة من الندرة ولم أعد أفكر بغير أن أدمجها فى عدة بنائى الشعرى. وما أن منحتها هذه الثقة حتى أوسعت المكان لسلسلة تكاد لا تكون متواترة من جمل لم تدهشنى بأقل منها. وأشعرتنى برخصى إلى حد بدا لى فيه سلطانى على نفسى باطلا وغدا همى الوحيد أن أنهى الشغب المستمر الناشب فى ذاتى(١).

لشدة انشغالى بفرويد فى تلك الفترة، ولائتلافى مع طرق فحصه التى أتيحت لى، بعضا، فرصة ممارستها على مرضى خلال الحرب، قررت أن أحصل من نفسي على ما يحاول الحصول عليه منهم، أى على بث شخصى فى أسرع دفق ممكن لا يتناوله النقدالذاتى بحكم ولا يتقيد، بالتالى، بتحفظ، ويكون، بقدر الدقة المستطاع، « **الفكرة المقالة**». وخيل لى، وما يزال يخيل لى، - والطريقة التى وافتنى بها جملة الرجل المقطوع شاهد على ذلك - أن سرعة الخاطر ليست أعلى من سرعة الكلام، وأنها لا تتحدى، حتما، اللسان، بل ولا القلم الذى

١ - يضع كنوت هامسون تحت تأثير «الجوع» ذلك الكشف الذى أنتابنى. ولعله على صواب (والواقع أننى لم أكن آكل كل يوم فى ذلك الحين). وهو، فى الحديث التالى، يروى ذات الأعراض:

«وفى اليوم التالى استيقظت باكرا. كان الوقت لايزال ظلاما. وكانت عيناى مفتوحتين منذ فترة طويلة حين سمعت ساعة المسكن، تحتى، تدق الخامسة. أردت أن أنام ثانية فلم أستطع. كنت منتبها تماما وكان ألف شئ يتردد فى رأسى.

وفجأة سنحت لى بعض قطع جيدة، صالحة تماما لتستعمل أساسا لرواية مسلسلة. ووجدت، بغتة ومصادفة، جملا جميلة جدا، جملا كما لم أكتب من قبل أبدا، رددتها، على مهل، لنفسى، كلمة كلمة. كانت ممتازة وظلت تتدفق علىّ أخرى. فنهضت، وتناولت ورقة وقلما من المنضدة التى كانت خلف سريرى. وكما لو أن شريانا منى انقطع: كل كلمة تتبع كلمة وتتخذ مكانها وتتلاءم مع الظرف. وتراكمت المشاهد وانسردت الأحداث وانبثقت المخاطبات فى ذهنى. وكانت متعتى عظيمة. كانت الأفكار تأتينى بسرعة قصوى وتستمر تسيل بوفرة جعلتنى أضيع كثيراً من التفاصيل الدقيقة لأن قلمى لم يستطع أن يجرى بالعجلة الكافية ومع ذلك كنت أبادر ويدى تحرك دائما. لم أضع دقيقة وكانت الجمل تستمر تتجمع فىّ، كنت ممتلئا بموضوعى.»

كان أبولينير يؤكد إن لوحات شيريكو الأولى قد رسمت تحت تأثير اضطرابات حسية مختلطة (صداع، مغص،....).

يجرى. وفى هذه الحالة النفسية شرعنا، فيليب سوبو، الذى أطلعته على هذه الاستنتاجات الأولى، وأنا، نُسوِّد ورقا، فى ازدراء جدير بالتقدير لما قد يتولد عن ذلك، أدبيا. وفعلت سهولة التحقيق الباقى. وفى نهاية اليوم الأول تيسر لنا أن نتلو لبعض قرابة خمسين صفحة تحصلت بهذه الطريقة، وأن نبدأ فى مقارنة نتائجنا. كانت نتائج سوبو ونتائجى، إجمالا، فى تشابه ملحوظ: نفس عيوب البناء، ونواقص ونقاط ضعف من نفس الطبيعة، لكن، أيضا، فى الجهتين، قريحة مدهشة وكثير من الانفعال، ونخبة هامة من صور ذات نوعية ما كنا لنستطيع بلوغها بالجهد الطويل، غير أنها من طرافة شديدة التفرد، وهنا وهناك، دعابة ذكية. والفروق القليلة بين نصينا بدت لى راجعة، جوهريا، إلى اختلاف مزاجينا، فمزاج سوبو أقل اعتدالا من مزاجى، وإذا سمح لى بهذا الانتقاد الخفيف، فى أنه ارتكب، فى رأس بعض الصفحات، وبروح سخرية دون شك، خطأ توزيع بعض الكلمات على أنها عناوين. وعلى، فى المقابل، إنصافه بالاعتراف بأنه عارض دائما وبكل قواه أى تعديل على كل مقطع من هذا النوع وجدته سئ الوضع. وكان فى ذلك على حق، فعلا.[1] والواقع أن من المتعذر جدا أن نقدر بما تستحق مختلف العناصر التى أمامنا. بل يمكن القول إن من المستحيل تقديرها للقراءة الأولى. وأنتم، الذين تكتبون، هذه العناصر، فى الظاهر، «**غريبة عليكم قدر ما هى غريبة على غيركم**»، وتحذرونها فطريا. إنها، فى الاصطلاح الشعرى،

١ - إن إيمانى متزايد بعصمة فكرى بالنسبة لذاتى. وهذا مطلق العدل. ومع ذلك، وفى «كتابة الفكر» هذه، حيث نكون تحت رحمة أول إلهاء خارجى، قد تحدث «فقاقيع». ولا عذر لمن يحاول إخفاءها. إن الفكر، تعريفا، قوى ولا يمكن أن يقع فى خطأ. وإلى الإيحاءات التى تأتيه من الخارج يجب أن تعزى نواحى الضعف الواضحة هذه.

تتميز بدرجة فائقة من «**الاستحالة الفورية**، وشأن هذه الاستحالة، لدى الفحص الأعمق، هو إخلاء المكان لكل ما هو مقبول ومشروع في العالم: أعنى إفشاء عدد من الخواص ومن الوقائع، لا تقل، فى الإجمال، موضوعية عن غيرها.

وتكريما لغيوم أبولينير، الذى كان توفى حديثا، والذى بدا لنا، فى أكثر من مرة، قد خضع لتدريب من هذا النوع، دون أن يكون تخلى فيه، مع ذلك عن وسائل أدبية هزيلة، أطلقنا، سوبو وأنا، اسم «**السوريالية**، أى **الواقعية الخارقة**، على هذا النمط من التعبير الخالص الذى توصلنا إليه، والذى تشوقنا أن نفيد منه أصدقاءنا. وأحسب أنه لم يعد من مجال، اليوم، للرجوع عن هذه الكلمة، وأن المفهوم الذى اتخذناها به قد رجح على مفهومها الابوليناري. كان فى وسعنا، دون شك، وبأصح حجة أيضا، أن نستولى على تعبير «**ما فوق الطبيعية. أو الطبيعية الفائقة**، الذى استعمله جيرار دو نيرفال فى إهداء «**الفتيات الناريات**،[1] ويبدو أن نيرفال كان يتمتع، حقا «**بالذهنية**، التى ندعيها، بينما لم يملك أبولينير إلا «**الحرفية**،، غير الكاملة، للسوريالية، وأظهر عجزه عن أن يعطى عنها لمحة نظرية تستوقفنا. وهاكم جملتين لنيرفال، أراهما، فى هذا الصدد، كبيرتى الدلالة: .

«سأشرح لك. يا عزيزى دوماس. الظاهرة التى تحدثت عنها آنفا. هناك. كما تعلم. بعض القصاصين الذين لا يمكن أن يخترعوا دون أن يوحدوا ذاتهم مع شخصيات خيالهم. وأنت تعرف بأى اقتناع كان صديقنا القديم. نودييه. يروى مصيبته إذ أعدم. على المقصلة. فى عهد الثورة. وكنا. لشدة تصديقنا. نتساءل كيف استطاع أن يعيد التحام رأسه بجسده.

١ ـ وكذلك توماس كارلايل فى «سارتور ريزارتوس»: «ما فوق الطبيعة الطبيعى» (١٨٣٣ - ١٨٣٤).

... وبما أنك تهورت بذكر إحدى تلك القصائد «الأربع عشرية» المنظومة فى تلك الحالة من الانسياق الحالم «فائق الطبيعية». كما كان سيقول الألمان. فعليك أن تستمع إليها جميعها. ستجدها فى آخر المجلد. إنها ليست أكثر إبهاما من ميتافيزيقية هيغل. أو «خالدات» سويدنبورغ. وقد تفقد الكثير من سحرها. إذا فسرت. لو كان الأمر ممكنا مطمئنا. وعليك الاعتراف لى بمزية التعبير...(١)»

من التغرض الشديد أن يُنكر علينا حق استعمال كلمة «**سوريالية**»، فى المعنى الخاص جدا الذى نقصده لها، إذ من الواضح أن هذه الكلمة، قبلنا، لم تلق رواجا. وإنى أعرفها، إذن، مرة نهائية:

« **سوريالية**»: اسم مؤنث، آلية نفسية ذاتية خالصة يستهدف بواسطتها التعبير، إن قولا، وإن كتابة، وإن بأية طريقة أخرى، عن السير الحقيقى للفكر. هى إملاء من الذهن فى غياب كل رقابة من العقل، وخارج اهتمام جمالى أو أخلاقى.

«**فلسفيا**»: تقوم السوريالية على الإيمان بواقع فائق لبعض أشكال توارد فكرى، أهملت حتى عهدها، وبقدرة الحلم العظيمة، وبتصرف الذهن المجرد من الغاية، وترمى إلى الهدم النهائى لجميع التراكيب النفسية الأخرى، وإلى القيام مقامها فى حل قضايا الحياة الرئيسية. أقر «بالسوريالية المطلقة»: السادة أراغون، بارون، بوافار، بروتون، كاريف، كروفيل، ديلتيل، دسنوس، إلوار، جيرار، لامبور، مالكين، موريز، نافيل، نول، بيريه، بيكون، سوبو، فيتراك.

كأنى بهؤلاء هم الكل، إلى الآن، ولا مجال لخطأ، خلا أمر إيذيدور دوكاس الجدير بالتعميق، والذى تعوزنى المعطيات عنه. وفى

١ ـ تنظر، أيضا «الايديوريالية، أى الفكرية الواقعية»، لسان بول رو.

الصحيح، هناك عدد كثير من الشعراء، ولمجرد نظرة سطحية إلى إنتاجهم، يمكن أن يعتبروا سورياليين، بدءًا من دانته، ومن شيكسبير حين يُجلّى. «وخلال المحاولات المختلفة التى اجريتها لتحليل ما يسمى. زيفا. بالنبوغ. لم اجد شيئا يمكن ان يعزى. نهاية. إلى اسلوب غير هذا الاسلوب».

إن «ليالى» يونغ سوريالية من أولها إلى آخرها. على أنها، للأسف كلام كاهن، كاهن ردئ، دون شك، لكن كاهن مع ذلك.

سويفت سوريالى فى الخبث
ساد سوريالى فى السادية
شاتوبريان سوريالى فى الأجنبية
كونستان سوريالى فى السياسة
هوغو سوريالى حين لا يكون غبيا
ديبورد ـ فالمور سوريالية فى الحب
برتران سوريالى فى الماضى
راب سوريالى فى الموت
بو سوريالى فى المغامرة
بودلير سوريالى فى الأخلاق
رامبو سوريالى فى ممارسة الحياة وفى غيرها
مالارميه سوريالى فى المناجاة
جارى سوريالى فى الشراب
نوفو سوريالى فى القبلة
سان ـ بول ـ رو سوريالى فى الرمز
فارغ سوريالى فى الجو
فاشيه سوريالى فى أنا

ريفيردى سوريالى فى بيته
سان - جون بيرس سوريالى من بعيد
روسيل سوريالى فى الرواية القصيرة
وإلى آخر ذلك.

وأصر هنا، أنهم ليسوا سورياليين دائما، بمعنى أنى أتبين، عند كل منهم، عددا من الأفكار المسبقة التى كانوا، بسذاجة، يتمسكون بها. كانوا يتمسكون بها لأنهم لم يكونوا **«سمعوا الصوت السوريالى»**. ذلك الذى يستمر يبشر عند حافة الموت ومن فوق الأعاصير، لأنهم لم يقبلوا الاندماج نغمة فى المعزوفة البديعة. كانوا آلات مفرطة الاعتزاز، ولذا لم يؤدوا، دوماً، لحنا مطربا.[1]

لكن، نحن، الذين لم نعمد إلى أى عمل تقطير، الذين جعلنا أنفسنا، فى أعمالنا، المجمع الكتيم لأصداء كثير، «**أدوات تسجيل**» متواضعة لا تقف مسحورة عند الخط الذى ترسم، ربما كنا نخدم مصلحة أنبل. لذلك نعيد بأمانة «النبوغ» المعار لنا. حدثونى عن النبوغ، عن هذا المقياس البلاتينى، عن هذه المرآة، عن هذا الباب، وعن السماء إذا شئتم.

ليس لدينا نبوغ، اسألوا فيليب سوبو:

«إن المصانع التشريحية والمساكن الرخيصة ستهدم أعلى المدن».

وروجيه فيتراك:

«ما أن استشهدت الرخام - أمير البحر، حتى دار هذا على كعبيه كجواد يقمص أمام النجمة القطبية وعيّن لى فى مستوى قبعته ذات القرنين منطقة علىّ أن أمضى فيها عمرى».

١ - يمكننى القول ذاته فى بعض الفلاسفة وبعض المصورين. وحسبى أن أذكر من الأخيرين أوتشيلو، فى العهد الماضى، وفى العهد الحديث، سورا، غوستاف مورو، ماتيس (فى «الموسيقى» مثلا)، دوران، بيكاسو (الأصفى بكثير)، براك، دوشان، بيكابيا، شيريكو (الذى ظل طويلا رائعا)، كلى، مان راى، ماكس ارنست، وقريبا جدا منا، أندريه ماسون.

وبول ايلوار:

«إنها حكاية معروفة أرويها. إنها قصيدة شهيرة أعيد قراءتها: إني مستند إلى جدار. بأذنين مخضوضرتين وشفتين متفحمتين».

وماكس موريز:

«دب المغاور ورفيقه مالك الحزين. وفطيرة اللحم وخادمها الهواء. والمستشار الأعظم مع مستشاريه. وفزاعة العصافير وزميلها العصفور. والمخبرة وابنتها الإبرة. واللاحم وأخوة الكرنفال. والكناس ونظارته المفردة. والميسيسيبى وكلبه الصغير. والمرجان وإناء حليبه. والمعجزة وربها الطيب. ليس لهم غير أن يختفوا من على سطح البحر».

وجوزيف ديلتين:

«إنى، للأسف. أؤمن بفضيلة الطيور وتكفى ريشة واحدة لتجعلنى أموت من الضحك».

ولويس أراغون:

«وفى إحدى فترات توقف اللعب. وفيما كان اللاعبون يجتمعون حول طاسة من الشراب الملتهب. سألت الشجرة إذا كانت لا تزال تحمل شريطها الأحمر».

واسألونى أنا الذى لم أقو على الامتناع عن كتابة السطور الأفعوية باعثة الجنون لهذه المقدمة.

اسألوا روبير دسنوس الذى ربما يكون الأكثر مداناة بيننا للحقيقة السوريالية، الذى، فى أعماله التى لم تنشر بعد[1]، وطوال التجارب العديدة التى تعاطاها، أكد تماما الأمل الذى وضعته فى السوريالية، ويدعونى، أيضا أن أتأمل الكثير. اليوم، دسنوس «يتكلم

١ - جزر هيبريد الجديدة - فوضى مطلقة - حداد بحداد .

سورياليا» متى يشاء. وقدرته العجيبة فى متابعته، شفاها، لفكرته تتحفنا، بقدر ما يطيب لنا من خطابات رائعة وضائعة. فدسنوس مشغول بما هو خير من تثبيتها. إنه يقرأ فى ذاته، كما فى كتاب مفتوح ولا يفعل شيئا لحفظ الأوراق التى تتطاير

★★★

أسرار الفن السحرى والسوريالى

وظيفة سوريالية مكتوبة، فى الصيغة الأولى والأخيرة

هيئوا رقة وقلما بعد أن تستقروا فى مكان يلائم، قدر المستطاع، تركيز فكركم على ذاته. اجعلوا أنفسكم فى أنسب حال ممكن للانفعال والتقبل. تجردوا من عبقريتكم، من نبوغكم، ومن عبقرية ونبوغ جميع الآخرين. أكدوا لأنفسكم أن الأدب أحد أشقى الوسائل المؤدية إلى كل شئ. اكتبوا بسرعة، دون موضوع متصور، بسرعة كافية لعدم الحفظ ولعدم إغرائكم بقراءة ما تكتبون. الجملة الأولى ستأتى من ذاتها، لشدة ما هو صحيح أن فى كل لحظة جميلة غريبة عن ذهننا الواعى تتشوق للظهور. من الصعب تقرير حال الجملة التالية. إنها تنتمى، معا، دون ريب، إلى نشاطنا الواعى وإلى الآخر، إذا سلمنا بأن مجرد كتابة الأولى يجر حدا أدنى من الإدراك. على أنه لا ينبغى أن تبالوا بالأمر ففى ذلك تكمن، بقسطها الأكبر، أهمية اللعبة السوريالية. هذا، والتنقيط يتنافى، بالطبع، مع الاستمرار المطلق للدفق الذى يشغلنا، مع أنه يبدو بذات ضرورة توزيع العقد على الحبل المهتز. داوموا كما يلذ لكم. اتكلوا على خاصة الضجيج التى لا تنضب. وإذا هدد الصمت بالإقامة، لمجرد أن ترتكبوا خطأ، خطأ عدم انتباه، إن صح القول، اقطعوا، دون تردد، بسطر مفرط الوضوح. وفيما يلى الكلمة التى تبدو لكم مريبة المنشأ، ضعوا أى حرف كان، حرف «اللام»، مثلا، دائما حرف «اللام» وأعيدوا الاحتمالى بفرض هذا الحرف مطلعا للكلمة التى ستتبع.

كيلا تضجروا من الصحبة

ذلك صعب جدا. لا تقبلوا زيارة أحد لكم، وأحيانا، حين لا يخالف أحد هذا المنع، توقفوا في أوج نشاطكم السوريالي واشبكوا ذراعيكم، وقولوا: « لا بأس، ربما كان هناك ما هو خير أن أفعله أو أن لا أفعله. إن متعة الحياة لا تدوم. البساطة، ما يجري في نفسي مايزال يثقل علي!»، أو أي قول مبتذل منغص آخر.

لإلقاء خطابات

يصار إلى التسجيل، قبيل الانتخابات، في أول بلد يستنسب اللجوء إلى هذا النوع من الاستفتاء، كل يحوي في ذاته «قماش» الخطيب: المآزر متعددة الألوان، وخرز الكلمات. بالسوريالية، سيباغت، في فقره، اليأس. وذات مساء على منبر، سيقطع، لوحده، السماء الخالدة، «جلد الدب» هذا. سيجود بالوعود لدرجة أن الوفاء بأقل ما يمكن منها سيدهش. سيعطي مطالب شعب بكامله مظهرا جزئيا ومضحكا. وسيوحد بين ألد الخصوم في رغبة سرية ستنسف الأوطان. وإلى هذا سيتوصل لمجرد استسلامه لحماس الكلمة هائلة المدى التي تذوب حنانا وترعد بغضا. وبعصمته عن الزلل سيستفيد من جميع الزلات. سينتخب، حقا، وستحبه النساء الألطف بالطريقة الأعنف.

لكتابة روايات كاذبة

أيا تكونون، إذا خطر لكم، ستحرقون بعض وريقات الغار، ودون قصد إزكاء هذا النار الهزيلة، ستبدؤون في كتابة رواية. السوريالية ستتيح لكم ذلك. لن يكون عليكم سوى أن تضعوا عقرب «الصحو الثابت» على «العمل» سيتم الأمر. ها هم أشخاص ذوو مظاهر

متنوعة. أسماؤهم فى كتابتكم قضية حروف كبيرة، وسيتصرفون مع الأفعال المتعدية ذات تصرف أحرف الزيادة فى النحو مع الأفعال اللازمة. يمكن القول إنهم «سيُعملونها»، وحيث لا تجدون نفعا فى الملاحظة والتفكير وقدرات التعميم، ثقوا أنهم سينجدونكم بألف نية لم تكن لكم. وبعد تزودها، على هذا الوجه، ببعض المميزات الخلقية والخلقية، لن تخرج هذه الكائنات، التى لا تدين بشئ لكم، عن خطة سير ما عليكم أن تكترثوا بها. ستنتج عن ذلك حبكة حذقة، فى الظاهر، إلى حد، تبرر، نقطة فنقطة، تلك الخاتمة المهيجة أو البهيجة التى لا تهمكم. ستتشبه روايتكم المزيفة، أشد الشبه، رواية صحيحة. وستغدون أغنياء وسيُتفق على الاعتراف لكم بأن عندكم «شيئا ما فى جوفكم»، لأن هناك يوجد هذا «الشئ ما» فعلا.

وطبعا، وبأسلوب مماثل، وبشرط جهل كل ما عليكم أن تطلعوا عليه، ويمكنكم أن تتفرغوا، بنجاح، للنقد المزيف.

لنيل إعجاب امرأة تمر فى الشارع

ضد الموت

ستدخلكم السوريالية فى الموت كما فى جمعية سرية. ستغلف أيديكم، مكفنة فيها «الذال» العميق الذى تبدأ به كلمة «ذاكرة». يفتكم أن تتخذوا تدابير وصية صائبة: أنا أطلب، من جهتى، أن أُحمل إلى

المقبرة على عربة نقل. وعلى أصدقائى أن يتلفوا، حتى آخر نسخة، طبعة: «خطاب حول قلة الواقع».

جُعلت اللغة للإنسان كى يستعملها سورياليا. وفى نطاق حاجته إلى الإفهام يستطيع أن يعبّر إلى حد، وأن يؤمّن بذلك إنجاز بعض الوظائف من التى لا تتطلب دقة. التكلم وكتابة رسالة لا يشكلان له أية صعوبة حقيقية طالما أنه لا يستهدف غرضا فوق المستوى المتوسط، أى طالما يقتصر على التحدث (لمتعة التحدث) مع الآخرين. إنه لا يهتم بالألفاظ التى ستتوارد ولا بالجملة التى ستتلو تلك التى ينهيها. وعلى سؤال شديد البساطة سيستطيع الإجابة على الفور. فإن كان خاليا من «تطبع» معيق اعتاده من معاشرة الغير، سيتمكن، تلقائيا، من إبداء رأيه فى عدد قليل من المواضيع. ولن يلزمه لذلك «أن يدير سبع مرات لسانه» ولا أن يشرح سلفا أى شئ. من يا ترى جعله يظن أن خاصة البديهة هذه ليس من شأنها غير الإنقاص منه حين يرغب فى إقامة علاقات أصعب؟ ما من أمر لا يجوز له التكلم فيه أو الكتابة بإسهاب. أما الاستماع إلى نفسه أو قراءة كتابته فلن يكون من أثرهما غير إيقاف الإلهام الخفى، العون الرائع.

إنى لا أستعجل فى فهم ذاتى (لا فرق! سأظل أفهم ذاتى) فإن أُصَب، لأول وهلة، ببعض خيبة من جملتى هذه أو تلك، أدع للاحقتها أن تغطى عيبها، وأتجنب أن أعيدها أو أن أكمل نقصها. إذ يكفى توقف بسيط فى اندفاعى ليفقدنى تسردى. فالكلمات، مجموعات الكلمات «المتتابعة» تمارس بينها أشد التضامن. ولا يحق لى تفضيل بعضها على بعض. إن على معجزة تعويض أن تتدخل - وهى تتدخل. هذه اللغة المطلقة العنان التى لا أنى أسعى لجعلها مقبولة والتى

أراها تلائم جميع ظروف الحياة، فوق أنها لا تحرمني شيئا من إمكاني، تمنحني أيضا وعيا مدهشا، وذلك حيث لا أكون متوقعا منها نفعا. بل سأصل إلى الزعم أنها تدريسي، وفي الواقع، حدث أن استعملت، سورياليا، كلمات كنت ناسيا معناها. وقد تحققت من ثم، أن استعمالي لها كان مطابقا لتعريفها. وفي ذلك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن المرء لا «يتعلم»، بل لا يفعل، أبدا، غير أن «يعيد التعلم». وهناك تراكيب موفقة ألِفتها على هذه الصورة. ولن أذكر «**الإدراك الشعري للأشياء**» الذي لم أستطع بلوغه إلا بالتماس الروحي معها مكررا ألف مرة.

وليس كالحوار تلائمه أشكال اللغة السوريالية. فيه يتجابه ذهنان. وبينما يتكشف الواحد ينشغل به الآخر، لكن، بأي انشغال؟ افتراض أنه يتحد معه هو التسليم أنه يستطيع أن يعيش لفترة بفكرته، وهذا لا يقبل الاحتمال. والواقع أن الانتباه الذي يعيره لها خارجي تماما، وما له غير أن يؤيدها أو أن يرفضها، أن يرفضها غالبا، مع كل ما يسع الإنسان من مراعاة. على أن أسلوب اللغة هذا لا يتيح بلوغ عمق الموضوع. فانتباهي، الواقع تحت إلحاح لا تجيز لي اللياقة رده، يعامل الذهن المقابل كعدو. وفي المحادثة العادية، «يراجعه» في الكلمات التي يقولها وفي الصور التي يستعملها، ويمكنني من استغلالها في الجواب بأن أشوهها. وما أشد صحة ذلك في بعض الحالات الذهنية المرضية حيث يستولي التشوش الحسي على جميع انتباه المصاب. فهو، إذ يستمر في الإجابة على الأسئلة، يقتصر على إعادة آخر كلمة قيلت أمامه أو على إيراد آخر جزء من جملة سوريالية يجد أثرها في رأسه:

«كم تبلغ من العمر؟ ـ عمر.» (رجع الصدى = ايكولاليا).

«ما اسمك؟ ـ خمسة وأربعون بيتا» (ظاهرة غانسر أو الإجابة الجانبية).

ما من محادثة لا يقع فيها شئ من هذا الخلل. والتهذيب الاجتماعي الذي يسودها، وشدة اعتيادنا على ذلك، يتمكنان، وحدهما، من حجبه موقتا عنا. كما أن نقطة ضعف الكتاب الكبرى هي دخوله في نزاع مستمر مع ذهن قرائه الأفضل، أقصد الأكثر تطلبا. وفي الحوار القصير جدا الذي ارتجلته، قبل أسطر، بين الطبيب والمريض العقلي، تمت الغلبة لهذا الأخير. مادام قد فرض نفسه على انتباه الطبيب الذي يفحص، وإذ ليس هو الذي يسأل. هل يعني هذا أن ذهنه، حينئذ، هو الأقوى؟ فهو حر أن لا يظل يهتم بعمره وباسمه.

إن السوريالية الشعرية التي أخصها بهذه الدراسة، قد دأبت، حتى الآن، على إرجاع الحوار إلى حقيقته المطلقة، بتخليص المتخاطبين من واجبات اللباقة. كلاهما يتابع ببساطة مناجاة نفسه دون السعي إلى الحصول منها على تلذذ جدلي معين، أو إلى مخادعة صاحبه. والأحاديث المتناولة لا ترمي، كما في العادة، إلى شرح نظرية، مهما يُرَد لها من التفاهة، إنها غير مغرضة قطعا. أما الجواب الذي تستدعيه فلا يأبه، مطلقا، من حيث المبدأ، بحساسية الذي تحدث. والكلمات والصور لا تظهر إلا كمنطلق للذي يستمع. بهذه النظرة ينبغي أن ترى في «الحقول المغناطيسية»، أول مؤلف سوريالي صرف، الصحائف المجموعة تحت عنوان « **حواجز** » والتي نعرض فيها، سوبو وأنا، هذين المتخاطبين المتجردين.

ولا تأذن السوريالية لمن يتعاطاها أن يهجرها حين يحلو له. كل شئ يسوق إلى الاعتقاد أنها تفعل فى الذهن فعل المخدرات، فهى تخلق، مثلها، نوعا من حالة حاجة، وقد تدفع الإنسان إلى ثورات رهيبة. وهى أيضا، إذا شئ جنة صنعية تماما، والميل إليها يقع تحت انتقاد بودلير، شأن سائر الميول الأخرى. لذا فإن تحليل الآثار الغامضة والمتع ذات الطبيعة الخاصة التى تُحدثها - فالسوريالية تتقدم، في أكثر من وجه، «كمنكر جديد»، لا يبدو أنه سيظل وقفا على فئة قليلة، ففيه، كالحشيش، ما يرضى جميع الأنواق، - إن تحليلا كهذا لابد أن يجد مكانه فى هذه الدراسة.

.١.

مَثَل الصور السوريالية كمثل صور الأفيون التى لا يعود الإنسان يستحضرها «بل تأتيه من ذاتها تلقائية طاغية. إنه لا يستطيع صرفها، إذ تغدو الإرادة لا قوة فيها ولا سيطرة لها على القوى[1]». يبقى أن نعرف إذا كان أحد قد «استحضر» صورا أبدا. بالاقتصار على تعريف ريفردى، كما أفعل، لايبدو ممكنا التقريب، قصدا، بين ما يسميه «حقيقتين متباعدتين». كل ما فى الأمر أن التقريب يحدث أو لا يحدث. وإنى، من طرفى، أنفى نفيا قاطعا أن تكون صور ريفيردى، مثل:

«فى الجدول أغنية تسيل»،

أو

«انبسط النهار كسماط أبيض»،

أو

«العالم يُحتوَى فى كيس»

١ - بودلير

تبوح بأية درجة من تصميم. ومن الخطل، فى رأيى، زعم أن «الذهن أدرك صلات» الواقعين المتواجهين. إنه، فى البدء، لم يدرك شيئا بصفة واعية، بل من التقريب الطارئ، نوعا، انبثق نور خاص هو «نور الصورة» الذى ننطبع به شديدا، وقيمة الصورة متوقفة على جمال الشرارة الحاصلة. إنها، بالتالى، «دلالة فرق الطاقة بين الموصلين». وحين يكاد هذا الفرق لا يكون موجودا، كما فى المقارنة(١)، لا تحصل الشرارة. لكن، ليس فى مقدور المرء، على ما أعتقد، أن يدبر تلاقى واقعين فى مثل هذا البعد، ومبدأ توارد الخواطر، فى النحو الذى يتبين لنا، يعارض ذلك. أو تتوجب العودة إلى فن اهليلجى (ذى مركزين)، الأمر الذى يدينه ريفيردى وأدينه أنا. فلابد، إذن، من التسليم بأن طرفى الصورة لم يُفرَّغ أحدهما من الآخر، من قبل الذهن، «قصدا» للشرارة المراد إحداثها. بل هما ناشئان، فى وقت واحد عن الفعالية التى أسميها سوريالية، بينما يكتفى العقل بمعاينة وتقدير الظاهرة الضوئية.

وكما يزيد من طول الشرارة أن تحدث خلال غازات مخففة الكثافة، فإن الجو السوريالى الذى تخلقه الكتابة العفوية التى حرصت على وضعها فى متناول الجميع، يعين، إلى حد كبير، على إنتاج أبدع الصور. بل يمكن القول إن هذه الصور تظهر، فى هذه السرعة المدوخة، كالمقود الوحيد للذهن. ويقتنع الذهن، شيئا فشيئا، بالحقيقية الفائقة لهذه الصور. يكتفى، بدءا، بتحملها، ثم سرعان ما يلاحظ أنها تسحر عقله وتضاعف معرفته. إنه يعى الرحابة اللامحدودة التى تجول فيها رغباته والتى يتقلص فيها باستمرار ما

١ ـ كما لدى جول رونار.

يوافق وما يضاد وحيث لا تنم ظلمته عليه. ويمضى تحمله هذه الصورالتى تفتنه، والتى لا تكاد تدع له وقتا لينفخ على نار أصابعه المتحرقة حماسا. إنها أجمل الليالى، «ليلة البروق»، النهار بجانبها يخال ليلا.

والنماذج التى لا تحصى للصور السوريالية تحتاج إلى تصنيف لن أحاوله اليوم. فتجميعها وملاءماتها الخاصة قد تذهب بى بعيدا، أريد أن أعتبر، جوهريا، وقعها المشترك. فأقواها، بالنسبة إلى، هى التى تحوى أعلى مستوى من الهوى، ولست أخفى ذلك، التى تحتاج إلى أطول وقت لترجمتها إلى اللغة العادية، إما لأنها تتضمن نسبة هائلة من التنافى الظاهر، أوَ أن أحد طرفيها مغطى على نحو طريف، أو أنها تبدأ مثيرة ثم تبدو ضعيفة الخاتمة، (تغلق فجأة زاوية بركارها)، أو أنها تستنتج من ذاتها **تبريرا قطعيا** ساخرا، أو أنها من نوع التهاويل، أو أنها تعير طبيعيا وجه المحسوس للمجرد أو العكس، أو أنها تتضمن نفى خاصة فيزيائية ابتدائية أو أنهاتبعث الضحك. وإليكم، بالترتيب، بعض الأمثلة:

«**ياقوت الشمبانيا**» ـ لوتريامون

«**جميل كقانون وقف توسُع الصدر عند البالغين الذين لا يتناسب استعدادهم للنمو مع كمية الذرات التى يتمثلها جسم**». لوترياموн

«**كانت تنتصب كنيسة براقة (رنانة ـ معنى الكلمة الآخر) كجرس**». سوبو

«**فى نوم روز سيلافى يوجد قزم يخرج من جب ويأتى ليأكل خبزها فى الليل**». روبير دسنوس

«**على سطح السفينة كان الندى. كراس قطة. يترجح**». أندريه بروتون

«**وإلى اليسار قليلا. فى فلكى المحزور ، أرى ـ لكن لا شك أنه بخار**

من دم واغتيال.. الماس المزال صقله لاضطرابات الحرية». لويس أراغون
«في الغابة المحروقة
كانت الاسود طازجة». روجيه فيترى
«إن لون جوارب امرأة ليس حتما على صورة عينيها. مما دعا فيلسوفا. لا حاجة لذكر اسمه. إلى القول: إن راسيات الأرجل لها أسباب أكثر من رباعيات القوائم لبغض التقدم». ماكس موريز

١

شئنا أم لم نشأ، إن فى هذا ما يرضى أكثر من مطلب للذهن، وهذه الصور، كلها، تبدو برهانا على أن الذهن قد استوى لشئ آخر غير المتع الهزيلة التى يمنحها نفسه عموما. إنها الوسيلة الوحيدة التى يملك ليحول إلى صالحه الكمية المثالية من الأحداث التي هو مكلف بها[1]. هذه الصور تعطيه مقدار تشتته العادى والمساوئ التى تشكلها له. ولن يكون شرا أن تحيره، فتحيير الذهن يعنى إظهار خطئه. والجمل التى استشهد تزودنا بالكثير من ذلك، لكن الذهن الذى يتلذذ بها يستخلص منها اليقين بأنه على «السراط السوى». وبالنسبة لذاته، لا يستطيع أن يرتكب ذنب التمحك، ولن يخاف شيئا مادام، فوق ذلك، أخذ على عاتقه حصر كل شئ.

٢

إن الذهن الذى يغوص فى السوريالية يحيا، من جديد، وبحماس، القسط الأفضل من طفولته. إن ذلك، إلى حد، بالنسبة إليه، كيقين الذى، وهو يغرق، يستعرض، فى دقيقة، كل ما اعترض سير حياته.

١ ـ لا ننسى تعبير نوفاليس «بأن هناك سلسلة من الأحداث تجرى موازية للأحداث الواقعية. والناس والظروف، عموما، تعدل سير الأحداث المثالي، مما يجعله يبدو غير كامل، ونتائجها هى أيضا غير كاملة. وهذا ما وقع «للإصلاح الدينى»: فبدلا من البروتستانية قامت اللوثرية».

سيقال لى إن هذا لا يشجع كثيرا. لكني لست حريصا على تشجيع من سيقولون لى هذا. ومن ذكريات الطفولة ومن بعض أخرى ينبعث شعور بعدم الالتحاق، وبالتالى، «بعدم الاهتداء»، أعتبره أخصب شعور إنتاجا. لعل الطفولة هى أقرب مراحل العمر من «الحياة الحقيقية»، الطفولة التى لا يملك الإنسان بعدها، عدا جواز مروره، غير بعض البطاقات المجانية، الطفولة التى كان كل شئ فيها يعمل، فى المقابل، على امتلاك فعال وهانئ للذات. وبفضل السوريالية يخال أن هذه الفرص السعيدة عادت. إن الشأن فيها كما لو كان المرء فى الطريق إلى خلاصه أو إلى إهلاكه. يعيش، ثانية، فى العتمة، رعبا ثمينا، ما هو والحمد لله، رعب المطهر، بعد. ويجتاز، بارتعاش، ما يسميه أرباب السحر «**مناظر خطرة**». إنى أبعث، بخطواتى، أغوالا تترقب. لا هى سيئة للغاية جدا، نحوى، ولا أنا بضائع، مما دمت أخافها. ها هى «الأفيال ذات رأس امرأة، والأسود الطائرة» التى ارتجفنا، قبلا، سوبو وأنا، من خشية لقائها. وها هى «**السمكة قابلة الذوبان**» التى لا تزال ترعدنى قليلا. السمكة قابلة الذوبان! ألست أنا السمكة قابلة الذوبان؟ لقد ولدت فى برج الحوت، والإنسان قابل أن يذوب فى فكرته! إن تنوع حيوانات ونباتات السوريالية لا يحيطه بيان.

٣

لا أعتقد أن ستوضع، قريبا، سنّة سوريالية. فالصفات المشتركة لجميع نصوص النمط، وبينها تلك التى أوردتها وغيرها الكثير مما لا يكشف لنا عنه إلا التحليل المنطقى والإعراب النحوى، لا تنافى بعض التطور فى النثر السوريالى، مع الزمن. والحكايات الصغيرة التى تشكل تتمة لهذا المجلد، والتى تأتى بعد عدد كبير من التجارب التى

انهمكت فيها، مدة خمس سنوات، لهذه الغاية، والتى أعترف الآن بأن أكثرها كان مشتتا، تعطينى برهانا دامغا. ولا أعتبرها لهذا السبب أكثر أو أقل جدارة أن تمثل فى نظر القارئ المكاسب التى يستطيع الرافد السوريالى أن يجعل إدراكه يحققها.

ومن جهة أخرى فإن الوسائل السوريالية تحتاج أن توسع. وكل شئ صالح للحصول من بعض المقاربات على المفاجأة المرغوبة. فأوراق بيكاسو وبراك الملصقة لها ذات قيمة إدخال قول مبتذل فى بحث أدبى ذى إنشاء غاية فى التنقيح. بل يجوز إطلاق عنوان - قصيدة - على ما يحصل من تجميع بالغ المجانية (لنتقيد، لطفا، بأصول تركيب الكلام، فالمجانية لا تحتمل المبالغة) لعناوين وأجزاء عناوين مقتطفة من الصحف:

قصيدة

قهقهة

ياقوتية فى جزيرة سيلان

أجمل القش

يفقد نضارة بشرته

تحت الأغلال

فى مزرعة منعزلة

يوما فيوما

يتفاقم

الممتع

طريق معبدة

تقودكم إلى حافة المجهول

القهوة

تبشر لقديسها

الصانع اليومى لجمالكن

سيدتى

زوج

من الجوارب الحريرية

ليس

قفزة فى الفراغ

وعل

الحب أولا

كل شئ يمكن إصلاحه جيدا

باريس مدينة كبيرة

راقبوا

النار الكامنة

صلاة

الطقس الحسن

اعلموا أن

الأشعة ما فوق البنفسجية

أنهت مهمتها

القصيرة والجيدة

أول جريدة بيضاء

للمصادفة

الأحمر سيكون

المغنى التائه

أين هو؟

فى الذاكرة

فى منزله

فى حفلة رقص المحمومين

أعمل

وأنا أرقص

ما عُمل وما سيُعمل

وهناك غيرها من الأمثلة كثير. وقد نجدها أيضا فى المسرح والفلسفة والعلوم والنقد. وأبادر فأضيف أن «الأساليب الفنية» السوريالية المقبلة لا تهمنى.

لكنى أرى خطورة كبيرة، وقد ألمحت كفاية إلى ذلك، فى تطبيقات السوريالية على العمل[1] وألحق أني لا أؤمن بالخاصة النبوئية للكلمة

١ ـ مهما جاز لى أن أبدى من تحفظات حول المسئولية، عامة، وحول الاعتبارات الطبية الشرعية التى تهيمن فى تقرير درجة مسئولية شخص ما: مسئولية كاملة، لا مسئولية، مسئولية محدودة، (كذا)، ومهما صعب على التسليم بمبدأ أية جرمية، فإنى أحب معرفة كيف ستحاكم أولى الأفعال الجنحوية التي لا يمكن لصفتها السوريالية أن تحتمل شكا. هل سيبرأ المتهم أم يستفيد من الأسباب المخففة؟ ومن المؤسف أن جنح المطبوعات لم تعد تقمع: لقد نشر الظنين كتابا يمس الأخلاق العامة، وبناء على شكوى بعض مواطنيه الشرفاء، ظن عليه أيضا بالتشهير. وقد سجلت ضده أنواع مختلفة أخرى من التهم المدنية، مثل التعرض للجيش والتحريض على القتل، وعلى الهتك، وغير ذلك... ثم إن المتهم يقر فورا بصحة التهمة، كيما «يفضح» أغلب الأفكار المعروضة، ويكتفي، دفاعا عن نفسه، بتأكيد أنه لا يعتبر نفسه مؤلف كتابه، إذ لا يمكن أن ينظر إلى هذا الكتاب إلا كإنتاج سوريالى يستبعد كل قضية فضل أو جريرة لذلك الذى يوقعه، وأنه اقتصر على نقل وثيقة دون إبداء رأيه، وأنه غريب عن النص المتهم غربة رئيس المحكمة ذاته.

وما هو صحيح بالنسبة لنشر كتاب سيغدو صحيحا بالنسبة لألف عمل آخر، يوم تبدأ الأساليب السوريالية تتمتع ببعض الحظوة. وسيكون واجبا، آنئذ، أن تقوم أخلاقية جديدة بدلا من الأخلاق السائدة التى هى سبب جميع عللنا.

السوريالية. «إنه إلهام الآلهة ما أقول[1] نعم، **قدر ما أريد**، لكن ما هو إلهام الآلهة ذاته؟[2] إن إيمان الناس لا يخدعني. والصوت السوريالي الذي كان يهز كوم ودورون وديلف[3]، ما كان سوى الصوت الذي يملي على خطاباتي الأقل غيظا. إن **زماني** لم يعد زمانه، فلماذا يعينني على حل قضية مصيري البديهية؟ إني أتظاهر، لسوء الحظ، بالنشاط في عالم، عليّ، كي أحفل، أخيرا، بإيحاءاته، أن أستخدم نوعين من التراجمة: البعض ليفهموني أحكامه، والبعض الآخر، المحال العثور عليهم، ليفرضوا على سائر الناس ما يبلغه فهمي. هذا العالم الذي أتحمل فيه ما أتحمل، (ولا تتحروا)، هذا العالم الحديث، في النهاية، يا للشيطان! ماذا تريدون مني أن أصنع فيه؟ إن الصوت السوريالي قد يصمت. وقد توقفت عن إحصاء ما فقدت. ولن أعود إلى الحساب الرائع لما مضى من أعوامي وأيامي.

١ ـ رامبو.

٢ ـ ... ومع ذلك.. ومع ذلك.. ينبغي الوقوف على حقيقة الأمر. اليوم، الثامن من حزيران عام ١٩٢٤، حول الساعة الواحدة، همس لي الصوت: «بيتون، بيتون، بيتون.» ما معنى ذلك؟ لست أعرف بيتون ومالي غير فكرة ضعيفة عن موقع هذا المكان على خريطة فرنسا. بيتون لا تذكرني بشيء، ولا حتى بمشهد من «الفرسان الثلاثة». ربما كان على أن أقصدها لأجد فيها شيئا ينتظرني. وقد روى لي أحد كتب شسترتون يذكر محققا كان يكتفي، للتحري عن أحد يبحث عنه في مدينة، بتفتيش دقيق للمنازل التي يرى في مظهرها الخارجي بعض الغرابة. وهي طريقة تساوي أية طريقة غيرها.
كذلك، في عام ١٩٣٩، دخل سوبو عددا كبيرا من الأبنية المتشابهة يسأل البواب إذا كان فيليب سوبو ساكنا هنا. وما كان ليعجب، في افتراضي من رد بالإيجاب، بل كان سيذهب ليدق بابه.

٣ ـ مدينة إغريقية كانت فيها هياكل للآلهة و«وسيطات» ينقلن أقوال الآلهة لمن يستشيرون.

سأكون مثل نيجينسكي[1] الذى أخذ، فى العام الماضى، إلى حفلة باليه روسى فلم يتعرف على نوع العرض الذى شاهده. سأكون وحيدا، وحيدا جدا فى نفسى، لا آبه لجميع باليهات الدنيا. وما عملت، وما لم أعمل، أهبكم الكل.

ومن بعد ذلك، تتملكنى رغبة شديدة أن أنظر بتسامح إلى سروح الفكر العلمى، الذى لا يجدي، فى الحقيقة، نفعا. اللاسلكى؟ - حسنا الزهرى؟ - إذا شئتم. التصوير الشمسى؟ لا أرى مانعاً. السينما؟ مرحى للصالات المعتمة. الهاتف؟ ألو، نعم. الشبيبة؟ يا للشعر الأبيض الجميل. حاولوا أن تجعلونى أقول شكرا: «شكرا». - شكرا... إذا كان العوام يولون تقديرا عظيما للأبحاث المخبرية بمعناها الحرفي، فإنها انتهت إلى إطلاق آلة أو إلى اكتشاف مصل يعتقدون أنهما على صلة مباشرة بهم. ولا يشكون فى أن المراد هو تحسين حالهم. ولا أدرى ما هو بالضبط مقدار الأمانى الإنسانية فى مثالية العلماء، لكن لا أحسب أنها تشكل مبلغا كبيرا من الطيبة. وأقصد هنا، طبعا، العلماء الحقيقيين، لا المعممين من جميع الأنواع الذين يحصلون على براءة استثمار. وإنى أومن، فى هذا الميدان كما فى غيره، بالبهجة السوريالية الخالصة عند الإنسان الذى، وقد نُبه إلى الإخفاق المتوالى لجميع من سواه، لا يقر بهزيمته وينطلق من حيث يريد وفى كل طريق غير الطريق **المعقول**، ويصل إلى حيث يستطيع. هذه الصورة ، أو تلك، التى يجد مناسبا أن يتخذها معلما لسيره، والتى قد تنيله الشكر العام، أعترف بأنها لا تهمنى فى ذاتها. والأجهزة التى لابد له منها لا تخدعنى أيضا: أنابيبه الزجاجية أو

١ - راقص باليه روسى نابغ، فى مطلع القرن، انتهى إلى الجنون.

ريشى المعدنية... أما أسلوبه فأزعم له من القيمة قدر ما لأسلوبى. لقد حضرت عمل مخترع الارتكاس الجلدى الأخمصى، كان يحتال، دون هوادة، على مواضيعه، وكانت ممارسته أبعد ما هى عن «الفحص». **كان جليا أنه لم يعد يعتمد على اى مخطط**. وكان بين آن وآخر يلقى ملاحظة بعيدة الصلة، دون أن يضع لذلك دبوسه وبينما مطرقته توالى سيرها. أما علاج المرضى فعلى غيره هذه المهمة التافهة. كان مستسلما بكليته لهذه الحمى المقدسة.

إن السوريالية، كما أتصورها، تعلن انعتاقها المطلق من كل عرف، بما يكفى للحؤول دون إحضارها، فى محاكمة العالم الواقعى، كشاهد دفاع. وهى، على العكس، لا يمكن أن تبرر سوى حالة الانفصال التام التى نأمل شديدا بلوغها هنا. وانفصال المرأة عند كانت، وانفصال «حبات العنب» عند باستور، وانفصال حاملات الإشعاع عند كورى، هى فى هذا الصدد عميقة الدلالة. هذا العالم لا يفى إلا قليلا جدا بحاجة الذهن، والحوادث من هذا النوع ليست سوى الفصول الأبرز إلى الآن لحرب استقلال أفاخر بأنى مشترك فيها. والسوريالية هى الأشعة الخفية التى ستمكننا، يوما، من الانتصار على خصومنا «لن ترتعش بعد الآن، أيها الجسد.» هذا الصيف، الورود زرقاء. والخشب إنما هو زجاج. والأرض المدثرة بخضرتها لا تؤثر فىّ بأكثر من رؤية شبح. الحياة والتوقف عن الحياة هما الحلان الخياليان. أما الوجود ففى غير مكان.

الهيان الثانى للسوريالية

١٩٣٠

تنبيه

حول إعادة نشر البيان الثانى

١٩٤٦

أعتقد، وأنا أسمح اليوم بإعادة نشر البيان الثانى للسوريالية، أن الزمن قد تولى عنى تعليم زواياه الجدالية. وآمل أن يكون صحح، من ذاته، وإن، إلى درجة، على حسابى، الآراء، المتعجلة أحيانا، التى أبديتها فيه حول بعض التصرفات الفردية كما تراءيتها ترتسم آنذاك. على أن هذا الجانب من النص لا يستوجب التبرير إلا أمام الذين يعنون بوضع «البيان الثانى» فى المناخ الفكرى للعام الذى ولد فيه. ففترة ما حول عام ١٩٣٠ هى التى راحت فيها الأذهان الثاقبة تتناذر عودة دانية حتمية للكارثة العالمية. وعلى البلبلة التى نجمت، لا أنكر أن غما آخر طغى عندى وغطى: كيف ننجى من هذا التيار المتعاظم الخطر الزورقَ الذى بنيناه، نحن القلة، بأيدينا، لنبلغ عالية هذا التيار صعدا؟ وفى نظرى، ذاتى، تحمل الصحائف التالية آثار عصبية مؤسفة. وهى تعرض شكاوى لا تتساوى أهمية: وواضح أن بعض التخليات تركت وقعا أليما، والموقف ـ العارض ـ المتخذ نحو بودلير ورامبو سيدعو وحده، وبسهولة، إلى التفكير بأن الذين تعرضوا للتعنيف الأكثر هم ربما الذين كانوا موضع الثقة الأكبر وهم الذين كانوا ينتظر منهم الأوفر. ومع شئ من بعد الزمن أدرك غالب هؤلاء ذلك بقدر ما أدركته أنا، مما أوسع لبعض التقارب أن يقوم بيننا، فى حين انفصمت عرى أخرى كانت تبدو أثبت استمرارا. إن تشاركا إنسانيا من النوع الذى أتاح للسوريالية أن تنشأ ـ والذى لم يعهد مثله طموحا **وشغفا**، على الأقل منذ السان ـ سيمونية ـ

لاينى يخضع لبعض قوانين تموج، من الإنسانى جدا دون ريب أن لايعرف، **من الداخل**، التسليم بها. والحوادث القريبة، التى وجدت فى الطرف الواحد جميع الذين تناولهم **البيان الثانى**، تثبت أن تثقيفهم المشترك كان سليما، وتعين، موضوعيا، حدودا معقولة لمشاجراتهم. وبمقدار ما كان بعضهم ضحية لتلك الحوادث. وبشكل أعم، بمقدار ما لاقوا من محن الحياة - وأنصرف بالذهن إلى دسنوس وأرتو - أبادر إلى القول إن المعائب التى عددتها عليهم سقطت من ذاتها وكذلك بالنسبة لبولتزر الذى ظل نشاطه متحددا خارج السوريالية، والذى، لهذا، لم يكن عليه أن يقدم للسوريالية أى حساب عن ذلك النشاط. ولا أشعر بغضاضة فى الاعتراف بأنى أخطأت كليا فى فهم **طبعه**.

والذى يبرز، على مسافة خمسة عشر عاما، مظهر قابلية الخطل فى تخمينى بالنسبة لواحد أو لآخر، لا يمنعنى من الثورة على الزعم المورد حديثا[1] بأن «تباين الآراء السياسية» فى داخل السوريالية، ناشئ، جوهريا، عن «قضية أشخاص».

إن قضية الأشخاص لم تبحث بيننا إلا لاحقا، ولم تعلن جهارا إلا فى حالات ما اعتبر خرقا جسيما مؤثرا فى تاريخ حركتنا، للمبادئ الأساسية التى بنى عليها اتفاقنا. كان الأمر يتعلق، ومايزال بإبقاء قاعدة انطلاق متحركة بما يكفى لمواجهة المظاهر المتبدلة لمسألة الحياة، وفى ذات الوقت، ثابتة بما يكفى لتأكيد **عدم انقطاع** عدد من الالتزامات المتبادلة - والعلنية - المتعاقد عليها فى وقت شبابنا. والمهاترات التى «صعق» بها السورياليون، كما قيل، بعضهم بعضا،

١ - ينظر جول مونرو: الشعر الحديث والقدسيات - ص ١٨٩.

تدل، قبل كل شئ، على عدم استطاعتهم الهبوط بالمناقشة إلى مستوى أقل علوا. وإذا بدا عنف التعبير أحيانا غير متناسب مع بساطة الانحراف أو الخطأ أو «الذنب» الذى يقصد فضحه، فظنى أنه، إلى جانب بعض الازدواجية المتناقضة في مظهر المشاعر، الذى ألمحت إليه سابقا، يجب عزو ذلك إلى قلق الأزمنة، وأيضا إلى التأثيرالشكلى لجزء كبير من الأدب الثورى حيث التعبير عن أفكار شديدة التعميم شديدة الدقة يقبل إلى جواره فيضا من النبرات العدوانية الضعيفة المدى نحو هذا أو ذاك من المعاصرين(١).

الأخبار الطبية النفسانية

صحيفة

الاختلال العقلى

الطب الشرعى للمجانين

أبحاث

دفاع شرعى

فى العدد الأخير من «الأخبار الطبية النفسانية» تحدث الدكتور أ. روديه، فى بحث شيق، عن أخطار مهنة طبيب مشفى المجانين. وتلك الإعتداءات الأخيرة التى تعرض لها عدد من زملائنا وتحرى الوسائل التى تحمينا، بجد ضد التهديد الذى يشكله الاتصال المستمر بين النفسانى وبين المجنون وأسرته.

لكن المجنون وأسرته يشكلان خطرا أسميه «داخلى النشوء» وهو مرتبط بمهمتنا. إنه الملحق الحتمى لها ونحن نقبله ببساطة. وما ذلك شأن خطر أسميه هذه المرة «خارجى النشوء» يستحق منا انتباها خاصا. ويبدو أنه ينبغى أن يبعث، من جانبنا، ردود فعل أشد تأكدا.

١ ـ ينظر: شقاء الفلسفة، ضد ـ دوهرينغ ـ المادية والتجريبية الفكرية، إلخ...

وهاكم مثالا مليئا بالدلالة: إن أحد مرضانا، وهو أهوس ملحاح بالمطالبة شكاء الاضطهاد وشديد الخطر، عرض على فى سخرية لطيفة أن أقرأ كتابا متداولا بحرية بين أيدى مجانين آخرين. هذا الكتاب الصادر حديثا عن دار نشر «المجلة الفرنسية الجديدة» كان يدعو إلى الاطمئنان بمصدره وبمظهره اللائق وغير المؤذى. كان كتاب «نادجا» لاندريه بروتون. كانت السوريالية تزهر فيه بتشوشها المقصود وبفصولها المشتتة بحذق، بهذا الفن الدقيق المتكون من حب خداع القارئ. وفى وسط رسوم غريبة الرمزية كانت تصادف صورة البروفسور كلود. ذلك أن فصلا كان مكرسا لنا خاصة، كان فيه النفسانيون المساكين يُشتَمون بوفرة وكان مقطع منه (مشار إليه بخط أزرق، بيد المريض الذى تلطف بإهدائنا الكتاب) أثار، بشكل أخص انتباهنا. كان يحوى هذه الجملة: «أعرف أننى، لو كنت مجنونا، وموضوعا فى المشفى منذ أيام قليلة، سأنتهز فترة هدوء موقت لجنونى، فأغتال واحدا، ويفضّل الطبيب، من الذين يقعون تحت يدى. سأستفيد من ذلك، على الأقل، أن أوضع، كالمجانين الثائرين، فى غرفة منفردة، ولربما لا يعود يتعرض لى بعدئذ أحد.».

لايمكن إيجاد تحريض على القتل أفصح بيانا. ولن يثير إلا أنفة ازدرائنا، بل لن يكاد يمس لامبالاتنا المتراخية.

إن اللجوء، فى حالات كهذه، إلى السلطة العليا، يبدو لنا طيشا غير مناسب، لا نجرؤ، حتى، على التفكير به. ومع ذلك فإن حوادث من هذا النوع تتكاثر كل يوم.

وفى تقديرى أن سكوتنا هو المسئول. وقد يؤدى سكوتنا إلى الارتياب بسلامة نيتنا ويشجع جميع الجسارات.

لماذا لا تقاوم جمعياتنا ورابطتنا مثل هذه الحوادث سواء كان الأمر عملا جماعيا أو عملا فرديا؟ لماذا لا يرسل احتجاج إلى ناشر يذيع مؤلفا مثل «نادجا»، ولا تحاول ملاحقة كاتب تجاوز نحونا حدود التهذيب.

أعتقد أن هناك فائدة (وسيكون ذلك وسيلة دفاعنا الوحيدة) أن نتصور، فى نطاق رابطتنا مثلا، تعيين لجنة تتولى خاصة هذه الأمور.

لقد ختم الدكتور روديبه حديثه بقوله: «إن طبيب مشفى المجانين يمكن له، بحق، أن يطالب بحمايته، دون تحفظ، من قبل المجتمع الذى يقوم هو نفسه بالدفاع عنه».

لكن يبدو أن هذا المجتمع ينسى أحيانا صفة واجباته التبادلية. وعلينا أن نذكره بها.

بولى ابيلى

(الأخبار الطبية النفسانية) السلسلة - ١٢ - المجلد الثانى ١١ تشرين الثانى ١٩٢٩.

الجمعية الطبية النفسانية

بعد أن تقدم الدكتور أبيلى ببيان حول ميول المؤلفين الذين يسمون أنفسهم سورياليين وحول الهجوم الذى يوجهونه إلى الأطباء النفسانيين، أثار هذا البيان المناقشة التالية:

مناقشة

الدكتور دو كليرامبو: أسأل السيد الأستاذ جانيه أى رابطة يقيم بين حالة الأشخاص الذهنية وبين صفات إنتاجهم.

السيد ب. جانين - إن بيان السوريالية يحوى مدخلا فلسفيا جديرا بالاهتمام. والسورياليون يؤكدون أن الواقع قبيح، تعريفا. وأن الجمال لا يوجد إلا فيما هو غير واقعي. والإنسان هو الذى أدخل الجمال فى العالم. ولإنتاج الجميل ينبغى الابتعاد، ما أمكن، عن الواقع.

إن أعمال السورياليين هى بشكل خاص اعترافات مهووسين ومتشككين.

الدكتور دو كليرامبو: إن الفنانين المتطرفين الذين يطلقون أنماطا غير مناسبة، أحيانا بواسطة بيانات تدين جميع الأعراف، يبدون لى، من حيث «الصنعة» مهما تكن الأسماء التى اتخذوها (ومهما يكن الفن والزمان المتصوران) جديرين أن يوصفوا «بأسلوبيين». والأسلوبية تقوم على توفير الذات عناء التفكير، وعلى الأخص، الملاحظة، والاعتماد على شكل أو صيغة معينين ليتوليا إحداث تأثير هو فى ذاته فريد تقريبي وعرفى. وهكذا ينتج سريعا وفى مظهر إنشائي ويتحاشى النقد الذى قد يسهله التشابه مع الحياة. وهذا الانحطاط بالعمل سهل الاكتشاف، خاصة، في ميدان الفنون التشكيلية. لكن، في الميدان الكلامى، يمكن إثباته أيضا.

إن نوع الكسل المتشامخ الذي يولد أو يشجع الأسلوبية ليس خاصا بزماننا. ففى القرن السادس عشر كان الكونسيتيون والغونغوريون والاوفويستيون، وفى القرن السابع عشر كان المتحذلقون جميعا أسلوبيين، فاديوس وتريسوتان كانا أسلوبيين، لكن أسلوبيين أشد كثيرا اعتدالا ودأبا من أسلوبيى اليوم، ولعل سبب ذلك أنهما كان يكتبان لجمهور أكثر اصطفاء وأوفر علما.

وفى المجالات التشكيلية يبدو أن الأسلوبية لا ترجع إلى أبعد من القرن الماضى.

السيد ب. جانيه: تأييداً لرأى السيد دو كليرامبو أذكر بعض أساليب السورياليين. إنهم، مثلا، يأخذون خمس كلمات دون تعيين يضعونها فى قبعة ويصنعون سلسلة من الارتباطات بين هذه الكلمات الخمس. وفى «المدخل إلى السوريالية» يعرض بحث طويل عماده هاتان الكلمتان: ديك هندى وقيمة عالية.

الدكتور دو كليرامبو: لقد بين السيد ابيلى، فى مجال عرضه، حملة تشهير. هذه النقطة تستحق أن يعلق عليها: إن التشهير جزء جوهرى من الأخطار المهنية لطبيب المجانين. إنه يتناولنا، فى بعض الأحيان، بسبب وظائفنا الإدارية أو اعتمادنا كخبراء. وسيكون من العدل أن تقوم السلطة التى تنتدبنا بحمايتنا ضد جميع الأخطار المهنية «من أية طبيعة يمكن أن تكون» ينبغى أن يؤمَّن الخبير الفنى، بتدابير دقيقة تضمن له نجدة فورية ومستمرة. هذه الأخطار ليست من نوع مادى فقط، والحماية ضد هذه الأخطار تقتضى النجدة والمساعدة المالية والتأييد القانونى والقضائى، والتعويض، ومعاشا أحيانا دائما وكاملا. وفى فترة المبادرة يمكن أن تغطى نفقات المساعدة من قبل صندوق تعاون متبادل، لكنها، فى النهاية، يجب أن تقع على عاتق السلطة ذاتها التى حدثت الأضرار فى خدمتها.

رفعت الجلسة فى الساعة الثامنة عشرة.

أحد أمناء السر

غيرو.

البيان الثانى للسوريالية

رغم المسالك الخاصة بكل ممن اعتزوا أو يعتزون إلى السوريالية، لابد من الموافقة، يوما، على أنها لم تسع لشئ قدر سعيها أن تبعث، من وجهتى النظر الفكرية والمعنوية، **أزمة وعى** من النوع الأعم والأهم، وعلى أن إدراك أو إخطاء هذا المرمى هو وحده الذى سيقرر نجاحها أو فشلها التاريخى.

من الناحية الفكرية كان القصد، وما يزال، الإحساس بكل الوسائل، والتعريف، بأى ثمن، بالصفة المفتعلة للتناقضات القديمة الهادفة، رِثاء، إلى الحؤول دون كل تحرك غير عادى للإنسان، إن لم يكن بسوى إعطائه فكرة هزيلة عن إمكاناته، وتحديه أن يفلت، إلى حد ملحوظ، من القهر العام. إن هول الموت وملاهى الطرب فى الآخرة، وغرق أبدع عقل فى النوم، وستار المستقبل الساحق، وأبراج بابل، ومرايا عدم الثبات، والسور الفضى المنيع الملطخ بنثرات المخ، إن هذه الصور المفرطة الوقع للكارثة الإنسانية قد لا تكون إلا مجرد صور. وكل شئ يدعو إلى الاعتقاد بوجود موقع ذهنى معين لا تعود الحياة والموت، والحقيقة والخيال، والماضى والحاضر، والبادى والخفى، والعالى والسافل، تُدرَك فيه على وجه متنافر. ومن العبث التحرى، فى النشاط السوريالى، عن نازع آخر غير أمل تحديد هذا الموقع. ومن هنا تتبين استحالة إعارتها معنى إنشائيا أو هداما: لأن الموقع المشار إليه هو **بالأحرى**، الذى لايبقى فيه الإنشاء والهدم قابلين أن يُشهَر أحدهما على الآخر. وواضح أيضا أن السوريالية لا يهمها أن تأخذ فى اعتبارها ما يجرى إلى جانبها بحجة الفن، أو اللا فن، الفلسفة، أو اللا فلسفة، وبكلمة واحدة، كل ما ليست غايته

فناء الكائن فى لمع، باطن وأعمى، لا هو روح الجليد ولا روح النار. ماذا يمكن أن ينتظر من التجربة السوريالية أولئك الذين يحتفظون ببعض الحرص على المكانة التى يحتلونها **فى العالم**. فى هذا الموقع الذهنى الذى لا يمكن أن يغامر منه، إلا من أجل الذات، باستكشاف خطر، لكن، فى رأينا، فائق، لن يكون مجال، أيضا، لتعليق أهمية على خطى الذين يأتون، أو على خطى الذين يخرجون، إذ أن تلك الخطى تحدث فى منطقة حيث ليس للسوريالية، تعريفا، سمع. إننا لا نرغب لها أن تكون تحت رحمة هؤلاء أو أولئك من الناس. وإذا أعلنت أن فى وسعها، بوسائلها الخاصة، تخليص الذهن من عبودية متزايدة القساوة، وإرجاعه إلى سبيل الإدراك التام، وإعادته إلى صفائه الأصلى، فحسبها ذلك كيلا يحكم عليها إلا من خلال ما أنجزت وما بقى عليها إنجازه للوفاء بوعدها.

على أننا، قبل تدقيق هذه الحسابات، ينبغى أن نعرف إلى أى فضائل أخلاقية بالضبط تدعو السوريالية مادامت تغرز جذورها فى الحياة، وليس مصادفة دون شك، فى حياة هذا الزمن، منذ أن أعدت حشوها بالحكايات مثل السماء، وتكتكة الساعة، والبرد، وقلق ما، أى أن عدت أتحدث عنها بأسلوب عامى. إن التفكير فى هذه الأمور، والتمسك بأية درجة فى هذا السلم الهابط، لا يخلو منهما أحد إلا أن يكون تخطى المرحلة الأخيرة من النسك. بل إن من الغليان المقزز لهذه التمثلات الفارغة من المعنى، تتولد وتتغذى رغبة تجاوز التمييز العاجز والمستحيل بين الجميل والقبيح، وبين الصحيح والزائف، وبين الخير والشر. وبما أن درجة المقاومة التى تلاقيها فكرة الاختيار هذه، هى التى يتوقف عليها تأكد نجاح التحليق نحو عالم أهل أن يسكن،

فمن السهل فهم أن السوريالية لم تخش أن تجعل عقيدتها الثورة المطلقة والتمرد التام والتخريب المنظم، وإنها، إلى الآن، لا تتوقع شيئا من غير العنف. إن الفعل السوريالى الأبسط هو فى حمل مسدس فى كل قبضة والنزول إلى الشارع، وإطلاق النار عشوائيا، وما أمكن، على الجمهور. والذى لا يكون اشتهى، ولو لمرة على الأقل، أن يتخلص، بهذه الطريقة، من نظام السَّوْق إلى الهوان والبله القائم، له مكانه المعين فى هذا الجمهور، بطنه إلى فوهة المدفع[1]. والإقرار بشرعية مثل هذا الفعل لا يتعارض، فى رأيى، مع الإيمان بذلك اللمع الذى تسعى السوريالية إلى كشفه فى أعماقنا. لقد أردت، فقط، أن أعيد هنا اليأس الإنسانى الذى لا يمكن، قبله، لشئ أن يبرر هذا الإيمان. فمن المستحيل الموافقة على الإيمان دون الموافقة على وجود اليأس. ومن يتظاهر بتبنى الإيمان دون المشاطرة حقا، باليأس، لن يلبث، فى نظر الذين يعلمون، أن يبدو عدوا. إن هذه الحالة الذهنية التى نسميها سوريالية والتى نراها على هذه الصورة، منشغلة

١ - أعلم أن هاتين الجملتين الأخيرتين ستملآن بهجة عددا من الأغبياء الذين يحاولون، منذ زمن طويل، جعلى مناقضا لنفسى. هكذا إذن! أقول «إن الفعل السوريالى الأبسط...»؟ وماذا بعد؟ وبينما البعض، البالفو الاهتمام، ينتهزون الفرصة للسؤال «عما انتظر»، يزعق الآخرون بالفوضى ويريدون الإيهام بأنهم ضبطونى بجرم مشهود هو عدم الانتظام الثورى. وليس أسهل على من أن أبطل على هؤلاء الناس وقعهم الهزيل. نعم، إنى حريص أن أعرف هل يتمتع كائن بالعنف قبل أن أتساءل إذا كان العنف لديه يتخلى أو لا يتخلى. فأنا مؤمن بالفضيلة المطلقة لكل ما يعمل، تلقائيا أو لا، بمعنى عدم القبول، ولن تكون علل الفعالية العامة التى يستوحيها الصبر الطويل السابق للثورة، وهى علل أحترمها، سببا فى أن أصم أذنى عن الصيحة التى يمكن أن ينتزعها منا، فى كل دقيقة، الفارق المخيف بين ما هو مكتسب وما هو ضائع، بين ما هو ممنوح وما هو معانى. هذا الفعل الذى أصفه بالأبسط، من الجلى أن غايتى ليست تحبيذه دون غيره لأنه بسيط، ومشاجرتى فى هذا الصدد تماثل السؤال، بورجوازيا، لكن غير متقيد بالأعراف لماذا لا ينتحر، ولكل ثورى لماذا لا يذهب ليعيش فى الاتحاد السوفيتى. إليكم عنى! إن تعجل البعض أن يروا نهايتى والميل الطبيعى عندى إلى التحرك يكفيان، وحدهما، لإقناعى أن لا أغادر «الساحة» دون جدوى.

بذاتها، ماتزال تتناقص الحاجة إلى أن نجد لها سوابق، وفيما يخصنى، لا أمانع أن يعتبرها رواة الأحداث، القضائيون وغيرهم، ذات صفة عصرية صرف. فأنا أقوى ثقة فى هذه اللحظة الحاضرة من فكرى، منى بكل ما سيحاول إعطاؤه من معنى لعمل منجز، لحياة إنسانية بلغت أجلها. فلا شئ أشد عقما، فى النهاية، من مساءلة الموتى الدائبة تلك: هل اهتدى رامبو عشية وفاته، هل يمكن أن نجد فى وصية لينين عناصر إدانة لسياسته الدولية الثالثة الحاضرة، هل هناك عيب جسمانى خاص وغير محتمل كان المسبب الأعظم لتشاؤم الفونس راب، هل جاهر ساد، فى أوج حكم مجلس الميثاق الوطنى، بعدائه للثورة؟ يكفى السماح بإلقاء هذه الأسئلة لتقدير وَهْى شهادة الذين غادروا الدنيا. إن مخادعين كثيرين أولعوا بإنجاح عملية النهب الفكرى هذه، فلن أتبعهم فى هذا الميدان. وفيما يتعلق بالثورة، لا ينبغى لأحدنا أن يلتمس أسلافا. وأحب أن أوضح أنه يجب، فى رأيى، الحذر من تقديس البشر، مهما كانوا عظماء فى ظاهرهم. فباستثناء واحد هو لوتريامون، لا أجد فيهم من لم يترك خلفه أثرا مريبا. ولا داعى لمتابعة الجدل حول رامبو: رامبو خدع نفسه، رامبو أراد أن يخدعنا، هو مذنب، أمامنا، بأنه أباح، بأن لم يجعل مستحيلة مطلقا بعد تأويلات شائنة لفكره، كتأويلات كلوديل. وحسرة أيضا على بودلير («أيها الشيطان...») وعلى تلك «القاعدة الأبدية» لحياته: «تأدية صلاتى كل صباح لله، **مستودع كل قوة وكل عدالة، ولأبى ولمارييت ولبو**، كوسطاء». حق التناقض، أعلم، لكن إلى هذا الحد! لله، لبو؟ بو، المعتبر اليوم، بحق، فى مجلات الشرطة، **أستاذ الشرطيين العلميين**، (من شرلوك هولمز، فعلا، إلى بول فاليرى...).

أليس عارا إعطاء مظهر فكرى جذاب لنموذج شرطى، **دائما شرطى**، وتزويد العالم بأسلوب شرطى. لنبزق، مرورا على ادغار بو[1]. إذا كنا، بواسطة السوريالية، نرفض، دون تردد، فكرة مجرد احتمال الأشياء، «الكائنة» وإذا كنا نعلن، نحن، أنه، بطريق «كائن» نستطيع إبانته والمساعدة على اتباعه، يمكن بلوغ ما زعم «غير كائن»، وإذا كنا لا نجد كلمات كافية لفضح دناءة الذهن الغربى، وإذا كنا لا نخشى القيام بتمرد ضد المنطق، وإذا كنا لا نقر بأن العمل المأتى فى الحلم أقل معنى من العمل المأتى فى الصحو، وإذا كنا غير واثقين، حتى، من أننا لن ننهى أمرنا **مع الزمن**، المهزلة القديمة المشئومة، القطار الخارج أبدا عن خطه، النبضة المجنونة، الركم المتداخل من حيوانات تنفق ونافقة، كيف يراد أن نظهر بعض رقة، بل أن نعمد إلى التسامح نحو جهاز حفظ اجتماعى، مهما كان؟ إنه، إذن، التوه الوحيد غير المقبول حقا، منا. كل شئ لا يزال ينتظر الصنع، وكل

١ ـ «لدى الطبعة الأصلية لمارى روجيه، اعتبرت الشروح المذيلة للصفحات غير مفيدة. لكن أعواما عديدة مرت منذ الحادث الذى بنيت عليه هذه القصة، وبدا لنا مفيدا أن نعيد هذه الشروح هنا مع بعض كلمات تفسير فيما يخص الغاية العامة. هناك فتاة هى مارى سيسيليا روجرز، اغتيلت فى ضاحية نيويورك. وبرغم أن موتها أثار اهتماما شديدا ومستمرا فإن الغموض الذى أحاط بها لم يكن كشف حين كتب هذا الجزء ونشر (تشرين الثانى ١٨٤٢)، هنا، بحجة حكاية مصير فتاة باريسية، رسم المؤلف بدقة الوقائع الأساسية، وفى ذات الوقت، الوقائع غير الأساسية لكن المرافقة للاغتيال الحقيقى لمارى رورجرز. وهكذا، كل حجة مبنية على الخيال تنطبق على الحقيقة. والتحرى عن الحقيقة هو الهدف.

لقد كتب «لغز مارى روجيه» بعيدا عن مسرح الجريمة ودون وسائل تحرى غير الصحف التى استطاع المؤلف الوقوع عليها. وبذلك حرم من كثير من الوثائق التى كانت ستفيده لو أنه كان من المنطقة واستكشف الأماكن. ولا بأس أن نذكر، مع ذلك، بأن اعترافات شخصين (منهما مدام دولوك التى فى القصة) الحاصلة فى زمنين مختلفين وبعد مدة طويلة من صدور الكتاب، قد أيدت تماما، لا الاستنتاج النهائى فحسب، بل أيضا جميع التفاصيل الافتراضية التى بنى عليها ذلك الاستنتاج».

(ملاحظة تمهيدية لقصة لغز مارى روجيه)

الوسائل ينبغى أن تصلح للاستعمال فى هدم فكر **الأسرة والوطن والدين**. ومع أن الموقف السوريالى فى هذا الشأن معروف جدا، يجب أن يُعرف أيضا أنه لا يحتمل تساهلا. وأولئك الذين تعهدوا بالمحافظة عليه يصرون أن يبرزوا هذا الرفض، وأن يستهينوا بكل معيار تقدير آخر، إنهم يريدون أن يتمتعوا كل التمتع بالأسف المصطنع الذى يستقبل، فى الجمهور البورجوازى المتهيئ بحقارة دائما أن يغفر لهم بعض سقطات «الشباب»، الحاجة التي لا تفارقهم للضحك، كمتوحشين، أمام الراية الفرنسية، وللتقيؤ بقرف فى وجه كل كاهن، ولمقابلة نوعيات «أولى الواجبات» بتسديد سلاح الوقاحة الجنسية البعيد المدى. إننا نحارب جميع أشكال اللامبالاة الشعرية والتشتت الفنى والبحث المتحذلق، والدراسة النظرية المحض، ولا نرضى أية صلة بصغار ولا بكبار مقتصدى الفكر، وكل التخليات وكل الانسحابات وكل الخيانات الممكنة لن تمنعنا من أن نصفى هذا الهراء. ومما تجدر الإشارة إليه، أن الناس الذين ألجؤونا، يوما، إلى الاستغناء عنهم، ما أن تُرِكوا لذاتهم، ولذاتهم وحدها، حتى حاروا وحتى راحوا يلتمسون الحيل الأزرى ليرجعوا إلى أحضان حماة **النظام**، والدعاة المتحمسين لمبدأ تسوية الناس فى قِصَرٍ واحد. ذلك أن الوفاء دون خور لالتزامات السوريالية يفترض تجردا عن الغرض، واستهانة بالخطر، ورفضا للتساهل، قل من يثبت عليها، على المدى، فإن لم يبق واحد من جميع الذين سبقوا إلى اتخاذ السوريالية قياسا لحَظّهم من المعنى ولتوقهم إلى الحقيقة، ستبقى السوريالية حية. ومهما يكن فقد فات الوقت لمنع بذرتها من أن تنمو وتتكاثر فى الحقل الإنسانى، مع الخوف وأنواع الأعشاب الطبيعية الأخرى التى

ستتغلب على كل شئ.. بل لهذا عاهدت نفسى، كما تشهد مقدمة الطبعة الجديدة **لبيان السوريالية** (١٩٢٩)، أن أدع، بصمت، لمصيرهم المحزن، عددا من الافراد بدا لى أنهم جازوا أنفسهم بأنفسهم: تلك كانت حال السادة أرتو وكاريف وديلتيل وجيرار وليمبور وماسون وسوبو وفيتراك، المسمّيين فى البيان (١٩٢٤)، وبعض آخرين منذئذ. لكن، بما أن الاول من هؤلاء السادة قد ارتكب حماقة الاحتجاج، فإنى أرى مناسبا، فى هذا الصدد، أن أعود عن قصدى ذاك :

كتب السيد أرتو، الى صحيفة (أنترانزيجان)، فى العاشر من أيلول ١٩٢٩ :

«فى التقرير المنشور فى صحيفتكم فى ٢٤ آب الماضى، حول **بيان السوريالية**، جملة توقظ فى الأذهان أشياء كثيرة : «إن السيد بروتون لم ير وجوبا لإدخال تصحيحات فى هذه الطبعة الجديدة لكتابه - خاصة فى الأسماء، وهذا أمر يشرِّفه، لكن التصحيحات تأتى من ذاتها» - أن يلجأ السيد بروتون للشرف كيما يحكم على عدد من الاشخاص تطبّق عليهم هذه التصحيحات، مسألة أخلاقية تحزبية كانت قلة فقط من أهل الأدب مصابة بها. لكن ينبغى أن نترك للسورياليين اللعب بهذه الأوراق الصغيرة، ثم إن كل من انغمس فى قضية **الحلم**، قبل عام، لا يجوز له أن يتحدث عن الشرف.»

ما أنا بمناقش موقع هذه الرسالة فى المعنى الشديد الدقة الذى أعطيه لكلمة: شرف. وأن يعمد ممثل، طمعا فى المال والمجد الزائف، إلى إخراج رواية للمجهول الهوية ستريندبرغ، لا أهمية لها عنده طبعا، هو أمر ما كنت لأرى فيه بأسا لو أن هذا الممثل لم يزعم

الأمينين سيوصفون بالمسوسين، ألن يكون فى ذلك ما يؤلف فريقا مسليا، غير ذى خطر، على صورة الحياة تماما، فريقا من الناس المؤجرين بالقطعة، الرابحين بالنقاط؟.

يا للقذارة!

إن ثقة السوريالية لا يمكن أن تكون موضوعة فى محلها أو فى غير محلها، لسبب وحيد هو أنها غير موضوعة. لا فى العالم المحسوس ولا بشكل محسوس في غير هذا العالم، ولا فى دوام المقاربات الذهنية التى توعز لوجودنا بمطالب طبيعى أو بنزوة سامية، ولا فى الفائدة التي قد يجدها «الذهن» فى مداراة زبائننا العابرين. ولا أيضا، وهذا بديهى، فى السبل المتبدلة لدى أولئك الذين آمنوا، فى البداية، بها. وما إنسان حُصِرت ثورته ونُزِفت بمانع هذه الثورة أن ترعد، وما لأناس مهما كثروا - ولم يُصنَع التاريخ من زحفهم على الركب - أن يحولوا دون أن تروض هذه الثورة، فى اللحظات المظلمة الكبرى، وحش «الهذا أفضل» المتجدد الانبعاث. وما تزال توجد إلى هذه الساعة، على مدى العالم، فى المعاهد، حتى فى المحترفات ذاتها(١)، فى الشارع، فى مدارس الكهنوت وفى الثكنات، نفوس فتية

١ - سيقال: حتى؟ - إن علينا نحن، فى الواقع، دون أن نسمح، لأجل ذلك، أن ينثلم حد الفضول الذهنى الخالص الذى تهيج به السوريالية، كلا فى ميدانه، أخصائيى الشعر والفن وعلم النفس المغلق النوافذ، علينا نحن أن نتقرب بقدر ما يتواجب من تؤدة دون مفاجأة، من الفهم العمالى، غير المؤهل، تعريفا، أن يتبعنا فى سلسلة مساع لا يتضمنها بتمامها المفهوم الثورى لصراع الطبقات. ونحن أول الأسفين لكون الطائفة المهمة الوحيدة فى المجتمع قد أبقيت مبعدة نظاميا عما يشغل الطائفة الأخرى، ولكونها لا وقت لديها تتحه إلا للافكار الهادفة مباشرة إلى عتقها، الأمر الذى يجعلها تدمج في حذر مجمل كل ما يجرى خارجها، بقصد أو بغير قصد، لمجرد أن القضية الاجتماعية ليست الوحيدة على الإطلاق المطروح بحثها. فلا عجب إذن فى تحاشى السوريالية أن تلهى، ولو قليلا، عن مجال تفكيرها الخاص، الرائع الفعالية، الشبيبة التى تجهد بينما الأخرى، المدانية الوقاحة، تتفرج على جهدها. وفى المقابل ماذا على السوريالية أن تحاول غير أن توقف، بداية، عند حافة التنازل النهائى، قلة من الناس مسلحين فقط بتشكك =

نقية ترفض **الاعتياد**. إليهم وحدهم أتوجه، ولأجلهم وحدهم أقوم بتبرئة السوريالية من أنها، فى النهاية، تسلية ذهنية، شأنها شأن غيرها، ليسعوا، دون تحيز أجنبى، إلى معرفة ما أردنا عمله، وليساعدونا، وليشجعونا واحداً واحداً، إذا لزم الأمر. لا داعى تقريبا لأن ننفى عن أنفسنا أننا قصدنا، أبدا، تأليف حلقة مغلقة، والمنتفعون الوحيدون من تلك الإشاعة هم الذين كانت لهم مشاركة قصيرة معنا ثم قمنا **نحن** بإلغائها لعيب موجب للبطلان. إنه السيد أرتو، الذى رأيتم، والذى كان يمكن أن تروه أيضا يُصفَع فى ردهة فندق من قبل بيير أونيك ويستنجد **بأمه**! إنه السيد كاريف العاجز عن تصور المسألة السياسية أو الجنسية إلا من زاوية الإرهاب الغاسكونى[١]، والمدافع التافه أخيرا، عن (غارين) للسيد مالرو. إنه السيد ديليتل، ويراجع مقاله السافل عن الحب فى العدد الثانى من **الثورة السوريالية** (إدارة نافيل)، ومنذ طرده من السوريالية، «المشعرون»[٢]، و«جان دارك»: ولا حاجة لمزيد. إنه السيد جيرار، وهو فريد من نوعه، رُفِض، حقا، لغباوة ولادية: تطور مختلف عن السابق، أعمال حقيرة الآن فى **صراع الطبقات**، وفى **الحقيقة**، لا شئ يستحق الاهتمام. إنه السيد لمبور، المختفى تقريبا، أيضا، تشكك وتصنّع أدبى فى

= الضمير، لكن الذين لا شئ يضمن، ولا تمرسهم الشديد، مع ذلك، يثبت، أنهم لن يصيروا، بدورهم، مع الترف ضد البؤس؟

إن رغبتنا هى أن نظل جاعلين فى متناول هؤلاء مجموعة آراء وجدناها، نحن أنفسنا، مهيجة، ومتحاشين أن يصبح الاطلاع على هذه الآراء غاية بدل أن يكون وسيلة، وبينما يجب أن تكون الغاية الإحباط التام لادعاءات طبقة ننتمى إليها برغمنا لا نستطيع المساهمة فى إبطالها، خارجنا إلا بعد أن نتوصل إلى إبطالها فى ذاتنا.

١ - غاسكونيا: إقليم فى جنوب غرب فرنسا يوصف أهله بالادعاء الكاذب.

٢ - المشعرون: صفة كانت تطلق، تقديراً، على جنود الجيش الفرنسى فى الحرب العالمية الأولى، لانشغالهم بالحرب عن قص شعورهم وحلق ذقونهم.

أسوأ معنى الكلمة. إنه السيد ماسون الذى لم تصمد عقائده السوريالية التى طالما جاهر بها أمام قراءة كتاب بعنوان **السوريالية والتصوير**، لم ير صاحبه الذى لم يكن آبهاً للتصنيف الرتبوى، واجبا أن يقدمه على بيكاسو الذى يعتبره السيد ماسون وغدا، وعلى ماكس ارنست الذى يتهمه فقط بعدم موازاته فى التصوير: وهو تفسير سمعته منه. إنه السيد سوبو، ومعه العار كله، ولندع الكلام، حتى، عما يوقّعه ولنتكلم عما لا يوقّعه، أخبار صغيرة من نوعية معينة، «يمررها»، مع الإنكار، باختلاجه كجرذ يطوف ملعب الجرذان، فى صحف الابتزاز مثل: «ما بلغ السمع: أن السيد أندريه بروتون، رئيس الجماعة السوريالية، قد اختفى من مأوى العصابة فى شارع جاك - كالو، (إنها الصالة السوريالية القديمة). وأخبرنا صديق سوريالى أنه قد اختفت معه بعض دفاتر محاسبة جمعية الحى اللاتينى الغربية، بغية إتلافها كلها. ومع ذلك فقد علمنا أن غربة السيد بروتون تلطف من وحشتها متعة مرافقة شقراء سوريالية» ورونيه كروفيل وتريستان تزارا يعرفان أيضا لمن هما مدينان بهذه الإذاعات المذهلة عن حياتهما وبتلك التهم الافترائية الأخرى، أما، فيما يخصنى فإنى أجد بعض اللذة فى محاولة السيد أرتو اتهامى، جزافا، بعدم الشرف، وفى جراءة السيد سوبو لجعلى أُعتبر لصا. وأنه، أخيرا، السيد فيتراك، ذو الأفكار القذرة، حقا - ولندع «الشعر الخالص» له ولذاك الصرصور الآخر، الاباتى بريمون -، المسكين الذى بلغت به سذاجته الأصيلة إلى الاعتراف بأن هدفه الأسمى، كرجل مسرح، وهو طبعا أيضا هدف للسيد أرتو، تنظيم عروض تنافس فى جمالها بغتات الشرطة (تصريح فى مسرح ألفرد جارى،

نشر فى «**المجلة الفرنسية الجديدة**»(١). إنه لأمر، كما ترون، مبهج جدا. وآخرون وآخرون أيضا لم يجدوا مكانا فى هذا التعداد، إما لأن نشاطهم العام أتفه من أن يذكر، وإما لأن مكرهم مورس في ميدان أقل عموما، وإما لأنهم حاولوا أن يتخلصوا بالفكاهة، آخرون، كما قلنا، تولوا البرهنة لنا على أن قلة قليلة من الناس الذين يتقدمون، هم على مستوى القصد السوريالى، وأيضا إقناعنا بأن ما يحكمهم عند أول التواء ويلقى بهم، دون رجعة، إلى هلاكهم، حتى لو أصبح عدد الباقين أقل من عدد الساقطين، يناسب تماما هذا القصد.

سيكون من الشطط الطلب إلى أن أقتصر إلى هذا الحد فى هذا التعليق. إذ لا أرانى مأذونا، فى نطاق قدرتى، أن أدع يرتع الأخسة والغشاشين والوصوليين وشهداء الزور والمشائين. إن الوقت المضاع فى انتظار إخزائهم يمكن تداركه، ولا يمكن تداركه إلا ضدهم. وفى ظنى أن هذا التمييز الشديد الدقة هو وحده اللائق تماما بالهدف الذي نتابعه، وأن من العمى المجازى الإنقاص من شأن الأثر المفسد لإقامة هؤلاء الخونة بيننا، كما سيكون وهما محزنا من النوع الوضعى افتراض أن هؤلاء الخونة، الذين ليسوا فى محاولتهم الأولى، لن يتأثروا بمثل هذا الجزاء(٢).

١ ـ لا ننسى كلمته التاريخية فى السوريالية: «وبعد، أف للثورة!» دون شك.

٢ ـ ما حالفنى السداد قط كما حالفني هنا: فمنذ أن نشرت هذه السطور لأول مرة فى الثورة السوريالية نعمت بسيل من اللعنات ينهال على حتى لو أننى تلمست لى قصورا أحاسب نفسه عليه لكان هذا القصور أننى تأخرت فى إتيان هذه المجزرة. وإن تكن تهمة أعترف أنى أجزتها على طويلا فهى، بالتأكيد، تهمة التغاضى. وقد وجد، خارج أصدقائي الخلص نوو عقل نير، كثير، عتبوا على بذلك. وفى الصحيح، ملت أحيانا، إلى تسامح كبير بشأن الذرائع الشخصية لنشاط خاص، وأكثر من ذلك، بشأن الذرائع الشخصية لعدم نشاط عام. وبشرط عدم إعادة البحث فى عدد قليل من الأفكار المبتذلة تعريفاً، غفرت – وأكرر: غفرت – لهذا غراباته، ولذلك عاداته الفاسدة ولثالث انعدام قدراته المطلق تقريبا. وكونوا =

يمكن تصوره فى صنف الحدث، بذات قدر ما ترمى فكرة الحب إلى خلق كائن، وما ترمى فكرة «الثورة» إلى إحلال يوم هذه «الثورة» وإلا، فقدت هذه الأفكار كل معنى - ولنذكر أن فكرة السوريالية ترمى بكل بساطة إلى الاسترجاع الكلي لقوتنا النفسانية بوسيلة ليست سوى الهبوط السريع جدا إلى ذاتنا والإنارة المنظمة للأماكن الخفية والتعتيم التدريجي للأماكن الأخرى، والتنزه الأبدى فى قلب المنطقة المحرمة، وأن نشاط هذه الفكرة لن يتعرض، جديا، للانتهاء طالما توصل الإنسان أن يميز حيوانا من لهب أو من حجر - فليحفظ الشيطان، كما قلت، الفكرة السوريالية من أن تبدأ السير دون تجسد. وعلينا أن نعمل كما لو كنا، حقيقة، «فى الدنيا» لنجسر، من بعد، على إبداء بعض تحفظات. فلن أبالى، إذن، بالذين يزعجهم أن يرونا نكثر مغادرة الأعالى التى عسكرونا فيها، وسأباشر الحديث، هنا، عن الموقف السياسى، و«الفنى» والجدلى الذى قد يصبح موقفا، فى نهاية عام ١٩٢٩- وأبين، خارجه، ما تقابله به، بالضبط، بعض التصرفات الفردية، المختارة اليوم بين الأخص والأكثر نموذجية.

لا أعرف إن كان من داع، هنا، للرد على الاعتراضات الساذجة من الذين يحسبون فتوحات السوريالية المحتملة فى الميدان الشعرى، حيث كان بدء عملها، ويقلقون من رؤيتها تشارك فى الخصومة الاجتماعية، زاعمين أنها قد تفقد فيها كل شئ. إنه، لامراء، كسل فيهم أو تعبير موارب عن رغبتهم في حصرنا. وقد حسم هيغل الأمر، فى تقديرنا، إذ يقول: «فى نطاق الأخلاقية، من حيث تميزه عن النطاق الاجتماعى، لا يكون الإنسان سوى يقين شكلى. وأن نذكر اليقين الحقيقى، فلبيان اختلافه ولتحاشى الخطل الذى يمكن الوقوع

فيه باعتبار اليقين، على ما هو هنا، كما لو كان اليقين الحقيقى، بينما لا ينشأ هذا، أولا، إلا فى الحياة الاجتماعية» (فلسفة الحقوق). إن عدم كفاية هذا اليقين الشكلى لم يعد موضع نقاش، والإصرار على إيقافنا عنده لا يبرهن على شرف أو ذكاء أو سلامة نية معاصرينا. فما من نظام ايديولوجى يمكنه، دون انهيار فورى، أن يغفل، منذ هيغل، تدارك الفراغ الذى قد يتركه فى الذهن ذاته، مبدأ إرادة لا تعمل إلا لحسابها الذاتى وتميل إلى الانعكاس على نفسها، وحين أذكّر بأن «الإخلاص» بالمعنى الهيغلى للكلمة لا يمكن أن يكون غير «دالة» قابلية الحياة الذاتية أن تخترقها الحياة «الجوهرية»، وبأن هذه الفكرة لم تلق اعتراضاً أساسيا من قبل أذهان شديدة الاختلاف، مثل فويرباخ الذى انتهى إلى نفى الوعى كقدرة خاصة ومثل ماركس المنشغل كليا بحاجة تغيير جذرى فى الظروف الخارجية للحياة الاجتماعية، ومثل هارتمان الذى استخلص من نظرية عن اللاوعى ذات أساس مفرط التشاؤم تأكيدا جديدا ومتفائلا لإرادة الحياة، ومثل فرويد المشدد، أكثر فأكثر على الإلحاح الخاص «للذات الفائقة»، حين أذكر بذلك، لا أحسب أن أحداً سيعجب إذ يرى السوريالية، وهى توالى سيرها، تدأب على أمور أخرى غير حل مسألة نفسانية مهما بلغت من الأهمية. وباسم الاعتراف الحتمى بهذه الضرورة، أقدر أننا لا نستطيع تحاشى أن نطرح على أنفسنا، وبالصورة الأحد، موضوع النظام الاجتماعى الذى نعيش فى ظله، أقصد قبول أو عدم قبول هذا النظام. وباسم هذا الاعتراف أيضا أجد من حقى أن أدين، عابرا، المنتقلين من السوريالية إلى صف أعدائها، الذين

يعسر ما أؤكد هنا على فهمهم ويعلو على مستواهم، إنهم، مهما يفعلوا، ومهما تكن صرخة الفرح الزائف التى يحيون بها انسجامهم، ومهما تكن الخيبة الفظيعة التى يتمنون لنا، - ومعهم كل القائلين أن جميع الأنظمة سواء مادام الإنسان سيغلب فى نهاية الأمر - لن يجعلونى أنسى أنه سيكون من نصيبى أنا، لا من نصيبهم، على ما آمل، التمتع بهذه «السخرية» السامية التى تنطبق على كل شئ وأيضا على **الأنظمة**، والتى ستمتنع عنهم لأنها تتبع، لكن تفترض مسبقا، كل العمل الإرادى الكائن فى التدرج فى أطوار **المراءاة**. **والترجيح**. **والإرادة التى تريد الخير**. **واليقين**: (هيغل: **دراسة ظواهر الذهن**).

إن السوريالية، وإذا كان على الأخص من وسائلها التصدى لمعالجة مبادئ الواقع والوهم، والرشد، والعمه، والتفكير والاندفاع، والمعرفة والجهل «المحتم»، والنفع وعدم النفع، وما إلى ذلك، لها من المادية التاريخية هذا التشابه فى الميل، على الأقل، بأنها تنطلق من «الإحباط الجبار» فى النظام الهيغلى. ويبدو لى مستحيلا أن تعين حدود، كحدود الإطار الاقتصادى مثلا، لممارسة ذهن مرن نهائيا على الإنكار وعلى إنكار الإنكار. كيف نسلم بأن الطريقة الجدلية لا يمكن أن تطبق بشكل مجد إلا في حل القضايا الاجتماعية. إن كل طموح السوريالية هو أن تهيئ لها إمكانات تطبيق غير مزاحمة مطلقا فى الميدان الواعى الأكثر مباشرة. وخلافا لبعض الثوريين ذوى الفكر المحدود، لا أرى، فى الحق، لماذا نمتنع عن إثارة مواضيع الحب والحلم والجنون والفن والدين، شرط أن نتصور «الثورة» من ذات

الزاوية التى يتصورونها منها ـ ونحن أيضا ـ[1]. هذا ولست أخشى القول إن ما من شئ منظم عُمِل، قبل السوريالية، فى هذا الاتجاه، وأن **الطريقة الجدلية، فى شكلها الهيغلى لم تكن قابلة التطبيق**. كان الأمر، بالنسبة إلينا، ضرورة الانتهاء من الفكرة بمعناها الحرفى، وسيكون خلق كلمة «سوريالية» وحده ضامنا لنا، ونستعيد هنا مثال انغلز، وجوب أن لا نقف عند تفسير الأطفال: «الوردة هى وردة. الوردة ليست وردة. ومع ذلك الوردة هى وردة». لكن، لتغتفر لى هذه الجملة المعترضة التى أجر فيها «الوردة» فى سياق مفيد من تناقضات أقل بساطة، حيث ستكون على التوالى: التى تأتى من الحديقة، والتى تأخذ مكانا غريبا فى الحلم، والتى يستحيل إفرازها عن «الباقة البصرية»، والتى تتبدل خواصها وصفاتها تماما حين تنتقل إلى الكتابة الآلية، والتى لا يبقى منها إلا ما يشاء المصور أن يُحفَظ من الوردة فى لوحة سوريالية، وأخيرا، تلك التى تعود إلى الحديقة مختلفة تماما عن ذاتها. إن المسافة بعيدة من هنا إلى أية نظرة فكرية، وماكنا، حتى، لندافع عن أنفسنا لو استطعنا التوقف عن أن نكون عرضة لهجمات المادية البدائية. وهى هجمات صادرة معا، من الذين، لروحهم المحافظة الدنيئة، لا يكنون أية رغبة فى جلاء العلاقات بين الفكرة والمادة، ومن الذين، لتحيز

١ ـ الاستشهاد الكاذب هو إحدى الوسائل الأكثر استعمالا ضدى منذ قليل، وأقدم مثالا لذلك الطريقة التى حسبت صحيفة (هنا = العلم) «لوموند» أنها يمكن أن تستغل بها هذه الجملة: «زاعما تصور مواضيع الحب والحلم والجنون والفن والدين من ذات زاوية الثوريين، تجاسر السيد بروتون أن يكتب....» وصحيح كما كتب فى العدد التالى: «إن الثورة السوريالية هاجمتنا فى عددها الأخير. والكل يعلم أن سخافة هؤلاء الناس لا حدود لها مطلقا» (خاصة أليس كذلك، منذ رفضنا، دون أن نعنى بإجاباتكم، عرضكم أن نساهم فى (هنا الخدم) «موند»، لكن ليكن!) وكذلك أحد المساهمين في مقال جثة يؤنبنى، صراحة بحجة أننى كتبت: «أقسم أنى لن أرتدى ثانية اللباس العسكرى الفرنسى». إنى آسف لكنى لست الكاتب.

ثورى أساؤوا فهمه، يخلطون، دون التفات إلى ما هو مطلوب، بين هذه المادية والمادية التى يميزها انغلز، جوهريا، عنها، والتى يعرفها، قبل كل شئ، **كإدراك للعالم** مدعو أن يحس به وأن يتحقق: «**فى خلال توسع الفلسفة. فقدت الفكرية قوتها وأنكرتها المادية الحديثة. وهذه الأخيرة، التى هى إنكار الإنكار ليست مجرد إعادة للمادية القديمة: فإلى الأسس الدائمة لهذه. أضافت كل فكرة الفلسفة وعلوم الطبيعة طوال تطور ألفى سنة، وحاصل هذا التاريخ الطويل ذاته**». على أننا عازمون، أيضا، على اتخاذ وضع انطلاق يجعل الفلسفة، بالنسبة إلينا «**متفوقا عليها**». إنه، فيما أحسب، قدر جميع الذين لا ينظرون إلى الواقع من حيث أهميته النظرية فقط، بل يرون فيه مسألة حياة أو موت، أن يستوحوا، بشغف، كما أراد فويرباخ، هذا الواقع: قدرنا نحن أن نمنح، كما منحنا، تأييدنا **الكامل** لمبدأ المادية التاريخية، وقدره، هو، أن يلقى فى وجه العالم الفكرى الذاهل برأيه «إن الإنسان هو ما يأكل» وأن ثورة مقبلة ستكون أكبر حظا فى النجاح إذا ما تناول الشعب طعاما أفضل، وبالتحديد، حمصا بدلا من البطاطا.

«تأييدنا لمبدأ المادية التاريخية....» ليس من سبيل للتلاعب بهذه الألفاظ. ليتوقف الأمر علينا وحدنا ـ أعنى شرط أن لا تقتصر الشيوعية على معاملتنا كحيوانات غريبة وظيفتها، فى صفوفها، لفت النظر وبعث الحذر ـ، وسنثبت أهليتنا، من وجهة النظر الثورية، للقيام بجميع واجبنا. لكن هذا، للأسف، تعهد لا يهم غيرنا. إذ لم أستطع، فيما يخصنى، أن أجتاز كما أتمنى، حرا وغير ملاحظ، عتبة دار الحزب الفرنسى تلك حيث يؤذن لكثير من الأوباش، من شرطيين

وغيرهم، أن يمرحوا كما في طاحون، وفى أثناء ثلاث جلسات استجواب دامت كل منها عدة ساعات، اضطررت أن أدفع عن السوريالية التهمة الساذجة بأنها، فى جوهرها، حركة سياسية ذات اتجاه واضح ضد الشيوعية وضد الثورة. أما المناقشة الأساسية لأفكارى، فلا حاجة إلى القول إنها ما كانت تُنتَظر من الذين حاكمونى. وقد جعجع ميشيل مارتى، فى ذلك الحين لأحدنا: «إذا كنت ماركسيا فلا داعى لك أن تكون سورياليا». سورياليين، لم نكن نحن طبعا الذين اعتززنا بكوننا، فى ذلك الظرف: على أن هذه الصفة قد سبقتنا، برغمنا، كما كانت ستسبق، أيضا، صفة «نسبيين» للانشتانيين، و«نفسانيين» للفرويديين. كيف لا نقلق شديدا لهذا الضعف فى المستوى الفكرى لحزب ظهر، من زمن قريب، في ألمع صورة، مسلحا باثنين من أذكى أدمغة القرن التاسع عشر! ذلك ما لا يجهله أحد. والقليل الذى استفدته، فى هذا الصدد من تجربتى الخاصة هو فى مستوى الباقى. لقد طُلب إلى، فى خلية «الغاز» أن أضع تقريرا حول الوضع الإيطالى، شرط أن لا أعتمد إلا على وقائع إحصائية: (إنتاج الفولاذ وما أشبهه)، وخاصة، **دون نظريات فكرية**! ولم أستطع.

لست أرى بأسا فى أنى أعتبر الآن، عند الحزب الشيوعى لمجرد خطأ فهم، بين رجال الفكر الأبعد عن قبوله. فتعاطفى المنحصر، إطلاقا، مع عامة الذين سيصنعون «الثورة» الاجتماعية لا يدعنى أحفظ تأثرا من هذا الأمر العارض. أما الذى لا أقره فهو أن يكون بعض رجال الفكر ممن أعرف، ومن ذوى المقاصد الأخلاقية المريبة، قد استطاعوا بعد أن فشلوا فى محاولات شعرية وفلسفية، بإمكانات

تحرك خاصة، أن ينخرطوا فى الغمار الثورى، وبفضل البلبلة السائدة فيه، أن يوهموا بأنفسهم، ولم يجدوا، ضمانا لراحتهم، ألح من أن يتنكروا فى جلبة لما كان، مثل السوريالية، قد زود فكرهم بأصفى ما فى فكرهم، لكن، أيضا كان يلزمهم أن يقدموا حسابات عن نشاطهم وأن يبرروا، إنسانيا، موقفهم. إن الفكر ليس دولاباً يتحول مع الريح، أو، على الأقل، ليس دولاباً فقط. ليس كافياً أن يفكر المرء، فجأة، بوجوب الإنصراف إلى نشاط آلى معين، بل قد يُقبَل فعله، إذا أحس بقدرة أن يظهر، موضوعيا، كيف توصل إلى ذلك، وما هي، على وجه الدقة النقطة التى ينبغى بلوغها للشعور بهذا الوجوب. ولا يحدثنى أحد عن تلك الاهتداءات الثورية من النوع الدينى التى يقتصر البعض على إعلانها لنا، مضيفين أنه يحلو لهم عدم التبسط فى تفسيرها. لا يمكن، على هذا الصعيد، انقطاع أو انتهاء استمرار فى الذهن، إلا أن يعاد بنا إلى مواربات «النعمة» القديمة... إنى أمزح. لكن، من الطبيعى أن أرتاب شديدا. وماذا! لنقل أنى أعلم رجلا: أعنى أنى أتصور من أين جاء، وقليلاً إلى أين يذهب، ثم يراد، فجأة، أن تكون جملة المعلومات هذه باطلة وأن يبلغ هذا الرجل غير ما كان متجها نحوه! ولنفترض ذلك ممكنا. فهذا الرجل الذى لم نعهده إلا فى طور «الخادرة» اللطيف، لكن يطير بجناحيه الخاصين، أما عليه، أولا، أن يخرج من فيلجة ذهنه؟ مرة أخرى إنى لا أصدق. إذ أعتقد أنه كان من الضرورى جدا، لا عمليا فحسب، بل أخلاقيا أيضا، على كل من انسلخ، بهذا الشكل، عن السوريالية، أن يثير قضيتها، أيديولوجيا وأن يبين لنا، من وجهة نظره، أى طرف منها أولى بالانتقاد. ذلك مالم يحدث أبدا. والحقيقة

أن أهواء زرية هى التى دعت، دائما تقريبا، إلى انقلاب المواقف المباغت هذا، ويجب، فى ظنى، التماس سره، وسر شدة عدم الثبات عند أكثر الناس، فى فقدان متدرج للوعى، لا فى تفجر رشد فجائى، يختلف عن الأول اختلاف التشكك عن الإيمان. ولبالغ سرور الذين تنفرهم الرقابة على الآراء، كما هى ممارسة فى السوريالية، لا يمكن لهذه الرقابة أن تحدث فى الأوساط السياسية، وهم أحرار، إذن، أن يعلنوا طموحهم، ذلك الطموح، وهنا العلة الخطيرة، الذى سبق وجوده اكتشاف ميولهم الثورية المزعومة. أنظروهم «يقنعون» تسلطا، قدامى المجاهدين، أنظروهم «يحرقون» بأسرع مما يلزم لحرق أقلامهم، مراحل الفكر الناقد الأصعب هنا منه فى أى مكان آخر. أنظروا هذا يستشهد تمثالا، بأقل من أربعة فرنكات، للينين، وذاك يربت على بطن تروتسكى، والذى لا أقره أكثر، هو أن أناسا كنا معهم على اتصال، وظللنا، إذ خبرناهم على حسابنا، نفضح فى كل مناسبة ومنذ ثلاث سنين، مراءاتهم ووصوليتهم وغاياتهم المضادة للثورة، أمثال مورهانج وبوليتزر ولوفيفر، قد وجدوا وسيلة لحيازة ثقة قادة الحزب الشيوعى لدرجة أن استطاعوا، بموافقة ظاهرية على الأقل، من هؤلاء، نشر عددين من **مجلة لعلم النفس الملموس**، وسبعة أعداد من **المجلة الماركسية**، تولوا بعدها إظهارنا نهائيا على حقارتهم، بأن قرر الثانى، **بعد عام** من «العمل» المشترك والتواطؤ، بسبب التحدث عن إلغاء «علم النفس الملموس» التى لا «تباع»، أن يشى، إلى الحزب، بالأول المجرم بأنه بدد فى يوم واحد، فى مونت كارلو، مبلغ مائتى ألف فرنك كان مؤتمنا عليها ليصرف على الدعاية الثورية. وغضب هذا من أسلوب المعاملة فقط، وجاءنى فجأة يبثنى غيظه، معترفا مع ذلك، دون صعوبة أن الحادث صحيح. فمن المسموح به اليوم، إذن، بمساعدة

السيد رابوبور، استغلال اسم ماركس فى فرنسا، دون أن يجد أحد فى ذلك ضيرا.

ومن البديهى أن سهولة تغرير هؤلاء السادة المطلق، بمستقبليهم، أمس، فى الحزب الشيوعى، وغدا، فى الحزب المعارض له، كان، ومايزال، من شأنه أن تغرى بعض رجال الفكر الفاسدى الضمير، ولا فرق أن يؤخذوا من السوريالية التى لا تجد، بعد ذلك، خصوما أكثر مجاهرة.(١) بعضهم أمثال السيد بارون، مؤلف قصائد، حاذقة التمويه، لابولينير، لكن أيضا ضليل كالشيطان، انعدام مطلق لأفكار عامة، فى غابة السوريالية الهائلة الأبعاد غروب شمس شاحب على مستنقع راكد، الذى يقدمون للعالم «الثورى» سهم حماس مدرسة وجهل «فاحش» مزينين برؤى الرابع عشر من تموز. (بأسلوب إنشائى بالغ الإضحاك أبلغنى السيد بارون، منذ بضعة أشهر، اهتداءه إلى اللينينية الخالصة. وإنى أضع رسالته المليئة بالاقتراحات السخيفة وبالتفاهات المخيفة المستعارة من لغة صحيفة «أومانيته» وبتأكيدات الصداقة المثيرة للشفقة، تحت تصرف الهواة. ولن أعود إلى الحديث عنها إلا إذا اضطرنى.) والآخرون أمثال السيد نافيل، الذى سننتظر بكل صبر من طمعه النهم للشهرة أن يفترسه. ـ والذى

١ ـ مهما كانت هذه الملاحظة منغصة، من بعض الوجوه، ففى تقديرى أن السوريالية، هذا الجسر الصغير جدا فوق الهاوية، لا تتسع، على جانبيها، «لحاجز مجانين» ـ (درابزون). هناك مجال، لنا، أن نركن إلى صدق أولئك الذين يقودهم، يوما، حظهم الطيب أو السئ إلى الالتحاق بنا. سيكون شططا أن نطلب منهم، آنئذ، عهدا بالولاء النهائى، كما يكون حكما مسبقا غير إنسانى باستحالة نمو لاحق فيهم لأية شهوة مبتذلة. كيف اختبار متانة الفكر عند رجل فى العشرين لا يخطر له نفسه أن يتوسل إلا بالجودة الفنية الصرف لبضع صحائف يعرضها والذى، إذا كان النفور الذى يظهره من الإكراه يبرهن على أنه تعرض له، فهو لا يبرهن أنه لن يعرض له غيره. ومع ذلك فعلى هذا الإنسان الفتى وعلى الاندفاع وحده الذى يحدوه، يتوقف، إلى مالا نهاية له، استمرار حياة فكرة لا عمر لها. لكن، كم من خيبة! ولا نكاد نجد الوقت للتفكير بها إلا وهذا رجل آخر فى العشرين، ومن العسير على الفكر أن يحسن التمييز، مبدئيا، بين الجمال الحقيقى، وبين «جمال الشيطان» الذى هو رونق الشباب.

غدا، بسرعة لا توصف، مديرا لمجلة «البيضة المسلوقة» ومديرا «للثورة السوريالية». وكانت له اليد العليا على «الطالب الطليعى»، وكان مديرا «للنور» و «لصراع الطبقات» وكاد يصبح مديرا «للرفيق» وها هو الآن صاحب الدور الكبير الأول فى «الحقيقة» - الآخرون لا يقبلون، لأيما سببا، الالتزام بغير تحية رعاية صغيرة، كما تفعل سيدات الأعمال الخيرية نحو المساكين، ثم يقلن لهم، بكلمتين، ماذا يصنعون. ولمجرد رؤية السيد نافيل يمر، إذ بالحزب الشيوعى الفرنسى، والحزب الروسى، وأغلب أفراد المعارضة فى جميع البلاد الذى قد يكون السيد نافيل قد استدان منهم: كبوريس سوفرين ومارسيل فورييه، وكذلك السوريالية وأنا، يبدون جميعا كمعوزين. والسيد بارون الذى كتب «**العمل الشعرى**» هو بالنسبة لهذا العمل مثل السيد نافيل بالنسبة للعمل الثورى. ولقد قال السيد نافيل لنفسه: إن التحاقى لمدة ثلاثة أشهر بالحزب الشيوعى كاف لأن المهم عندى إبراز أننى خرجت منه. إن السيد نافيل، أو ، على الأقل والد السيد نافيل، غنى جدا (وللذين من قرائى ليسوا أعداء للطرافة أضيف بأن مكتب إدارة «**صراع الطبقات**» يقع فى رقم - ١٥ - شارع غرونيل فى ملك عائلة السيد نافيل، وليس غير القصر السابق لدوقات لاروشفوكو). إن اعتبارات كهذه تبدو لى واجبة الذكر هنا. وألاحظ، فعلا، أن السيد مورهانج، حين شرع تأسيس «المجلة الماركسية»، مول من السيد فريدمان بخمسة ملايين فرنك. واضطراره، بسبب خسارته فى القمار، أن يعيد بعد فترة قصيرة الجزء الأكبر من ذلك المبلغ لا يمنع من أنه توصل بفضل ذلك العون المالى الضخم إلى اغتصاب المركز الذى نعرف وإلى صرف الأنظار عن عجزه المشهور. وكذلك، بالاكتتاب بعدد من حصص التأسيس لمشروع «المجلات»

الذى كانت تتبعه «المجلة الماركسية»، حسب السيد بارون الذى كان قد ورث حديثا، أن آفاقا أوسع فتحت أمامه. وحين أطلعنا السيد نافيل، قبل أشهر، عن نيته إصدار «الرفيق» وهى صحيفة تتجاوب، حسب قوله، مع ضرورة إعطاء قوة جديدة للنقد المعارض، لكنها، فى الواقع، مجال لانفصال موارب، حسب عادته، عن فورييه البالغ التبصر، شاقنى أن أعرف منه من سيتولى الصرف على هذه النشرة وهى النشرة التى بينت أنه سيكون مديرها ومديرها الوحيد. هل هم أولئك «الأصدقاء» الغامضون الذين تجرى معهم أحاديث طويلة ومسلية جدا فى كل آخر صفحة من جريدة والذين تزعم إثارة اهتمامهم الشديد بثمن الورق؟ كلا. «إنهم» بكل بساطة، السيد بيير نافيل وأخوه، بمبلغ خمسة عشر ألف فرنك من عشرين ألف. ودفع الباقى «رفاق» مزعومون للسيد سوفارين اضطر نافيل للإقرار بأنه لا يعرفهم. وترون أنه، لترجيح وجهة نظر فى أوساط عليها فى هذا الصدد أن تكون بالغة الحرص، لايهم أن تكون وجهة النظر هذه قابلة بذاتها أن تفرض، بل أن يكون صاحبها ابن صاحب مصرف. والسيد نافيل، الذى يمارس بفن، لأجل النتيجة الكلاسيكية، أسلوب تفريق الأشخاص، لن يحجم، كما هو جلى، عن أية وسيلة للتوصل إلى التحكم بالرأى العام الثورى. لكن، فى تلك الغابة الرمزية نفسها التى رأيت فيها من هنيهة السيد بارون يتبختر فى رشاقة شرغوف[1] مرت أيام صعبة على هذا الثعبان البواء ذى الوجه النحس. على أنه، لحسن الحظ، لن يقال إن مروضين فى مثل قوة تروتسكى، بل وسوفادين، لن يتمكنوا أن يعيدوا إلى الصواب كبير الزواحف هذا. وإلى الآن نعرف أنه عاد من القسطنطينية برفقة الطوير فرانسيس جيرار. والأسفار التى تزيد

١ ـ الشرغوف: الضفدع قبل أن يكمل تطور نموه.

تعليم الشبيبة لا تنقص كثيرا من كيس السيد نافيل الأب. ومن المهم جدا أيضا تنبيه ليون تروتسكى إلى قذارة أصدقائه الوحيدين. وسؤال آخر، أفلاطونى صرف للسيد نافيل، «من» يمول «الحقيقة»، لسان حال المعارضة الشيوعية حيث يكبر اسمك كل أسبوع وينتشر، منذ الآن فى الصفحة الأولى؟ ـ شكرا.

لئن وجدت مفيدا أن أسهب حول مواضيع كهذه، فذلك أولا للإعلام، خلافا لما يسعى إلى الاقناع به جميع معاونينا السابقين من أنهم **رجعوا** عن السوريالية، بأننا نحن الذين طردناهم كلهم دون استثناء واحد. إضافة إلى فائدة التعريف بنوعية السبب. وذلك، أيضا لبيان أن السوريالية، رغم اعتبارها نفسها ملتحمة بلا انفصام، بسبب نقاط التوافق التي ذكرتها، مع سير الفكرة الماركسية ومع هذا السير فقط، تأبى، وستأبى طويلا دون شك، أن تختار بين التيارين العامين جدا اللذين يسوقان، فى هذه الساعة، فى مواجهة بعض، رجالا، إذا كانوا مختلفين فى التصور التكتيكى، فقد أثبتوا، فى كلا الطرفين، أنهم ثوريون صادقون. وفى الوقت الذى يقر فيه تروتسكى، فى رسالة مؤرخة في ٢٩ أيلول ١٩٢٩، بأن **واقع انحراف القيادة الرسمية. فى المؤتمر الدولى. إلى اليسار امر ظاهر**، والذى يؤيد فيه عمليا بكل نفوذه طلب عودة راكوفسكى وكاسيور وأوكودجافا إلى الحزب، التى من شأنها أن تستتبع عودته هو أيضا ما كان لنا أن نبدو أكثر منه تصلبا. وفى الوقت الذى يحث فيه مجرد تأمل أفجع خصومة ممكنة بين مثل هؤلاء الرجال، بصرف النظر، علينا على الأقل، عن تحفظاتهم النهائية إلى تقدم آخر فى طريق التجمع، ما نحن بالذين سنحاول ولو من بعيد جدا نقض

الجراح العاطفية التى خلفها القمع، كما فعل السيد بانابيت ايستراتى، وكما هنأه على ذلك السيد نافيل، وهو يقرص أذنه بلطف: يا ايستراتى، كان أولى بك أن لا تنشر مقطعا من كتابك فى مجلة مثل «المجلة الفرنسية الجديدة[1]... إلخ». إن تدخلنا فى مثل هذا الظرف لا يرمى إلا لتحذير الأذهان الجادة من أفراد قلة نعرفهم، بالتجربة، أغبياء أو غشاشين أو دساسين، لكن، على كل حال، سيئى القصد ثوريا. هذا، تقريبا، كل ما نستطيع عمله من هذه الجهة فى الوقت الحاضر، ونحن أول الآسفين أن تكون استطاعتنا هذا النذر القليل.

لكى يمكن حدوث مثل هذه الانحرافات ومثل هذه التحولات ومثل هذه الخيانات على الساحة ذاتها التى وضعت نفسى فيها، ينبغى، بالتأكيد، أن يكون كل شئ موضع عبث غير معقول حتى لا يكاد يُستطاع الاعتماد على النشاط المتجرد إلا على بضعة رجال معا. وإذا كانت المهمة الثورية ذاتها، بكل ما يفترض إنجازها من تدقيق، ليس من شأنها أن تفرق، فورا بين الأخيار والأشرار، وبين الكاذبين والصادقين، وإذا كانت، رغم تضررها الكبير، مضطرة إلى انتظار أن تتولى سلسلة من الأحداث الخارجية كشف قناع البعض ووضع بريق الخلود على وجه الآخرين السافر، كيف يراد أن لايكون الأمر أشد سوءا فيما ليس هذه المهمة بالذات، ومثلا فى المهمة السوريالية، فى حدود عدم اندماج هذه المهمة الثانية فقط مع المهمة الأولى؟ من الطبيعى أن تكون السوريالية تظهر فى وسط، وربما بواسطة، سلسلة غير منقطعة من التخاذل ومن الالتواء ومن التخلى، تتطلب فى كل لحظة إعادة النظر فى معطياتها الأصلية، أى الرجوع إلى المبدأ

١ ـ حول باناليت ايستراتى وقضية روساكوف تنظر «المجلة الفرنسية الجديدة» عدد ١ تشرين أول ـ و«الحقيقة» عدد ١١ تشرين الأول ١٩٢٩.

الأساسى لنشاطهم ومساءلة **الغد اللاعب**، الذى يريد من القلوب أن «تلتك» وأن تنفك. وأقر أن كل شئ لم يحاول لإنجاح هذا الأمر، ولو بالاستفادة حتى النهاية من الوسائل التى حددت لجماعتنا وبالاختبار العميق لأساليب التحقيق التى نادينا بها عند نشأة الحركة التى تشغلنا. إن مسألة العمل الاجتماعى ليست، وأعود إليها وأصر، إلا أحد أشكال مسألة أعم أوجبت السوريالية على نفسها أن تثيرها، هى **مسألة التعبير الإنسانى فى جميع أشكاله**. ومن يقول «التعبير»، يقول، بدءا «اللغة» فلا عجب إذن أن ترى السوريالية ترتكز أولا، ولا غير، على صعيد اللغة، ولا تكتفى، كما كانت، أن تعود إليها بعد إحدى الغزوات لتتصرف فيها كما في بلد مفتوح. ولا شئ، فى الواقع، يمكن أن يمنع هذا البلد من أن يكون، إلى حد كبير، مفتوحا. فأمواج الكلمات المنفلتة حقا التى حرص دادا والسوريالية أن يفتحوا لها الأبواب، ليست، على كل حال، من التى تنسحب دونما أثر. إنها تنفذ في غير تعجل وبشكل مؤكد إلى المدن الصغيرة البلهاء للأدب الذى ما يزال يُعلَّم، وخالطة، دون جهد هنا بين الأحياء الرفيعة والوضيعة، تكتسح بتمهل عددا كبيرا من الأبراج. وبحجة أن الشعر هو إلى الآن، وبفعلنا، كل ما زلزل جديا، لا يحترز السكان كثيرا، ويبنون هنا وهناك حواجز لا قيمة لها. ويتظاهر الكل بعدم الانتباه إلى أن الآلية المنطقية للجملة تبدو، وحدها، أشد فأشد عجزا، عند الإنسان، عن إثارة الرعشة الانفعالية التى تعطى ، حقيقة، بعض القيمة لحياته. على أنه الآن، أخذ يحيط نفسه بنتائج هذه الفاعلية التلقائية أو **الأكثر** تلقائية، المباشرة أو **الأكثر** مباشرة، كتلك التى توفرها له السوريالية، بتزايد، فى أشكال كتب ولوحات وأفلام، كان،

فى البدء، ينظر إليها ذاهلا، ثم راح يتكل عليها فى تردد متضائل كيما تقلب طريقة إحساسه. نعم: إن هذا الإنسان ليس، إلى الآن، **كل** إنسان، وينبغى أن نعطيه «الوقت» كى يصيره. لكن انظروا إلى أى درجة من النفاذ الرائع والشاغف بلغت بعض أعمال كلها حديثة، ذات تلك التى أقل ما يمكن وصفها به هو أن جوها جد وخيم،: بودلير، رامبو (رغم التحفظات التى أبديتها)، هويسمان، لوتريامون، إذا اقتصرنا على الشعر. ولا نخشى أن نتخذ هذه الوخامة قانونا لنا. إذ يجب أن لا يبقى متسع للقول بأننا لم نفعل كل شئ لمحو هذا الوهم السخيف بالسعادة **وبالتفاهم** الذى سيكون من فخر القرن التاسع عشر أنه تشكك فيه. نعم، إننا لم نتوقف أن نحب بتعصب تلك الأشعة الشمسية المشحونة بالفوح العفن. لكن، فى الوقت الذى تتهيأ فيه السلطات العامة فى فرنسا للاحتفال، فى مهرجانات تدعو إلى الهزء، بالعيد المئوى للرومنسية، نقول نحن إن هذه الرومنسية التى لا نرى بأساً، تاريخيا، فى أن تعتبر اليوم لها ذيلا، لكن ذيلا فائق القدرة على التمسك، بروحها ذاتها فى عام ١٩٣٠، تقوم بتمامها على نفى هذه السلطات وهذه الاحتفالات، وعلى أن بلوغ المائة بالنسبة إليها هو الشباب، وعلى أن ما سمى، خطأ، بعهدها الزاهر، لم يعد يعتبر غير استهلال[1] مخلوق بدأ فقط يعرِّف برغبته من خلالنا، ويريد، إذا سلم بأن ماجرى التفكير به قبله - كلاسيكيا - هو الخير، أن يكون هو، بما لا يقبل الجدل، **كل الشر**.

مهما كان تطور السوريالية فى الميدان السياسى، ومهما كان الأمر ملحا علينا أن لا نعتمد، لتحرير الإنسان، **الشرط الأول للذهن**، إلا على الثورة البروليتارية، أستطيع القول إننا لم نجد سببا

١ - الاستهلال: بكاء الطفل ساعة يولد.

مقبولا للرجوع عن وسائل التعبير الخاصة بنا والتى تحققنا، باستعمالها، إنها تخدمنا جيدا. وليدن من يشاء، صورة معينة، خالصة السوريالية، حدث أن أوردتها فى سياق مقدمة، عرضا، فلن يكون ذلك تصفية للصور. «هذه العائلة هى عش من الكلاب» (رامبو). وحين نستمر فى السخرية من هذه الجملة المفصولة عن سياقها، لا نكون نجحنا إلا فى تجميع كثير من الجهلة. لن نكون توصلنا إلى تأمين الثقة، على حساب أساليبنا، لأساليب الطبيعيين ـ الحديثين، أى إلى الاستهانة بكل ما شكل، منذ المذهب الطبيعى، أهم فتوحات الفكر. وأنكر هنا جوابى، فى شهر أيلول من عام ١٩٢٨، على سؤالين طرحا على هما: **١ ـ هل تعتقد أن الإنتاج الفنى والأدبى ظاهرة فردية محض؟ ألا تظن أنه يمكن أو يجب أن يكون انعكاسا للتيارات الكبرى التى تعين التطور الاقتصادى والاجتماعى للإنسانية؟**

٢ ـ هل تؤمن بوجود أدب وفن يعبران عن طموحات الطبقة العاملة؟ من هم فى رأيك ممثلوهما الرئيسيون؟

١

لا مراء فى أن شأن الإنتاج الفنى والأدبى هو شأن كل ظاهرة فكرية، بمعنى أنه لا يجوز، فى صدده، طرح أية قضية أخرى غير قضية **سلطان الذهن**، أى أن من المستحيل الإجابة على سؤالكم بالتأكيد أو بالنفى، وأن الموقف الفلسفى الوحيد الواجب التزامه فى مثل هذه الحالة هو الاستفادة «من التناقض (القائم) بين طبيعة الفكرة البشرية التى نتصورها مطلقة وبين واقع هذه الفكرة عند عدد من الكائنات الإنسانية الفردية ذات الفكرة المحدودة: إنه تناقض لا

يمكن أن يحل إلا فى التقدم اللا نهائى فى سلسلة اللا نهائية، عمليا على الأقل، للأجيال الإنسانية المتعاقبة. وفى هذا المفهوم تملك الفكرة السلطان ولا تملكه، واتساعها للمعرفة غير محدود قدر ما هو محدود. إنها ذات سلطان وغير محدودة بطبيعتها وبميلها الكامنين، وبالنسبة لغايتها النهائية فى التاريخ، لكن بلا سلطان ومحدودة فى كل من تحقيقاتها، وفى أى من حالاتها». (انغلز - **الأخلاق والحق. الحقائق الأبدية**). إن هذه الفكرة، فى الميدان الذى تسألنى تأمل تعبير خاص معين، لا يمكن إلا أن تترجح بين وعى استقلالها الذاتى الكامل وبين وعيها تبعيتها الوثيقة. وفى زماننا ، يبدو لى الإنتاج الفنى والأدبى كله مضحّى به لحاجة هذه المأساة، بعد قرن من الشعر والفلسفة المحزنين حقا (هيغل، فويرباخ، ماركس، لوتريامون، رامبو، جارى، فرويد، شابلان، تروتسكى) أن يُختَتَما. والقول، فى مثل هذه الظروف، أن هذا الإنتاج يمكن أو يجب أن يكون انعكاسا للتيارات الكبرى المحددة التصور الاقتصادى والاجتماعى للإنسانية سيكون حكما أقرب إلى العامية يتضمن الاعتراف الظرفى البحت بالفكرة وإغفال ماهيتها العميقة التى هى، معا، غير مشروطة ومشروطة، خيالية وواقعية، تجد غايتها فى ذاتها ولا تتوق إلا أن تخدم... إلخ...

٢

لا أؤمن بإمكان وجود، فى الحاضر، لأدب أو لفن، يعبر عن أمانى الطبقة العاملة. وأن أرفض الإيمان بذلك، فلكون كاتب أو فنان الفترة قبل الثورية، ذى النشأة البورجوازية حتما، غير مؤهل، تعريفا، للتعبير عنها. لا أنفى إمكان أن يتخذ فكرة عنها، وفى هذه الشروط الأخلاقية المؤمنة استثناء، أن يكون قادراً على تصور نسبية كل

قضية قياسا إلى القضية البروليتارية. وأنى أجعل منهما عنده مسألة إحساس وشرف. لكنه لن يخلص بذلك من التشكك الملحوظ، الملازم لوسائل التعبير التى هى وسائله، فى ذاته ولذاته، الذى يجبره أن ينظر من زاوية خاصة جدا إلى العمل الذى يعتزم إنجازه. هذا العمل، كى يعيش، يتطلب أن يكون **ذا مكان معين** بين أعمال أخرى موجودة قبله، ويتوجب عليه، بدوره، أن يفتتح طريقا. ومع حفظ الفارق، سيكون هدرا سواء أن نقوم ضد تأكيد حتمية شعرية ليس لها قوانين تُعلَن أو ضد المادية الجدلية. وأظل، من جهتى مقتنعا بأن نوعى التطور متماثلان تماما، وأن فيهما، أيضا، شيئا مشتركا، هو أنهما **لا يعفيان**. وكما أن توقعات ماركس، فيما يخص جميع الأحداث الخارجية تقريبا التى جرت من حين وفاته إلى يومنا قد أثبتت صحتها، كذلك لا أرى ما يمكن أن يدحض قولا واحدا للوترياموں متعلقا بالأحداث التى لا تتناول إلا الفكر. وفى المقابل أجد بذات زيف كل مشروع تفسير اجتماعى غير تفسير ماركس، كل محاولة تبرير أو تمجيد لأدب أو لفن يسميان «بروليتاريين»، فى زمن لا يسمح لأحد بالانتساب إلى الثقافة البروليتارية، لسبب وجيه هو أن هذه الثقافة لم يستطع تحقيقها إلى الآن، حتى فى النظام البروليتارى. «إن النظريات الغامضة حول الثقافة البروليتارية، المتصورة بمماثلتها أو بمخالفتها للثقافة البورجوازية، ناشئة عن مقارنات بين البروليتارية والبورجوازية لا شأن للفكر الناقد مطلقا بها... ومن المؤكد أن سيجئ وقت، فى نمو المجتمع الجديد يكون فيه للاقتصاد والثقافة والفن ملء حرية التحرك، والتقدم. ـ لكننا لا نملك فى هذه المواضيع غير تخمينات خيالية. وفى مجتمع يكون قد تخلص

من عبء الخبز اليومى المبهظ، حيث المغاسل البلدية تغسل جيدا ملابس الجميع الجيدة، حيث الأطفال - كل الأطفال - الجيدو التغذية، الجيدو الصحة والمبهجون يمتصون عناصر العلم والفن كالهواء وكضياء الشمس، حيث لا يبقى من «أفواه غير نافعة»، حيث الأنانية المتحررة من الإنسان - وهى قوة هائلة - لا تسعى إلا إلى معرفة وتغيير وتحسين الكون - فى هذا المجتمع، لا يمكن لحركية الثقافة أن تقارن بأى شئ نعرفه فى الماضى. لكننا لن نتوصل إليه إلا بانتقال طويل مرير يكاد يكون كله أمامنا» (تروتسكى: **ثورة وثقافة**، مجلة «الجلاء» عدد ١ تشرين الثانى ١٩٢٣). إن هذه الأقوال الرائعة تقضى، فى ظنى، نهائيا على ادعاء بعض المخادعين وبعض الشطار الذين يزعمون أنفسهم اليوم فى فرنسا، فى ظل ديكتاتورية بوانكاريه، كتابا وفنانين بروليتاريين، بحجة أن كل شئ فى إنتاجهم ليس إلا قباحة وبؤسا، وكذلك على ادعاء أولئك الذين لا يتصورون شيئا خارج الخبر الصحفى القذر والنصب المأتمى والرسم الإعدادى لسجن الأشغال الشاقة، والذين لا يعرفون سوى التلويح أمام أعيننا بطيف زولا، زولا الذى «يتحرونه» دون تملك أن يختلسوا منه شيئا، والذين، وهم يستغلون هنا كل ما يحيا ويتألم ويشتكى ويتأمل، يعارضون كل بحث جاد ويهيؤون استحالة كل اكتشاف، وهم، تحت ستار إعطاء ما يعرفونه غير مقبول: الإدراك الفورى والعمومى لكل ما يخلق، إلى جانب كونهم أشد الناس احتقارا للفكر، ألد المضادين للثورة.

من المؤسف، كما بدأت أقول آنفا، أن جهودا أكثر تنظيما ومتابعة، كما لا تزال تطالب السوريالية إلى الآن، لم تبذل فى طريق

الكتابة الآلية، مثلا، وحكايات الأحلام. وبرغم الإصرار الذى أبديناه لإدخال نصوص من هذا النوع فى المنشورات السوريالية والمكان البارز الذى تشغله فى بعض الأعمال، لابد من الاعتراف بأن الاهتمام بها لا يستمر طويلا أحيانا أو أنها تعتبر «كعرض بلاغة[1]» وظهور مثال نموذجى مقرر غير منازع فى داخل هذه النصوص، أمر مضر، قطعا، بنوع الاهتداء الذى أردنا تحقيقه بها. ويقع الخطأ على الإهمال البالغ عند مؤلفيها الذين اكتفوا بأن تركوا القلم يجرى على الورق دون أية ملاحظة لما يحدث فى داخلهم - مع أن هذا الازدواج أسهل إدراكا وأشد استهواء من ازدواج الكتابة المتمعنة - أو بأن جمعوا، بطريقة كيفية، عناصر حلمية تهدف إلى إظهار طرافتهم أكثر منها إلى التمكين من الاطلاع المفيد على ما فى ضميرهم. إن مثل هذا الاضطراب من شأنه طبعا أن يحرمنا جميع الكسب الذى قد نجنيه من مثل هذه العمليات. فالقيمة الكبرى التى توفرها للسوريالية، تقوم، فى الواقع، على أنها قد تكشف لنا اتساعات منطقية خاصة، وعلى الوجه الأدق، تلك التى لا تعمل فيها القدرة المنطقية الممارسة حصرا فى حالة الوعى. ماذا أقول! إن الأمر لا يقتصر على أن هذه المساحات لا تزال غير مستكشفة، بل إننا لانزال على أدنى معرفة ممكنة بمصدر ذلك **الصوت** الذى باستطاعة كل واحد أن يسمعه، والذى يحدثنا، بالطريقة الأغرب، عن غير ما نحسب أننا نفكر به، ويتخذ أحيانا لهجة زمينة إذ نكون فى أنشط مرحنا أو يروى لنا ترهات إذ نحن فى شقائنا. وليس فعله هذا مجرد حب فى المناقضة... وفيما أنا جالس إلى مكتبى، يحاورنى فى رجل خرج من حفرة دون أن يعلمنى، طبعا، من هو، فإن ألحّ يصفه لى بدقة: كلا،

١ - عرض البلاغة: مقاطع أدبية لا شأن لها سوى أن تظهر قدرة مؤلفها الكتابية.

فى الحقيقة لا أعرف ذلك الرجل. وإلى أن أسجل هذا، إذا بالرجل قد اختفى. **وأستمع**، إنى بعيد عن «البيان الثانى للسوريالية»... لا ينبغى تعديد الأمثلة: إنه هو الذى يتكلم هكذا... لأن الأمصلة تشرب... عفوا، فأنا لا أفهم أيضا. حبذا لو أعرف إلى أى حد يجوز له أن يؤنبنى: لا ينبغى تعديد الأمثلة (والكل يحلم، منذ «أناشيد مالدورور»، أى لطف رائع يمكن أن تحوى مداخلاته الناقدة)... وحين يجيبنى أن الأمثلة تشرب(؟) هل هى طريقة للقوة التى تستعيره أن تتوارى؟ إذن لماذا تتوارى؟ هل كانت ستوضح كنهها حين سارعت إلى مباغتتها دون إدراكها؟ إن مثل هذه القضية لا تهم السوريالية فحسب. وما من أحد يفعل، حين يعبر، أفضل من قبول احتمال توفيق بالغ الغموض بين ما كان يعرف أن عليه قوله حول الموضوع، وبين ما لم يكن يعرف أنه سيقوله ومع ذلك قاله. إن أشد الأذهان دقة عاجز عن الاستغناء عن هذا العون الذى هو، فى الواقع غير مرغوب فيه. وهناك، بالتأكيد نسف للفكرة فى قلب الجملة التى تنطق بها، حتى لو ظلت الجملة نقية من كل تصرف لطيف بمعناها. وقد أرادت الدادائية، بشكل خاص جذب الانتباه إلى هذا النسف. ونعلم أن السوريالية عنيت، بدعوتها إلى الآلية، أن تصون من هذا النسف أية سفينة: شيئا ما كسفينة شبح (هذه الصورة التى ظن إمكان استعمالها ضدى، تبدو لى جيدة رغم شدة ابتذالها، وها أنا أستعيدها).

علينا، كما قلت، إذن، أن نحاول تبينا أوضح فأوضح لما يحاك، على غير علم من الإنسان، فى أعماق ذهنه، ولو بدأ يلومنا على الزوبعة التى فيه. وحاشا أن نكون نبغى من كل هذا إنقاص سهم ما يقبل الفرز، وليس أبعد عنا من التحول إلى الدراسة العلمية «للعقد

النفسية». صحيح أن السوريالية، التى رأيناها، اجتماعيا، تتبنى، طوعا، الصيغة الماركسية، لا تستهين بالنقد الفرويدى للأفكار: بل على العكس تعتبر هذا النقد الأول والأوحد المسبب حقيقة. وإذا كان يستحيل عليها أن تشاهد، دون اكتراث، المناقشة الدائرة أمام عينيها بين الممثلين الأكفاء لمختلف الاتجاهات النفسانية - على نحو ما هى مسافة، يوما فيوما، أن تنظر، باهتمام بالغ، الصراع الدائر على رأس «الدولية» فليس لها أن تتدخل فى جدال مذهبى لا يمكن، فى رأيها، أن يتمادى، مفيدا، إلا بين ممارسين، وما هو المجال الذى نقصد أن تستغل فيه حاصل تجاربها الخاصة. لكن، بما أن الذين تجمعهم تدعوهم طبيعتهم إلى النظر، جديا، فى هذه الفرضية الفرويدية التى تتناول القسم الأعظم من تحركهم كبشر - الحرص على الخلق أو على الهدم فنيا - وأعنى تعريف ظاهرة «التصعيد»، فإن السوريالية تطالب، جوهريا، هؤلاء بأن يباشروا مهمتهم بوعى جديد، وبأن يعوضوا بملاحظة ذاتية، لها قيمة استثنائية فى ظرفهم، عما يخلفه من نقض استقصاء الحالات النفسية المسماة «فنية» من قبل أناس ليسوا فنانين بل أطباء. ومن جهة ثانية، وبالطريق المعاكس للذى رأيناهم لتونا يتبعون، تلح على الذين يملكون، بالمعنى الفرويدى «القدرة الثمينة» التى نتحدث عنها، أن يدرسوا بدقة، على هذا الضوء، آلية الإلهام البالغة التعقيد، ومنذ لحظة انقطاعهم عن اعتبار هذا الإلهام قدسية لا يجوز مسها، ولثقتهم التامة بخاصته العجيبة، ألا يفكروا بغير إسقاط قيوده الأخيرة، بل - الأمر الذى ما كان يجسر على تصوره أحد - وإخضاعه لإرادتهم. لا داعى لخلق تدقيق مربك فى هذا الصدد. فالكل يعرف جيدا ما هو الإلهام ولا سبيل إلى

أخطائه. فهو الذى زود حاجات التعبير السامية فى كل زمان ومكان. ويقال، فى العادة إنه كائن أو غير كائن، وإذا لم يكن، فإن شيئاً مما يصدر عن الحذق الإنسانى المفسد بالمصلحة وبالحيلة المنطقية وبالتمكن المكتسب من الجهد، لا يمكن أن يسلينا غيابه. إننا نتعرف عليه، دون عناء، فى ذلك التملك التام لذهننا، الذى، من بعيد لبعيد، يمنع أن نكون، فى كل مسألة تطرح، أسيرى حل معقول بدلا من حل معقول آخر، وفى شبه انقطاع التيار ذاك الذى يحدثه بين فكرة معينة ونقيضتها (المكتوبة، مثلا). وتماما كما فى الحقل الفيزيائى يحدث انقطاع التيار حين يكون «قطبا» الآلة مربوطين بواصل ذى مقاومة بالغة الضعف أو معدومة. وقد عملت السوريالية المستحيل، فى الشعر وفى التصوير، على إكثار انقطاعات التيار. ولا يتوقف، ولن يتوقف ذلك أبدا على شئ قدر توقفه على إحداث صنعى لتلك اللحظة الفكرية حيث يكون الإنسان نهبا لانفعال خاص، ثم يستولى عليه، فجأة، هذا «الأقوى منه» الذى يلقى به، رغما عنه، فى دنيا الخلود. لو أنه كان على وعى ويقظة، لخرج من هذا المأزق مملوءا رعبا. والمهم أن لاتترك له حرية ذلك وأن يستمر يكتب طوال مدة الرنين الغامض. فحين لا يعود يملك نفسه، عندئذ يصبح ملكنا. إن ثمار النشاط النفسانى هذه، الملهاة، قدر المستطاع، عن قصد المعنى، المراحة، قدر المستطاع من خواطر المسئولية المتهيئة دائما لتعمل ككابح، المستقل قدر المتسطاع عن كل ما ليس **الحياة الانفعالية للذهن**، إن هذه الثمار التى هى الكتابة الالية وأحاديث =

١ ـ يقول فرويد: «كلما تعمقنا فى دراسة تولد الأمراض العصبية، كلما تبينا الصلات التى تربطها بالظواهر الأخرى لحياة الإنسان النفسية، حتى بتلك التى نعلق عليها أعظم أهمية، ونلمس، كم الواقع، رغم ادعاءاتنا، قليل الإرضاء لنا، لذا، وبضغط من كبتنا الداخلى، نباشر فى باطننا حياة كاملة من الاخيلة التى، بتحقيقها رغائبنا، تعوض عن نواقص الحياة الفعلية. =

الأحلام (١)، تتميز، فى وقت معا، بأنها الوحيدة التى توفر مواد تقدير رفيقة للنقد الذى يُظهر، فى الميدان الفنى، حيرة غريبة، وبأنها تمكن من إعادة تصنيف عام للقيم الشعرية، وبأنها تزود بمفتاح قادر أن

= والإنسان النشيط والناجح («الناجح»: إنى أدع، طبعا، لفرويد مسئولية هذا اللفظ). هو الذى يتوصل إلى تحويل خواطر الرغبة إلى حقائق. وحين يفشل هذا التحويل، بفعل ظروف خارجية ضعف الفرد، ينصرف هذا عن الواقع وينعزل فى عالم حلمه الموحى بالسعادة. وفى حال المرض يبدل محتواه إلى أعراض. وفى بعض الظروف المواتية، يمكن أيضا إيجاد وسيلة أخرى للانتقال من أخيلته إلى الواقع بدلا من الابتعاد نهائيا عنها بالتراجع إلى ميدان الطفولة، أعنى أنه، إذا كان يملك الموهبة الفنية، البالغة الغموض نفسانيا، يستطيع، بدل الأعراض، أن يحول أحلامه إلى إبداعات فنية. وهكذا يتفادى مصير الإصابة العصبية ويجد، بهذا المنعرج، صلة مع الواقع.

١ - إذا رأيت وجوبا لمثل هذا التركيز على قيمة هاتين العمليتين، فما ذلك لأنهما تؤلفان، عندى، وحدهما، العلاج الفكرى الشافى من كل الأدواء، بل لأنهما، لدى التبصر فيهما، أقل من كل ما سواهما إنساحا للالتباس أو للخداع، ولأنهما أيضا، أفضل ما وجد لإعطاء الإنسان إدراكا صحيحا لإمكاناته. ومن المسلم به أن الشروط التى تلزمنا بها الحياة تعارض انقطاع ممارسة فكرية فى مثل هذا الظاهر الطوعى. والذى عالجوها دون تحفظ، مهما يكن الدرك الذى انحطوا بعدئذ إليه، ما كانوا، فى يوم، ليقذفون عبثا هكذا فى غمار عالم سحرى باطن. ومقارنة بهذا العالم السحرى، فإن العودة إلى أى نشاط فكرى متعمد، حتى لو وافقت هوى أغلب معاصريهم، لن تعرض على أعينهم إلا منظرا تافها.

هذه الوسائل، المباشرة جدا، التى أكرر أنها فى متناول الجميع، والتى نثابر على جعلها مقدمة، طالما أن الغاية الأساسية لم تعد إنتاج أعمال فنية، بل توضيح الجزء غير المكشوف والقابل الكشف، مع ذلك، من ذاتنا، حيث كل جمال وكل حب وكل ميزة لا نكاد نعرفها فينا تضئ فى أعظم سطوع. ويبدو، خاصة، أنه يمكن، فى الوقت الحاضر، انتظار الكثير من بعض أساليب الخيبة الصرف التى سيكون من شأن تطبيقها على الفن وعلى الحياة تركيز الانتباه لا على الواقعى أو على الخيالى، بل، إن جاز التعبير، على ظهر الواقعى. وهناك من يحلو له تصور روايات لا يمكن أن تنتهى كما توجد مسائل باقية دون حل. فحتى الرواية التى أشخاصها المعرفون، بإسهاب، ببعض صفات فردية دقيقة، سيعملون بطريقة متوقعة كلها لأجل نتيجة غير متوقعة، وبالعكس، تلك الرواية الأخرى حيث يعدل علم النفس عن لهوجه واجباته الكبرى العقيمة على حساب الناس والأحداث كى يثبت، حقا بين عدستى مكبر ويكشف بنور العوارض، والرواية الثالثة التى يتوقف ظاهر المسرح، للمرة الأولى، عن أن يحجب عنا الحياة الرمزية الغريبة التى لا تحياها الأشياء، حتى أوضحها وآلفها، فى الأحلام وحدها، وتلك الرابعة بالذات التى سيكون بناؤها بسيطا جدا لكن حيث سيعالج مشهد الاختطاف بكلمات الإعياء وستوصف العاصفة بدقة لكن فى بهجة، إلخ؟ إن من يرى أن الوقت حان للانتهاء من السخافات «الواقعية» المثيرة لن يصعب عليه أن يعدد، بمفرده، هذه الاقتراحات.

يفتح إلى مالا نهاية ذلك الصندوق المتعدد الأعماق الذى يسمى الإنسانَ، ويثنى ذلك الإنسان عن أن يعود أدراجه، لأسباب سلامة فحسب، حين يصطدم فى الظلام بالأبواب «ما هو وراء»، والواقع، والعقل، والنبوغ، والحب، المغلقة من الخارج. وسيأتى يوم لن يسمح فيه بالاستهانة بهذه البراهين المحسوسة على حياة غير التى نحسب أننا نحياها. وسيستغرب حينذاك من أننا، وقد ضيقنا الحصار على الحقيقة إلى هذا الحد، عنينا بتهيئة عذر تغيب، أدبى أو غيره، بدلا من السعى لبلوغ هذه الحقيقة بإلقاء أنفسنا فى الماء دون أن نعرف السباحة أو بإلقاء أنفسنا بأنفسنا فى النار دون أن تؤمن بخرافة الطائر الذى ينبعث حيا، بعد احتراقه، من رماده.

أعيد القول إن تبعة ذلك لن تترتب علينا جميعا فى غير تمييز. وحين أعالج موضوع عدم الدقة والصفاء الذى تلاشت فيه، بعض الشئ، هذه المساعى الابتدائية، أعتزم بشدة إراءة ما هو فاسد، حاليا، فيما يعد خلال أعمال كثيرة إلى الآن، التعبير الصحيح للسوريالية. إنى أنفى، فى قسم كبير منها، مرادفة هذا التعبير وهذه الفكرة، وسيقع على براءة، على غضب بعض رجال سيأتون، تخليص السوريالية من الذى لابد أن يكون بقى حيا، وإرجاعها، بانقلاب كبير، إلى غايتها الخاصة، وإلى ذلك الحين، سيكفينا أصدقائي وأنا، أن نقوم، بدفعة كتف كما أفعل هنا، ميل هيكلها المتقل على غير فائدة بالورود، لكن الشامخ أبدا. والحد الضئيل جدا الذى تفلت به السوريالية، بعد الآن، منا، ليس بالذى يجعلنا نخشى أن تخدم آخرين ضدنا. من المؤسف، طبعا، أن فينيى كان بتلك الدرجة من الغرور والغباوة، وأن غوتييه قد ضعف إدراكه فى شيخوخته، لكن لا

أسف على وجود الرومنسية. ويحزننا تذكر أن مالارميه كان بورجوازيا صغيرا حقيقيا، وأن مورياسا وجد أناساً يؤمنون بقيمته، لكن، إذا كانت الرمزية تعتبر شيئا فلن نحزن لوجود الرمزية، إلى آخر ذلك. وبالطريقة ذاتها لا أحسب ضررا خطيرا للسوريالية أن تسجل فقدان فردية أو أخرى، حتى لامعة، وبالأخص، حين تظهر هذه الفردية، التى يثبت فعلها هذا أنها لم تعد كاملة، بكل سلوكها رغبتها فى العودة إلى قاعدة الجماعة. وهكذا، بعد أن منحنا دسنوس مهلة لا تصدق ليرجع عما أملنا أن يكون زيفا عارضا لملكته النقدية، أرانا مضطرين إلى إبلاغه أننا، إذ لم نعد ننتظر منه البتة شيئا، لايسعنا غير أن نعفيه من كل عدم التزم به فى السابق نحونا. أنفذ هذه المهمة، طبعا، مع بعض أسى. فخلافا لرفاق طريقنا الأولين الذين لم نفكر أبدا بإبقائهم، لعب دسنوس فى السوريالية دورا ضروريا لا ينسى. ولعل هذه المناسبة أسوأ ما تكون اختيارا لجحود ذلك. (لكن شيريكو، أيضا، أليس كذلك،... ومع ذلك...).. إن كتبا مثل **حداد بحِداد. والحرية والحب. إنها حذاء الأميال السبعة. هذه الجملة: أرى نفسى**، وكل ما ستمنحه الأسطورة، الأقل جمالا من الواقع، لدسنوس، تقديرا لنشاط لم يُبذَل فى تأليف كتب وحسب، ستظل طويلا حجة فى صالح ما هو الآن فى موقف محاربته. ولتكف معرفة أن هذا قد حدث قبل أربع سنوات أو خمس. ومنذ ذاك، خطر لدسنوس، الذى أضرت به فى ميدانه الجديد الطغمات ذاتها التى استفزته وقتا والتى مايزال يجهل، كما يبدو، أنها كانت طغمات الظلام، خطر له، لتعسه، أن يعمل على الصعيد الواقعى، حيث لم يكن سوى رجل أشد وحدة وفقرا من غيره مثله كمثل الذين رأوا -

أقول رأوا - ما يخاف رؤيته الآخرون، والذين، بدلا من أن يعيشوا «ما هو»، غدوا محكومين أن يعيشوا «ما كان» و«ما سيكون». «لعدم الثقافة الفلسفية»، كما يعلن هو الآن، هازئا، عدم ثقافة فلسفية، كلا، بل ربما عدم **ذهنية فلسفية**، وأيضا، وبالتالى، عدم معرفة تفضيل شخصيته الباطنة على هذه أو تلك الشخصية فى التاريخ - يا للفكرة الصبيانية: أن يكون روبسبيير أو هوغو! وجميع الذين يعرفونه يعلمون أن هذا هو الذى منع دسنوس أن يكون دسنوس - ظن أنه يستطيع الانصراف، بلا ضير، إلى أحد أخطر النشاطات وهو النشاط الصحفى، وإهمال الرد، فى سبيله، ولصالحه هو، على بضعة مواقف اختيار حاسمة، نحو: مع أو ضد الماركسية مثلا، وأجهتها السوريالية فى طريقها. والآن وقد أظهر هذا الأسلوب الفردى فعاليته والتهم هذا النشاط عند دسنوس تماما نشاطه الأول، صرنا أمام استحالة أليمة أن لا نضع لهذا الأمر خاتمة. أقول إن هذا النشاط الذى تجاوز فى الوقت الحاضر الحدود التى كان، مع ذلك، غير قابل التسامح عمله ضمنها، (**باريس المساء، المساء، الشحرور**)، أصبح جديرا أن يتهم، بالدرجة الأولى بالتشويش. والمقال المعنون «مرتزقة الرأى» المقدم هدية استقبال بهيج لسلة القانورات الممتازة التى هى مجلة «بيفور»، فصيح فى ذاته بما يكفى: لفظ فيه دسنوس حكمه على نفسه، وبأى بيان! «**خصائل المحرر متعددة. هو، عموما، مستخدم دقيق نسبيا فى دوامه، كسلان إلى حد فى عمله**». ويلاحظ فيه إطراء للسيد ميرل ولكليمسو، وهذا الاعتراف الأشد بعثا للأسف من كل ما عداه: «**إن الصحيفة غول يقتل الذين يعيش بفضلهم**».

كيف نعجب، بعد ذلك، إذ نقرأ فى صحيفة مغمورة هذا الخبر

الصغير السخيف: «**روبير دسنوس، الشاعر السوريالى الذى كلفه مان راى بكتابة سيناريو فيلمه نجمة البحر» قام معى، فى العام الماضى برحلة إلى كوبا. هل تعلمون ماذا كان ينشدنى تحت الكواكب الاستوائية. روبير دسنوس؟ - شعر بتفاعيل - ت - فا - عى - ل. (ولكن لا تذيعوا ذلك فتسيؤوا سمعة هذا الشاعر اللطيف عند معجبيه) حين لم يكن هذا الشعر المفعل لجان راسين، كان لروبين دسنوس».**

وأحسب أن الشعر المفعل المذكور يتمشى مع النثر المنشور في بيفور. هذه المهزلة التى انقلبت إلى جد بدأت فى منافسة مع السيد أرنيست راينو فى الشعر المقلد إذ أجاز دسنوس لنفسه أن يختلق قصيدة بكاملها لرامبو كانت تنقصنا. وقد نشرت هذه القصيدة التافهة تحت عنوان «السهار. لارتور رامبو» فى صدر «**الحرية أو الحب**». ولا أظنها تضيف شيئا، شأن سائر مثيلاتها التى تبعت، إلى مجد دسنوس. ويقضى علينا الواجب، فى الصحيح، لا الاكتفاء بالتسليم مع المختصين بأن هذه الأبيات رديئة (ناشزة الإيقاع، مليئة بالحشو، فارغة من المعنى)، بل التصريح بأنها، من وجهة النظر السوريالية، تبرهن علي طموح مضحك وعلى عدم تفهم لا يعذر للغايات السياسية الحاضرة.

إن عدم التفهم هذا من قبل دسنوس وآخرين آخذ، إلى جانب ذلك، فى اكتساب مظهر تنشط يكفينى سوؤه مؤونة التعليق عليه. وحسبى منه كدليل مبين الفكرة بالغة الدناءة التى خطرت لهم أن يستعملوا عنوانا «لعلبة لهو» فى مونبارناس، هى ميدان مغامراتهم الليلية الحقيرة، الاسم الوحيد المطلق خلال العصور الذى يكشف

تحديا لكل ما هو سخيف وسافل ومقزز على الأرض: مالدورور.

«يبدو أن الأمور ليست مطلقا على ما يرام عند السورياليين. هذان السيدان، بروتون وأراغون أصبحا لا يطاقان على ما يقال لاتخاذهما مظهر صاحبي الأمر بل أكد لي أنهما يشبهان وكيلي ضابط معادين إلى الخدمة. إذن، هل تعرفون المشكلة؟ هناك من لا يحبون هذا. بالاختصار، يقال إنهم عدد من الأشخاص اتفقوا على تعميد حانة رقص جديدة في مونبارناس، باسم **مالدورور**. ويقولون هكذا إن **مالدورور** بالنسبة إلى سوريالي هو معادل ليسوع المسيح بالنسبة لنصراني وأن رؤية ذلك مستعملا كعنوان ملهى ستثير بالتأكيد استنكار السيدين بروتون وأراغون.» (صحيفة كانديد ـ ٩ كانون الثاني ١٩٣٠) ويطلعنا كاتب تلك السطور الذي زار المكان، دونما خبث وفي الأسلوب المهمل المناسب، على مشاهداته: «.... وفي تلك اللحظة وصل سوريالي. مما يزيد الزبائن واحدا. لكن أي زبون! السيد روبير دسنوس. وقد خيب الظن كثيرا حين لم يطلب غير عصير ليمون. أمام الدهشة العامة، فسر ذلك بصوت مزحوم، وبكلام عامي معناه:

ـ لا أستطيع أن أشرب غير هذا. إني لم أصح من السكر منذ يومين».

ياله من زري:

ليس أسهل على طبعا، لو أشاء، من استغلال هذا الواقع: أن أحدا لا يعتقد اليوم بإمكان مهاجمتي دون أن يعتبر «مهاجما» أيضا لوتريامون الذي لا يهاجم.

وسيدعني دسنوس وأصحابه أنقل هنا، بكل سكينة الجمل

الأساسية القليلة من جوابى على تحقيق، منذ زمن، **للقرص الأخضر** وهى جمل ليس لى أن أبدل شيئا فيها، وليس لهم إنكار أنها، فى حينها، نالت موافقتهم كلها:

«مهما تحاولوا، فإن قليلا جدا من الناس يستهدون اليوم بهذا الألق الذى لا ينسى: **مالدورور والأشعار** المغلقة من جديد، هذا الألق الذى ليس شرطاً أن يكون الإنسان عرفه كيما يجسر حقا على الظهور والوجود. إن رأى الآخرين لا يهم. لوتريامون إنسان، شاعر، نبى حتى: كفى هراء! والضرورة الأدبية المزعومة التى تلجؤون إليها لن تتوصل إلى تحويل «الذهن» عن هذا **الإنذار**، الأخطر الذى كان أبدا، وعن ما بقى وسيبقى رفض كل اجتماعية وكل إكراه إنسانى، وإلى صنع قيمة تبادل ثمينة وعنصر من عناصر التقدم. إن الأدب والفلسفة المعاصرين يتخبطان دون جدوى كيلا يعيراه أهمية تكشف فيها إدانتهما. والعالم كله هو الذى سيتحمل، دون أن يدرى، نتائج ذلك. وليس لغير ذلك يتوجب على الأنفذ بصيرة والأخلص نقاء بيننا الالتزام، عند الحاجة، **بأن يموتوا وهم يناهضون**. الحرية يا سيدى...»».

إن فى رفض فى مثل بذاءة جميع كلمة **مالدورور** مع وجود مشرب قذر ما يحجزنى منذ الآن عن أن أبدى أى رأى فيما سيكتب دسنوس. ولنقتصر، شعريا، على هذا الشطط من الرباعيات[1]. هذا إذن ما يؤدى إليه الاستعمال المفرط للموهبة الكلامية حين يقصد منها تغطية انعدام مطلق للفكرة وإعادة الصلة مع التقليد السخيف، تقليد الشاعر «بين السحاب»: فى الوقت الذى انقطع فيه هذا التقليد، وبرغم ما يظن بعض الشعارير المتخلفين، انقطع نهائيا، والذى أخلى

١ - ينظر: أرواح وأموال- منشورات المجلة الفرنسية الجديدة ١٩٣٠ - الصفحات الأخيرة.

فيه المجال للجهود المشتركة لهؤلاء الرجال الذين نقدمهم لأنهم أرادوا، حقا أن **يقولوا** شيئا: بوريل، ونيرفال أوريليا، وبودلير، ولوتريامون، ورامبو عامى ١٨٧٤ - ١٨٧٥، هويسمان الأول، وأبولينير «القصائد - المحاورات» و«الأى شيئيات». ويعز علينا أن يعمد أحد من اعتقدناهم منا إلى محاولة خداعنا، ظاهرياً، «بالمركب الثمل»، أو أنامتنا من جديد على صوت «الأدوار» الرتيبة الإيقاع. على أن القضية الشعرية لم تعد، فى السنوات الأخيرة، تطرح من الزاوية الشكلية، أساسا، والواقع أننا يهمنا أن نقدر القيمة التهديمية لعمل كعمل أراغون وكروفيل وايلوار وبيريه آخذين فى الاعتبار له ضوءه الخاص، وما على ذلك الضوء، يعيده غير الممكن للممكن، ويسرقه المسموح من الممنوع، أكثر مما أن نعرف لماذا، هذا الكاتب أو ذاك يستتنسب هنا وهناك أن ينتقل إلى سطر جديد. وأولى، أيضا أن لا يأتى أحد ليحدثنا عن تقطيع البيت: لماذا لا يوجد، أيضا، بيننا أنصار لأصول جديدة «للشعر الحر» ولا ينبش أحد جثة روبير دوسوزا؟ إن دسنوس يمزح، ولابد: فلسنا على استعداد لطمأنة العالم بهذه السهولة.

كل يوم يأتينا، فى مجال الثقة والأمل الموضوعين، بإفراط من السماحة فى الناس، عدا استثناءات نادرة، بخيبة جديدة علينا أن نعترف بشجاعة بها، إن لم يكن لشئ، فكاحتياط، صحى للذهن، وكدين جديد نسجله على حساب الحياة المبهظ. لم يكن من خيار لدوشان أن يتخلى عن اللعبة التى كان يلعبها قرب الحرب، ليباشر **لعبة شطرنج**، لا نهاية لها، ربما تعطى فكرة غريبة عن ذهن يأنف أن **يخدم**، لكن أيضا. دائما (هرار) المقيت هذا - يبدو نهب ارتياب

عظيم، فى حدود رفضه أن يوضح لماذا. وأقل تسامحا أيضا ينبغى أن نكون نحو السيد ريبمون - دسينى لاتباعه «**امبراطور الصين**» بسلسلة من روايات بوليسية هزيلة بغيضة، حتي وإن بتوقيع: دسينى، فى أحقر المجلات السينمائية، ويزعجنى، أخيرا، أن أحسب بيكابيا ربما يكون على وشك التخلى عن موقف تحد وغضب خالصين تقريبا، كنا، نحن ذاتنا، نجد صعوبة فى مؤالفته مع موقفنا لكن نراه دائما، فى الشعر والتصوير على الأقل، مبررا: «**أن يجتهد فى العمل، وأن تودع فيه «المهنة»[1] الفائقة، الرفيعة، التى لم تمنع أبدا الإلهام الشعرى، والتى، وحدها، تتيح لعمل فنى أن يعبر العصور وأن يظل جديدا... ينبغى «الانتباه»... يجب رص الصفوف وعدم محاولة الإساءة بين «ذوى ضمير»... يجب تشجيع التفتح الفكرى**» إلخ... حتى رحمة بيبفور التى نشرت فيها هذه السطور، هل هو بيكابيا الذى نعرفه، الذى يتكلم هكذا؟

بعد الفراغ من هذا، تأخذنا، فى المقابل، رغبة فى إنصاف رجل انقطعت صلتنا به سنين طويلة، فنقول له إن تعبير فكره مايزال يستلفتنا وأن شواغله، حسب ما لا نزال نقرؤه له، ليست غريبة عنا، وأن هناك، والحالة هذه، مجالا للاعتقاد بأن أسباب اختلافنا، لم تكن بالخطورة التى ظننا. ومن المحتمل، ولاشك، أن تزارا الذى، فى مطلع عام ١٩٢٢، حين تصفية «الدادائية» **كحركة**، لم يعد على اتفاق معنا حول الوسائل العملية لاستئناف نشاطنا المشترك، كان ضحية الشبهات المفرطة التى راودتنا إذ ذاك حياله، - وقد راودته، كذلك شبهات مفرطة ضدنا -، وأنه، لدى العرض الأول، الذى لا ينسى، «**للقلب الملتحى**»، كفى، لجعل قطيعتنا تأخذ شكلها المعروف، أن

١ - المهنة: الحذق فى العمل والخدمة.

تصدر منه تلك الحركة المشئومة التى يعلن (وقد علمت ذلك حديثا) أننا أخطأنا تفسيرها (وينبغى الاعتراف بأن إثارة أعظم البلبلة كانت دائما الغاية الأولى للتمثيليات **الدادائية**، وبأن غرض منظميها الأكبر كان إيصال سوء التفاهم بين المسرح والصالة إلى المنتهى. لكن وجهات نظرنا، ذلك المساء، لم تكن ذاتها). وبكل رضى أقبل، من طرفى، الأخذ بهذه الرواية، ولا أرى، من بعد، أى سبب آخر كيلا ألح على جميع من كانت لهم صلة بهذه الحوادث، أن ينسوها. أن موقف تزارا الفكرى لم ينقطع أن يظل واضحا، وفى تقديرى أن من التحيز أن لا نشهد له بذلك علنا. وفيما يخصنا، أصدقائى وأنا، نحب أن نبين بهذا التقارب أن ما يقود، فى جميع الظروف، سلوكنا ليس الرغبة المتعصبة فى ترجيح وجهة نظرنا التى لا نطلب، حتى، إلى تزارا تبنيها بتمامها، بل التماس الاعتراف بالقيمة ـ ما نعتبره **القيمة** ـ التى لها. إننا نؤمن بفعالية شعر تزارا، ويمكن القول إننا نجده الوحيد، خارج السوريالية، الذى فى موقعه الصحيح. وحين أتحدث عن فعاليته أعنى أنه مؤثر فى المجال الأوسع، وأنه خطوة بارزة اليوم فى اتجاه الخلاص الإنسانى. وحين أقول إنه فى موقعه الصحيح، سيفهم أنى أعارض به كل ما يمكن أن يكون ، على السواء، من أمس القريب أو البعيد: وفى الصف الأول للأشياء التى لم يجعلها لوتريامون مستحيلة تماما، يوجد شعر تزارا. وقصيدته «**حول طيورنا**» التى ظهرت حديثا، لن يحول، لحسن الحظ، صمت الصحافة دون أن تبث أضرارها.

لسنا نرى حاجة لحث تزارا على تمالك نفسه لكننا نحثه فقط على جعل نشاطه أشد ظهورا مما كان عليه فى السنوات الأخيرة. ولعلمنا

برغبته، هو ذاته، ضم جهوده إلى جهودنا، كما فى الماضى نذكره، بما كان يعلنه كتابه: «للتفتيش عن رجال، لا أكثر». وليتذكر، فى هذا الصدد، أننا كنا مثله. فلا ندع أحداً يعتقد أننا وجدنا بعضا ثم أضعفنا بعضا.

وأتلمس حولنا من أبادله أيضا، إن أمكن، علامة اتفاق، لكن كلا: لا شئ. ربما كان مناسبا أن أنبه دومال الذى يفتح فى « **المخاطرة العظمى**» تحقيقا مثيرا حول الشيطان إلى أننا ما كان ليحجزنا شئ عن إقرار قسم كبير من التصريحات التى يوقعها وحده أو مع لوكونت، لولا أننا لم نزل تحت الوقع الشديد لضعفه الفاجع فى ظرف معين[1]. ومن المؤسف، من وجهة ثانية، أن يكون دومال قد تحاشى إلى الآن تحديد موقفه الشخصى، وأيضا موقف «المخاطرة العظمى»، لاشتراكه فى المسئولية فيها، نحو السوريالية. ولسنا نفهم لماذا ما يجعل رامبو يستحق هذا التمجيد المفرط، لا يجعل لوتريامون يستحق التأليه دون قيد أو شرط. «التأمل المستمر فى جلاء أسود، شدةٌ مطلق»، إننا معه، وهذا بالتأكيد ما نحن محكومون أن نصير إليه. إذن، لأية غايات هزيلة، معارضة جماعة بجماعة. ولماذا، إن لم يكن حبا فى الشذوذ، يتظاهر كما لو أنه لم يسمع أبدا بلوتريامون؟ **لكن «عكس الشموس» الكبيرة السوداء. آبار الحقيقة فى الحبكة الجوهرية. فى الحجاب الرمادى للسماء المنحنية. تروح وتجئ وتمتص إحداها الأخرى. والناس يسمونها غيبات.**» (دومال: «نيران قدر ما يراد»، المخاطر العظمى، ربيع عام ١٩٢٩). إن الذى يتكلم هكذا، والذى لديه الشجاعة أن يقول إنه لم يعد يملك نفسه، ليس له عذر، كما سيدرك قريبا ولابد، أن يفضل البقاء منعزلا عنا.

١ - ينظر: «يتبع» (مجلة «منوعات» - حزيران ١٩٢٩).

كيمية[١] الكلمة: هذان اللفظان المرددان عرضا، فى العادة، يتطلبان أن يؤخذا بمعناهما الحرفى. وإذا كان فصل «موسم فى الجحيم» الذى يصفانه، لا يبرر، ربما، كان إطلاقهما، فهو يمكن أن يعتبر، فى الصحيح، تمهيد النشاط الصعب الذى تتابعه اليوم السوريالية وحدها. وستكون طفولية أدبية منا لو زعمنا أننا لا ندين بالكثير لهذا النص الشهير. هل القرن الرابع عشر الرائع أقل عظمة فى معنى الأمل (وطبعا، اليأس) الإنسانى، لأن رجلاً ألمعيا كفلاميل تلقى من قوة غامضة المخطوط، السابق الوجود، لكتاب إبراهام جويف، أو لأن أسرار هيرميس[٢] لم تكن ضائعة تماما؟ لا أصدق شيئا من هذا، بل أقدر أن تحريات فلاميل، على مافى ظاهرها من تحقيق حسى، لا ينقص منها أن تكون قد سوعدت وسبقت هكذا. وبذات النحو تجرى كل الأمور فى زماننا، كما لو أن أناسا أوتوا، بطرق خارقة، مجموعة غريبة ألفها، مشتركاً، رامبو ولوتريامون، وبعض آخرون، وأن صوتا قال لهم، كما قال الملاك لفلاميل: «أمعنوا النظر فى هذا الكتاب، لستم تفهمون منه شيئا، لا أنتم ولا كثير غيركم، لكن سترون، يوما، فيه مالا يمكن أن يراه غيركم[٣]». ولن

١ ـ الكيمية: الكيمياء. يقصد بها هنا الكيمياء السحرية القديمة التى كانت تسعى إلى تحويل المعادن إلى ذهب.

٢ ـ هرميس: إله البلاغة والتجارة، واللصوص، ورسول الآلهة، عند الإغريق.

٣ ـ هذا المقطع من «بيان السوريالية الثانى» كان مكتوبا منذ ثلاثة أسابيع حين اطلعت على مقال دسنوس بعنوان: «سر إبراهام جويف» الذى نشر قبل يومين فى العدد الخامس من «وثائق». وكتبت، فى١٣ تشرين الثانى: «مما لا ريب فيه أن دسنوس وأنا، حول تلك الفترة، خضعنا لذات الشاغل الذهنى، مع أننا كنا نعمل فى استقلال خارجى تام، كل عن صاحبه، ولعل هذا ما يستحق البحث لتقرير ما إذا كان أحدنا قد شعر، فى تلك الأثناء، بما فى خاطر الآخر. وأخالنى أستطيع التأكيد على أن اسم إبراهام جويف لم يرد بيننا مطلقا. إن اثنتين من الصور الثلاث التى ترافق نص دسنوس (والتى أنتقد، من جهتى، عامية تفسيرها: على أنها ترجع إلى القرن السابع عشر) هما، بالضبط، اللتان أورد فى صفحات تالية وصفهما من قبل =

يكون لهم خيار أن يفتتنوا فى هذا التأمل. وأسترعى هنا الانتباه جيدا إلى أن المساعى السوريالية تقرب من المساعى الكيمية، بتشابه كبير فى الغاية: فالحجر الفلسفى ليس إلا ما يجب أن يهيئ لخيال الإنسان أن يستدعى من كل الأشياء ثأرا مبينا. وها نحن، من جديد ، بعد قرون من عبودية للفكر ومن استكانة حمقاء، نحاول عتق هذا الخيال، نهائيا، «**بالتشويش الطويل الهائل المتقصد لجميع الحواس**» وسواها، ربما نكون لا نزال نزين بيوتنا، ببساطة، بصور تبدو لنا، لأول وهلة، جميلة شأن فلاميل قبل أن يجد عامله الأول، «مادته»، «مصهره». كان يحب أن يرى، هكذا، «**ملكا مع سكين كبيرة، يجعل يقتل من قبل جنود، جما غفيرا من أطفال صغار، الذين أمهاتهم يبكين عند أقدام الجنود بلا رحمة. والدم الذى لهؤلاء الأطفال الصغار كان، ثم، يجمع من قبل جنود آخرين ويوضع فى إناء كبير الذى فيه كان شمس وقمر السماء يأتيان ويستحمان**» وقريبا من هناك كان «**شاب مع اجنحة على الكعبين، له عصا «كادوسية» فى يده، بها كان يضرب على خوذة كبيرة كانت تغطى رأسه. وضد هذا كان يأتى راكضا وطائرا بجناحين مفتوحين شيخ كبير الذى، على رأسه، كان له ساعة حائط معلقة**». أليس كأنما اللوحة السوريالية؟ ومن

= فلاميل(★) وما هذه أول مرة يحدث لنا هذا مع دسنوس (ينظر: «مدخل الوسطاء»، و«كلمات بلا تجاعيد» فى، الخطوات الضائعة، منشورات المجلة الفرنسية الجديدة.). ولم تكن عندى قيمة لشئ أبدا كقيمة إحداث مثل هذه الظواهر للتبادل الروحى التى تظل قائمة بعد انقطاع الرابط العاطفى. وأنى فى هذا الشأن، لن أتبدل أبدا، وأحسبنى بينت ذلك بما فيه الكافية، فى نادجا».

وقد أبلغنى السيد ريفيير، بعد ذلك، فى وثائق، أن دسنوس، حين طلب إليه للكتابة عن إبراهام جريف، كان يسمع اسم هذا للمرة الأولى. وهذه الشهادة تلزمنى، عمليا، أن أتخلى، فى تلك المناسبة، عن فرضية اتصال ذهنى مباشر. لكنها لا تدحض، فيما أظن، الغاية العامة لملاحظتى.

(★) نيقولا فلاميل: كاتب محلف في جامعة باريس (١٣٣٠ ـ ١٤١٨) جعلته الأسطورة عالما كيميا بسبب سخائه، ثم جعلت منه ساحرا.

يدرى هل سنصبح، بعد زمن، وبفضل حقيقة جديدة أو غير جديدة، أمام الاضطرار إلى استعمال أشياء جديدة أو معتبرة نهائيا غير صالحة للاستعمال؟ ولا أحسب، بالضرورة، أننا سنعود إلى التهام قلوب مناجذ[1] أو إلى الاستماع، كما إلى دقات قلوبنا، إلى صوت الماء الذى يغلى فى قدر كبيرة. أو بالأحرى، أنى لا أعرف، بل أنتظر. وأعرف فقط أن الإنسان لم يبلغ عناءه، وكل ما أرحب به هو عودة ذلك «الغضب» الذى كان يميز أغريبا فيه، عبثا أولا، أربعة أنواع. وهذا «الغضب» هو وحده، فى الحقيقة، الذى تعالجه السوريالية. وليفهم جيدا أن الأمر ليس مجرد إعادة تجميع للكلمات أو إعادة توزيع، حسب الهوى، للصور البصرية، لكنه إعادة خلق لحالة لا يكون لها ما تحسد عليه الجنون: والكتاب الحديثون الذين أستشهد بهم قد شرحوا هذا الموضوع بما يكفى. أن يكون رامبو استنسب الاعتذار لما يسميه «سفسطاته»، أمر لا نبالى به، وأن يكون ذلك، حسب تعبيره، **قد انتهى**، هو مالا أهمية له مطلقا عندنا. إننا لا نرى فى ذلك إلا جبنا تافها عاديا جديدا، لا ينبئ بشئ عما قد يكون مصير عدد قليل من الأفكار. «**إنى أعرف اليوم كيف أحيّى الجمال**»: إن رامبو لا يُغفَر له أن أراد إيهامنا بهروب جديد بينما كان يعود إلى السجن - «كيمية الكلمة: يمكن أيضا أن نأسف لصرف لفظ «كلمة» إلى معنى أقرب إلى الحصر، ويبدو رامبو معترفا، من جهة أخرى، بأن «العتقيات الشعرية» تشغل حيزاً أكبر مما يجوز فى هذه الكيمية. إن الكلمة أكثر. ولا تقل، عند «القبّاليين»[2]، مثلا، عن أنها ما خلقت الروح الإنسانية على صورته. ونعلم أنها أرجعت لأن تكون

١ - مناجذ: جمع خلد، على غير لفظه.

٢ - القباليون (من العبرية: قابلة = العرف): عند اليهود: فقهاء الدين. ومجازا: علماء سحر يزعمون قدرة الإيصال بالأرواح.

الصيغة الأولى لعلة العلل. وهى، فى هذا، بذات القدر فيما نخاف وفيما نكتب وفيما نحب.

أقول إن السوريالية ماتزال فى مرحلة التحضير، وأبادر فأضيف إن هذه المرحلة قد تدوم قدر ما أدوم أنا **قدر ما أدوم أنا**، فى النطاق الضيق جدا الذى لم أصبح فيه مستعدا للتسليم بأن واحدا اسمه بول لوكاس قابل فلاميل فى مدينة بورصة، فى مستهل القرن السابع عشر، وأن ذات فلاميل هذا، شوهد مع زوجه وابن لهما، فى دار الأوبرا عام ١٧٦١ وأنه ظهر لمدة قصيرة فى باريس فى شهر أيار من عام ١٨١٩ (حين روى أنه استأجر دكانا فى رقم ٢٢ من شارع كليرى). والواقع أن هذه التحضيرات، هى إجمالا من النوع «الفنى» أتوقع، مع ذلك، أن تنتهى وأن تظهر حينذاك الأفكار المزلزلة التى تحتويها السوريالية فى جلبة تمزق هائل، وتنطلق على هواها. ونحن نأمل كل شئ فى الإرادات القادمة: ستتأكد بعد إرادتنا وستكون أشد منها قساوة. وعلى كل سنظل نقدر لأنفسنا أننا أسهمنا فى إثبات اللغو الفاضح لما كان، حتى قدومنا، **يفكر**، وأننا نادينا - على الأقل، نادينا - بوجوب أن يسقط، **أخيرا**، ما يفكَّر به أمام ما يمكن التفكير به.

ويحق التساؤل **من** كان يتمنى رامبو أن يثبط همته، حين هدد بالذهول وبالجنون الذين يحاولون السير على خطاه. ويبدأ لوتريامون بإنذار القارئ «**ما لم يتسلح، فى قراءته بمنطق دقيق وبتوتر ذهنى يعادل على الأقل ارتيابه. فإن الأبخرة القاتلة لهذا الكتاب - أناشيد مالدورور - ستشرب روحه كما يشرب الماء السكر**». لكنّه يحرص أن يضيف: «**إن قلة فقط ستتمتع بهذه الثمرة المرة دون خطر**». إن مسألة «اللعنة» هذه، التى لم تدع، حتى الآن، إلى سوى

تعليقات ساخرة أو طائشة، قائمة فى هذا الوقت أكثر منها فى أى وقت مضى. وتخسر السوريالية كل شئ إذا أرادت إبعاد هذه اللعنة عنها. وينبغى أن نكرر وأن نحفظ هنا «طلسم» الكيميين الموضوع على مدخل المعمل لإبعاد غير المكاشفين. بل إن هذا هو ألح ما ينبغى إفهامه لعدد من أصدقائنا يبدون لى مفرطى الانشغال ببيع وتصريف لوحاتهم، مثلا. وقد كتب نوجيه، من قريب: «ليت الذين منا يبدأ اسمهم فى البروز قليلا، يعمدون إلى محوه». ودون أن أعرف تماما من يقصد أرى، فى كل حال، أن ليس من الشطط الطلب إلى هذا البعض أو ذاك أن يتوقفوا عن عرض أنفسهم مجاملين وعن الظهور على المنصات. إن استحسان الجمهور يجب أن يتحاشى أكثر من أي شئ. ويجب، إطلاقا، منع الجمهور من الدخول إذا أريد تجنب الفوضى. وأضيف أنه يجب إبقاؤه، حانقا، على الباب بنظام من التحدى والاستثارات.

أطلب التغييب العميق والحقيقى للسوريالية(١).

١ ـ لكن أريد أن أسأل، من الآن، كيف يمكن أن يباشر هذا التغييب بقطع النظر عن الجهد الكائن فى محو هذا الميل الطفيلي و«الفرنسى» الراغب أن تنتهى السوريالية، بدورها إلى أغنيات، أرى كل النفع فى أن نقوم باستكشاف جدى فى اتجاه ذينك العملين المستهان بهما تماماً ماالاكثر والميتابسيكية من اعتبار واللذين هما التنجيم بين جميع العلوم القديمة والميتابسيكية (خاصة فيما يتعلق بدراسة الكربيتستيزيا(*)) بين العلوم الحديثة.

لن يتطلب ذلك أكثر من مقاربة هذين العلمين بأقل حذر ضرورى، ويكفى لذلك أخذ فكرة دقيقة، وضعية، عن حساب الاحتمالات. وهذا الحساب، ينبغى فقط، فى جميع الظروف أن لا نعهد لأحد بإجرائه بدلا عنا. وبعد ذلك أرى من المفيد جدا أن نعرف إذا كان بيننا، مثلا، أفراد قادرون أن ينقلوا رسما موضوعا فى غلاف مغلق وغير شفاف، حتى فى غير حضور صاحب الرسم أو أي سواه قد يكون علم بكنهه. وخلال تجارب متنوعة تصورت فى شكل «ألعاب مجتمع»، والتى لا تنقص صفتها المريحة، بل المسلية، فى رأيى، من أثرها: نحو نصوص سوريالية محصلة معا من قبل عدة أشخاص يكتبون من الساعة كذا إلى الساعة كذا، فى نفس الغرفة، أو مشاركات هدفها خلق جملة أو صورة وحيدة أعطى عنصر واحد فقط من عناصرها (فاعل أو فعل أو صفة) من قبل كل من الحاضرين «الجثة اللذيذة» (ينظر: الثورة السوريالية=

وأعلن، فى هذا الصدد، الحق فى الشراسة المطلقة. لاتنازل للعالم، ولا رحمة، **الخيار الرهيب.**

يسقط من يوزع الخبز الملعون على الطيور.

= العدد ٩ و ١٠، منوعات - حزيران ٩٢٩ -)، أو تعريف شئ غير مذكور («الحوار فى عام ١٩٢٨» - ينظر: الثورة السوريالية - العدد - ١١)، أو توقع أحداث يجرها شرط أو ظرف معين لا يدخل فى حساب («ألعاب سوريالية» تنظر: منوعات - حزيران ١٩٢٩)، وما يشابه ذلك،... خلال هذه التجارب نعتقد أننا بعثنا إمكانا طريفا للذهن، هو أن يكون مشتركا. هذا إلى أن صلات لافتة جدا للانتباه تقوم بهذه الطريقة، ووجوه شبه مهمة تظهر، وعالم استحالة نفي يعجز التفسير يتدخل فى أغلب الأحيان، وبالإجمال، إن هذا مجال التقاء بين الأعجب. لكننا، بعد، فى مرحلة الدلالة إليه. ومن الواضح أنه سيكون غرورا منا فى هذا المجال، أن نعتمد على إمكاناتنا وحدها. فعدا مطالب حساب الاحتمالات التى هى فى الميتابيسيكية غير متناسبة أبدا، تقريبا، مع الفائدة الممكن تحصيلها من أقل برهان والتى قد تلزمنا، لبدئها، أن نكون عشرة أضعاف أو مائة ضعف عددنا، ينبغى أن تأخذ فى الاعتبار أيضا الموهبة الموزعة بشكل بعيد جدا عن التساوى بين أناس لا يزالون جميعا، للأسف، متشربين علم النفس المدرسى، فيما يخص الازدواجية والكشف الروحى. وليس أجدى، فى هذا الصدد من محاولة «تتبع» بعض أفراد، لا فرق أن يكونوا من الطبيعيين أو من الآخرين، وذلك بروح تتحدى معا روح أكشاك الألعاب فى البازارات وروح العيادة الطبية، تكون، فى كلمة واحدة، بروح السوريالية. ونتائج هذه الملاحظات يجب أن تثبت فى شكل عار يرفض كل صفة شعرية. وأطلب مرة أخرى أن ننحنى أمام الوسطاء الروحيين، الذين هم، وإن بعدد صغير جدا، موجودون، وأن نخضع أهمية ما نفعل، دون تضخيمها، للأهمية التى تحويها أول رسالة تأتيهم. قلنا، أراغون وأنا، المجد للانفجار العصبى ولموكبه من نساء شابات عاريات ينزلقن على السطوح القرميدية. إن مسألة المرأة هى، فى العالم، كل ما فيه من روائع ومن كدر، وذلك فى نطاق ما يعيدنا إليه الإيمان بأن الرجل غير المفسد ينبغى أن يكون قادرا أن يبذل لا فى «الثورة» وحدها بل أيضا فى الحب. وأشدد على ذلك ويزيد من تشديدى أنه هو الذى استجمع على أكبر عدد من المبغضين. نعم، إنى أعتقد، وقد اعتقدت دائما، أن التخلى عن الحب، سواء تعلل أو لا بحجة أيديولوجية، هو إحدى الجرائم النادرة التى لا تغفر التى يمكن لرجل فيه بعض ذكاء أن يرتكبها خلال حياته. فهذا الذى يزعم نفسه ثوريا يريد مع ذلك إقناعنا باستحالة الحب في نظام بورجوازى، وذاك يدعى تكريس نفسه لقضية أشد غيرة من الحب ذاته: وفى الحقيقة لا أحد يجرؤ أن يجابه، مفتوح العينين نور الحب الساطع الذى فيه تتمازج، من أجل التبصر السامى للإنسان الفكرتان الهاوستان، فكرتا خلاص وضياع الذهن. وإنى أسأل: «إذا لم يحفظ الذات فى حالة انتظار وتقبل كامل، من يستطيع أن يتولى، إنسانيا، الكلام؟

كتبت هذا، من عهد قريب، مقدمة لتحقيق أجرته الثورة السوريالية: «إن تكن فكرة تبدو مستعصية، إلى اليوم، على كل محاولة تقليص وقاومت أشد المتشائمين، فهى، على ما نخال، فكرة الحب القادرة وحدها على مؤالفة كل إنسان، موقتا أولا، مع فكرة الحياة».=

ونقرأ فى «الكتاب الثالث للسحر»: **كل إنسان، رغبة فى بلوغ الغاية السامية للروح، يذهب ليستنطق أصوات الآلهة، عليه، كى يصل، أن يجرد ذهنه من الأشياء الساقطة وأن يطهره من**

= هذه الكلمة: الحب، التى تفنن المتفكهون بإخضاعها إلى كل التعميمات وكل التخريفات الممكنة (الحب البنوى، والحب الالهى، وحب الوطن، وما أشبه)، لا حاجة للقول إننا نعيدها هنا إلى معناها الحاضر والمخيف، معنى التعلق الكلى بمخلوق بشرى، المبنى على الاعتراف الإلزامى بالحقيقة، بحقيقتنا نحن «فى روح وفى جسد» هما روح وجسد هذا المخلوق. إن المقصود من السعى إلى الحقيقة التى تشكل أساس كل نشاط سديد، هو التخلى القاطع عن نظام تحريات صبورة، على ضوء ولصالح حقيقة لم تخلقها أعمالنا، لكن تجسدت، بطريقة غامضة، فى يوم معين، فى سمات معينة ونأمل أن يكون فى قولنا هذا ما يصرف عن مجاوبتنا أخصائيى «اللذة»، وأبطال المغامرات، وبطرى المتعة، لمجرد أن يكونوا ميالين إلى تغليف هوسهم بغلاف شعرى، وكذلك المستهينين، و«المداوين» للحب - الجنون المزعوم، وأيضا، المحبين المتوهمين.

والصحيح أن الآخرين، والآخرين وحدهم، هم الذين ظللت دائما الأمل أن يفهمونى: ومادام الشأن إمكانات تغييب السوريالية ألتفت إلى الذين لا يخشون تصور الحب كموضع التغييب المثالى لفكرة . أقول لهم إن هناك تجليات حقيقية لكن فى الذهن مرآة قد تنظر فيها الغالبية العظمى من الناس دون أن ترى نفسها. إن الرقابة المقيتة لا تؤدى عملها جيدا، والشخص الذى تحبه أنت يحيا. ولغة المكاشفة تكون بعض كلماتها جهيرة وبعض أخرى خافتة. وينبغى القبول بتعلمها نتفا.

حين نفكر، من جهة أخرى بما يعتبر تنجيميا فى السوريالية الخاضعة لتأثير «أورانوسى» غالب جدا، كيف لا نتمنى، من جهة النظر السوريالية أن يظهر كتاب نقدى خالص النية مكرس لأورانوس، يساعد، من هذه الناحية، على تلافى النقص الخطير القديم؟ لا شئ تقريبا، عمل فى هذا السبيل. إن فلك ميلاد بودلير الذى يبين الالتقاء المثير بين أورانوس ونيبتون، سيظل، لهذا السبب، ممتنعا على التفسير. وعن التقاء أورانوس بزحل الذى يحدث من عام ١٨٩٦ إلى عام ١٨٩٨، والذى لا يصادف إلا مرة كل خمس وأربعين سنة، عن هذا الالتقاء الذى يميز فلك ميلادنا، أراغون وايلور وأنا، نعرف فقط، بواسطة شوانار، أن علم التنجيم لم يدرسه كثيرا إلى الآن، وأنه «يعنى، على الأرجح، حبا عميقا للعلوم، وسعيا وراء الغموض، وتوقا رفيعا للتعلم». (ولغة شوانار مريبة، بالطبع). ويضيف: «ومن يدرى إذا كان التقاء زحل بأورانوس لن يولد مدرسة جديدة في حقل العلم. أن هذه الظاهرة الفلكية، حين تقع فى مكان مناسب من طالع، قد توافق صفات رجال ذى تفكير وحكمة واستقلال مؤهل أن يكون بحاثة من الطبقة الأولى» هذه السطور المأخوذة عن «التأثير الفلكى» هى من عام ١٨٩٣. وفى عام ١٩٢٥، سجل شوانار أن نبوءته تبدو فى سبيل التحقق.

(★) [الميتابسيكية: ميتا = بعد، بسيكو - نفس: الخاص بدراسة الظواهر النفسية التى لم تعرف علميا، مثل شعور شخصين متباعدين بذات الشعور في ذات الوقت. - الكريبتسيميزيا كريبتو= خفى، استيزيا = حساسية: دراسة الشعور الباطنى].

كل مرض، وخبل، وخبث وعيوب مماثلة ومن كل حالة مخالفة للعقل تلحق به كما يلحق الصدأ بالحديد» ويحدد «الكتاب الرابع» بحزم أن الكشف المنتظر يتطلب أيضا الوجود «فى مكان طاهر ونير، مسجفة جوانبه بستائر بيضاء»، وعدم مجابهة «الأرواح الشريرة منها والخيرة، إلا بمقدار «درجة السمو» المفضية إليها. ويشدد التأكيد على أن كتاب الحرص على حالة النظافة الوضاءة لألبستهم ولروحهم، وما كنت لأقر، ونحن ننتظر ما ننتظر من بعض ممارسات الكيمية الذهنية ، أن نرضى بالظهور، فى هذا الصدد، أقل حرصا منهم.

لكن هذا هو ما يعاب علينا باللهجة الأمرّ، وما يبدو أقل استعدادا من أى آخر أن يغفرها لنا السيد باتاى الذى يقوم الأرواح الشريرة مصنوع «من ورق نقى جدا لم يستخدم أبدا فى استعمال آخر». يسمى، عادة، الرق البكر.

ليس من مثال على أن علماء النجوم لم يكونوا شديدى فى الوقت الحاضر، فى مجلة «وثائق» بحملة مضحكة ضد ما يسميه «التعطش القذر لجميع الكمالات». والسيد باتاى لا يلفتنى إليه إلا فى حدود ادعائه معارضة نظام الذهن الشديد الذى نريد بتصميم أن نخضع له كل شئ - ولا يسؤنها اتهام هيغل بالمسئولية الرئيسية عنه -، بنظام لا يتمكن، حتى، من أن يبدو أكثر لينا، لأنه يميل أن يصبح نظام «اللاذهن» (وهنا بالذات ينتظره هيغل). فالسيد باتاى يجاهر بأنه لا يريد أن يعتبر من العالم إلا ما فيه الأحقر والأبعث على اليأس والأشد فسادا. ويدعو الإنسان، كى يتحاشى أن ينفع فى أي شئ معين، «أن **يركض هائما «معه هو» - وقد عشيت عيناه فجأة وامتلأت بدموع منكرة - نحو بيوت ريفية تسكنها الأشباح. أقبح**

من ذباب وأفسق وازنخ من «دور الحلاقة». لئن طرأ لى نقل مثل هذا الكلام فلأنه، فى رأيى، لايلزم السيد باتاى وحده، بل أيضا جميع الذين ، من السورياليين السابقين، أرادوا أن يكون لهم ملء الحرية أن يتبذلوا فى أى مكان. لربما كان السيد باتاى من القوة بحيث يجمعهم، وسيكون طريفا أن يستطيع. فعند الانطلاق فى السباق الذى ينظمه، كما رأينا، السيد باتاى يقف منذ الآن السادة دسنوس ولايريس وليمبور وماسون وفيتراك، ولا يجد أحد تفسيرا لتأخر السيد ريبمون - ديسنيى فى الحضور. أقول إنها دلالة عظيمة أن نرى، من جديد، متجمعين، جميع الذين أبعدتهم نقيضة ما عن نشاط أول محدد لأن من المحتمل جدا أن لا يكون لهم غير استياءاتهم يتشاركون فيها. هذا، ويطيب لى تصور عدم إمكان الخروج من السوريالية دون الوقوع على السيد باتاى، لشدة ما هو صحيح أن كره الشدة لا يعرف التعبير عن ذاته إلا بخضوع جديد للشدة.

وليس عند السيد باتاى إلا ما هو معروف جدا، حيث نشاهد عودة هجومية للمادية اللاجدلية القديمة تحاول، هذه المرة، أن تشق لنفسها طريقا، دون تبرير، من خلال فرويد، وها هو يقول: « **مادية، تفسير مباشر، ينفى كل فكرية للظواهر على طبيعتها. مادية ينبغى، كيلا ينظر إليها كفكرية خرقاء، أن تؤسس، مباشرة، على الظواهر الاقتصادية والاجتماعية».** وإذا لم تحدد هنا «مادية تاريخية»، (وهل كان التحديد ممكنا؟)، لا نجد بدا من ملاحظة أن هذا، من وجهة النظر الفلسفية للتعبير، مبهم، ومن وجهة النظر الشعرية للتجديد، معدم.

والأقل إبهاما هى الحتمية التى يريد السيد باتاى إعطاءها لعدد

قليل من أفكار خاصة له، لاندرى، باعتبار أوصافها، إن كان علاجها الطب أو الرقى والتعاويذ. فبالنسبة إلى **ظهور الذبابة على أنف الخطيب** (جورج باتاى: «صورة إنسانية» ـ وثائق. العدد الرابع) وهى حجته الدامغة ضد «**الأنا**». نحن نعرف النغمة القديمة الباسكالية والسخيفة، وسبق للوتريامون أن قضى عليها من زمن طويل: «**إن ذهن أعظم رجل،** (ولنشدد بقوة على أعظم رجل) **ليس من التبعية بحيث يكون قابلا للاضطراب لدى أول صوت «للضوضاء» التى تحدث من حوله. لا ينبغى صمت مدفع ليمنع أفكاره. لا ينبغى صوت دولاب هواء أو بكرة. إن الذبابة لم تعد تعقل جيدا الآن. إن رجلا يطن فى أذنيها**» إن الإنسان الذى يفكر، يمكن أن يحط على قمة جبل كما على أنف ذبابة. ولسنا نطيل الحديث عن الذباب إلا لأن السيد باتاى يحب الذباب. أما نحن، فلا. إننا نحب قلانس المستحضرين القدماء، القلانس من كتان خالص، المعلق على مقدمتها صفيحة من ذهب، والتى لم يكن يقع عليها الذباب، لأن مراسم تطهير أقيمت لطرده. والمصيبة، عند السيد باتاى هى أنه يعلل: يعلل، طبعا، كأحد «على أنفه ذبابة»، الأمر الذى يجعله أقرب إلى الميت منه إلى **الحى**، لكنه يعلل. أنه يحاول، مستعينا بالآلية التى لم تصبح تامة الاختلال فى ذهنه، لجعل الآخرين يشاركونه فى هوسه. بل إنه، بهذا، لا يستطيع الادعاء، مهما يقل، بمقاومته كبهيمة لكل نظام. إن ما فى وضع السيد باتاى من متناقض، ومن مزعج له، هو أن خوفه الجنونى من «الفكرة»، بدءا من محاولته الاشتراك فيه، لا يمكن إلا أن يتخذ صيغة فكرية. وهو، فى اصطلاح الأطباء، حالة عجز واع ذات شكل تعميمى. وبالفعل، هذا شخص يضع كمبدأ، «إن

الاشمئزاز لا ينتج أي رضى مرضى وإنما يعلب فقط دور الزبل فى النمو النباتى، زبل ذى رائحة خانقة ولاشك، لكن نافع للنبتة».

هذه الفكرة، رغم مظهرها البالغ الابتذال، هى فى ذاتها عديمة السداد أو مرضية (ويبقى إثبات أن بول وبيركلى وهيغل وراب وبودلير ورامبو وماركس ولينين، كانوا يتصرفون فى حياتهم تصرف الخنازير). وأمر يلفت الانتباه هو أن السيد باتاى يفرط إلى حد الهذيان فى استعمال النعوت: ملوث، شيخوخى، زنخ، بطر، أحمق، وأن هذه الألفاظ لا تأتى لاستنكار وضع غير محتمل، بل للتعبير، فى أشد طرب، عن تلذذه. وإذ سقطت «المكنة التى لا تسمى» التى يتكلم عنها جارى فى صحن السيد باتاى، أعلن هذا عن بهجته[1] العظيمة. وهو، الذى، طوال ساعات النهار، يمرر على مخطوطات قديمة، وأحيانا ظريفة، الأصابع الحذرة لأمين كتب (والكل يعلم أنه يشغل هذه الوظيفة فى المكتبة الوطنية)، يتغذى، فى الليل، بالقذارات التى يتمنى لو كانت تلك المخطوطات مشحونة بها، بدليل تلك اللوحة عن «الجليَّان» التى فى كنيسة سان ـ سيفير والتى خصها بمقالة في العدد الثانى من وثائق، مقالة هى الأنموذج الكامل للشهادة الكاذبة. لينتقل القارئ إلى لوحة «الطوفان» المنشورة صورتها فى ذات العدد وليقل لى إذا كان يرى فيها «شعورا فرحا وغير متوقع يظهر مع المعزة المرسومة فى أسفل الصفحة ومع الغراب ذى المنقار المغروز فى لحم (هنا يبلغ السيد باتاى قمة النشوة) رأس بشرى»؟ أن يعير هيئة آدمية لعناصر معمارية كما فعل طوال تلك الدراسة وفى غيرها، هو أيضا، ولا أكثر، علامة وهن نفسى. والحقيقية هى أن السبب

١ ـ فى «الفرق فى فلسفة الطبيعة عند ديموكريت وإبيقور» يبين لنا ماركس كيف، فى كل زمن، يولد، هكذا، فلاسفة ـ شعر، وفلاسفة ـ أظافر، وفلاسفة ـ أخامص، وفلاسفة غائط...

باتاى تعب جدا وحسب، وحين يعمد إلى الملاحظة العالية التى يعتبرها مذهلة «**بأن داخل الوردة لا يتلاءم أبدا مع جمالها الخارجي وأنه إذا اقتلعت حتى الأخيرة نويرات تويجها لا يبقى منها سوى ترس ذى منظر قذر**»، لايدعونى إلى غير الابتسام لتذكار تلك القصة لألفونس أليه عن سلطان استنفد جميع وسائل التسلية وأشفق كبير وزرائه عليه أن يصيبه السأم فلم يهتد إلى غير أن جاءه بفتاة بالغة الحسن بدأت ترقص أمامه مثقلة بغلائل، كانت من الجمال بحيث أن السلطان كان يأمر كلما توقفت عن الرقص أن تنزع عنها غلالة، حتى إذا أصبحت عارية أمر السلطان بتعريتها أكثر. وبادر الجند إلى سلخها حية. فالحقيقة هى أن الوردة إذا حرمت من نويراتها تبقى الوردة. هذا إلى أن فتاة القصة استأنفت رقصها.

ولأعارض أيضا «بالفعلة المخزية للمركيز دوساد المسجون مع المجانين الذى كان يطلب إتيانه بأجمل الورود ليلقى بنويراتها فى جورة المرحاض» سأجيب بأن عمل الاحتجاج هذا، كى يفقد وقعه المدهش، يكفيه أن يكون لا من صنع رجل قضى، **من أجل أفكاره**، سبعا وعشرين سنة من عمره فى السجن، بل من صنع «جالس» فى مكتبة. إذ كل شئ يدل، فى الصحيح، أن ساد، الذى كانت عنده إرادة الانعتاق الأخلاقى والاجتماعى، خلافا للسيد باتاى، لا يرقى إليها شك، لكى يجبر الذهن الإنسانى أن يتحرر من قيوده، قصد فقط بفعله النيل من **المعبود** الشعرى، من تلك «الخاصة» التقليدية التي تجعل من الزهرة، فى نطاق ما يستطيع أحد تقديمها، واسطة النقل الزاهية للعواطف الأنبل أو الأسفل. ويجب، مع ذلك، التحفظ فى قبول مثل هذا العمل الذى، حتى إذا لم يكن خرافيا، لا يمكن أن

يتحض فى شئ الاستقامة التامة فى ذهن وفى حياة ساد، والحاجة البطولية التى أحس بها، لخلق نظام أشياء لا يتبع **مطلقا** ما كان قد حدث قبله.

والسوريالية الآن أقل استعدادا منها فى أى وقت للاستغناء عن هذه الاستقامة وللاكتفاء بما يخليه هذا البعض أو ذاك، بين خيانتين يمهدون لها بالذريعة المبهمة المقيتة، ذريعة ضرورة العيش، إننا نأبى صدقة «المواهب» هذه. ومن شأن ما نطلبه، فيما نرى، أن يستدعى قبولا أو رفضا تاما، لا وعدا زيفا أو ميلا مترددا. هل يرغب فى المخاطرة بكل شئ لمجرد الفرحة، أن يلمح من بعيد فى أقصى عمق البوتقة التى نقترح أن نرمى فيها رفاهاتنا التافهة وما تبقى لنا من سمعة طيبة وشكوكنا، خليطا مع البهرج الجميل «المحسوس» وفكرة العجز القطعية وبلاهة واجباتنا المزعومة، **الضياء الذى لن يعود يخبو؟**

نحن نقول إن العملية السوريالية لا حظ لها فى النجاح إلا إذا تمت فى شروط تعقيم معنوى قليل من الناس، إلى الآن، يقبلون أن يجرى حديثه. فمن المستحيل، دون هذه الشروط، توقيف سرطان الذهن هذا، الكائن فى التفكير بألم بالغ بأن بعض الأمور «هى» موجودة بينما غيرها التى يمكن جدا أن توجد «ليست» موجودة. وكنا قدمنا أن على هذه الأمور جميعا أن تندمج أو أن تتحاجز استثنائيا عند الحد. ولا ينبغى الاقتصار على ذلك بل **عدم استطاعة عمل اقل من السعى بكل جهد لبلوغ هذا الحد.**

إن الإنسان الذى قد يتخوف، خطأ، من بعض إخفاقات تاريخية فظيعة، لايزال حرا أن يؤمن بحريته. إنه سيد نفسه، رغم السحب الهرمة التى تمر وقواه الكفيفة التى تتعثر. أليس لديه الشعور

بالجمال القليل المختلس، وبالجمال الكبير الذى فى المتناول والقابل الاختلاس؟ ومفتاح الحب الذى كان الشاعر يقول إنه وجده، ليفتش عنه هو أيضا: إنه معه. عليه وحده يتوقف أن يرتفع فوق الإحساس العارض بأنه يعيش عيشا خطرا ويموت. ليستعمل، غير آبه بأى تحريم، سلاح **الفكرة** المنتقم ضد حيوانية جميع الناس وجميع الأشياء، فإن يغلب يوما، - إن يغلب، **فقط إذا كان العالم عالما** -، فليستقبل رصاص بنادقه البائسة كطلقات تحية.

قبل - بعد

إن أندريه بروتون، المهتم بالأخلاق، أي بمعنى الحياة لا بالتقيد بقوانين الإنسان، بحبه للحياة الصحيحة وللمغامرة، يعيد لكلمة «دين» معناها الأصلي.

روبير دسنوس

«غايات»

أيها الصديق العزيز إن إعجابي بك لا يتوقف على إثارة دائمة لحديث «مزاياك» وأخطائك.

جورج ريبمون - ديسيني

«منوعات»

عزيزي بروتون، قد لا أعود أبدا إلى فرنسا هذا المساء، شتمت كل ما تستطيع شتمه. إنني مقتول. الدم يجري من عيني وأنفي وفمي. لا تتخل عني - دافع عني.

جورج ليمبور

٢١ تموز ١٩٢٤

وآخر غرور لهذا الشبح سيكون أن ينتن أبديا بين نتانات الجنة الموعودة بالاهتداء القريب والمؤكد للطير الساهك أندريه بروتون[١]

روبير دسنوس

جثة

إن البيان الثاني للسوريالية ليس كشفا بل هو نجاح.

لا يمكن إبداع أفضل من ذلك في النمط المرائي والخائن والمداجن وبكلمة واحدة: «الشرطي» و«الخوري».

جورج ريبمون - ديسيني

سيسرني أن أراك ترعف.

جورج ليمبور

كانون الأول ١٩٢٩

١ - الساهك: ذو الرائحة الكريهة من تعفن أو زفرة.

إنى أعرف بالدقة ما أنا مدين به لك. وأعرف أيضا أن المبادئ القليلة التى علمتنى فى محادثاتنا هى التى مكنتنى من هذه الملاحظات. إننا نتبع طريقين متوازيين وآمل أن تؤمن بحق أن صداقتى لك ليست قضية ابتسام.

جاك بارون

١٩٢٩

إنى من أصدقاء أندريه بروتون بدلالة الثقة التى يولينى. لكنها ليست ثقة. لا أحد نالها. إنها نعمة. أتمناها لكم. إنها النعمة التى أتمناها لكم.

روجيه ڤيتراك

«صحيفة الشعب»

كان ذلك بروتون المستقيم، الثورى الحمّى الأخلاقى الصارم.

نعم، يا له من تافه.

هذا الجمالى الدنئ النوق، هذا الحيوان نو الدم البارد، لم يزود أى شئ إلا بالفوضى المطبقة.

جاك بارون

جثة

أما أفكاره فلا أحسب أحدا أخذها أبدا مأخذ جد. عدا بعض النقاد المجاملين وبعض التلامذة الساقطين، وبعض النساء فى النفاس المتوحمات على مسوخ.

روجيه ڤيتراك

جثة

عازمين فى كل مناسبة على استعمال، بل وعلى استغلال السلطة التى تخولها الممارسة الواعية والمنتظمة للتعبير الكتابى وغير الكتابى، متضامنين فى كل شئ مع أندريه بروتون، ومصرين أن نضع فى التطبيق النتائج التى تفرض ذاتها لقراء **البيان الثانى للسوريالية**: قرر الموقعون أدناه، الذين لا يساورهم وَهْم حول أثر المجلات «الفنية

والأدبية»، أن يسهموا فى نشرة دورية تحت عنوان:

السوريالية
فى خدمة الثورة

لا تمكنهم فحسب من الرد بصورة عملية على الأوباش المحترفين التفكير، بل تهيئ التحول النهائى للقوى الفكرية الحية اليوم، لصالح الحتمية الثورية:

مكسيم الكسندر	كامى غومنرز
أراغون	بول نوجيه
جو بوسكين	بنجامين بيريه
لويس بونويل	فرنسيس بونج
رنيه شار	ماركو ريستتش
رنيه كروڤيل	جورج سادول
سلڤادور دالى	إيف تانغى
بول ايلوار	أندريه تيريون
ماكس إرنست	تريستان تزارا
مارسيل فورييه	ألبير ڤالنتان

١٩٣٠

تمهيد مسهب

لبيان ثالث للسوريالية أو لا

١٩٤٢

لعل فيّ إفراطا من شمال حتى لم أصبح، أبدا، رجل القبول التام. هذا الشمال، في نفس عيني، يحتوي معا على تحصينات طبيعية من الغرانيت وعلى ضباب. ولئن أك بالغ الاستعداد أن أتأمل كل شئ من كائن أراه جميلا: فأنا شديد البعد عن منح ذات الثقة لتلك البناءات المسماة نظما. أمامها يتناقص حماسي، وجلي أن نابض الحب يتعطل. مستهوى، نعم، قد أغدو، لكن أبدا لدرجة تجاهل نقطة الخطأ فيما يزعم لي رجل مثلي أنه صحيح. ونقطة الخطأ هذه، إن لم تقع، بالضرورة على الخط الذي يرسمه لي، في حياته، من يعلم، تظهر لي دائما، في بعد مختلف، على امتداد هذا الخط خلال أناس آخرين. كلما ازداد هذا الرجل شأنا كلما تحدد بالجمود الناشئ عن الإجلال الذي يحيطه به البعض، وعن الجهد الدائب للآخرين الذين سيلجؤون إلى أشد الوسائل التواء لتهديمه. واستقلالا عن سببي الانحطاط هذين يبقى أن كل فكرة عظيمة، تقريبا، معرضة لتشوه خطير من اللحظة التي تتصل فيها مع الكتلة البشرية حيث ستساق إلى التآلف مع أذهان يباين قياسها جدا قياس الذهن الذي تولدت عنه. تشهد على ذلك، بما يكفي، في الأزمنة الحديثة، القحة التي زعم بها أحط الدجالين والمزورين انتماءهم إلى مبادئ روبسبيير وسان جوست، وتمزيق المذهب الهيغلي بين مريديه

من يمين ويسار، والشقاقات الضخمة فى داخل الماركسية، والثقة المذهلة التي يعمل بها الكاثوليك والرجعيون على جعل رامبو حجة لهم. وفي وقت اقرب منا تكفى وفاة فرويد لبعث القلق على مصير افكار التحليل النفسى، وتهدد، مرة أخرى، بتحويل وسيلة تحرير نموذجية إلى وسيلة اضطهاد. حتى السوريالية ذاتها، تتربص بها، بعد عشرين عاما من وجودها، الشرور التي هى ثمن كل خطوة وكل شهرة. والاحتياطات المتخذة بصيانة «الاستقامة» فى داخل هذه الحركة - والمعتبرة، عموما، بالغة الشدة - لم تحل، مع ذلك، دون شهادة الزور الحانقة من مثل أراغون ولا دون الخديعة السافلة من الكتائبى - الجديد - القذر أفيدا دولارس. وقد أصبحت السوريالية اعجز من أن تغطى جميع ما يحاول باسمها، علنا أو لا، من أقصى صالات «الشاى» فى طوكيو، إلى الواجهات المغرقة بالنور فى «الشارع الخامس» فى نيويورك. وفي مفهوم محدد، إن «ما يصنع» اليوم قليل الشبه جدا «بما أريد» وعلى الناس، حتى أبرزهم، أن يقتنعوا «بالعبور»، لا تكلل رؤوسهم الاتوار قدر ما يثيرون خلفهم من غبار.

•

طالما ظل الناس لا يعون وضعهم - لا أقصد فقط وضعهم الاجتماعى، بل وضعهم بصفتهم بشرا والتقلقل البالغ لهذا الوضع: المدة التافهة بالنسبة لمجال نشاط النوع حسبما يخال الذهن أنه يحيطه وخضوع، فى خفية شديدة عن الذات، لغرائز بسيطة جدا وقليلة جدا، قدرة تفكير، نعم، لكن من نوع مفخم جدا، قدرة، مع ذلك، مصابة بالرتابة، يحرص المجتمع أن يحصرها فى اتجاهات محددة سلفا حيث يمكن أن يمارس رقابته، وفوق ذلك، قدرة متخاذلة

أكثر فأكثر فى كل إنسان، وموازنة، فى المقابل بقدرة، على الأقل موازية، على عدم التفكير (فى الذات) أو على سوء التفكير (على انفراد أو فى أغلب الترجيح مع الآخرين)، وطالما ظل الناس مصرين على الكذب على أنفسهم، وطالما لم يعطوا خطا واضحا للبائد وللخالد، للخاطئ وللسديد، التى تستولى عليهم. **للمفرد** المصان، بحرص، فى ذاتهم، وسطوعه المتوهج فى **الجماعة**، وطالما ظل من نصيب بعضهم، فى الغرب، حب المخاطرة بأمل التحسين، ومن نصيب الآخرين، فى الشرق، مزاولة اللامبالاة، وطالما ظل البعض يستغلون غيرهم، دون أن يفيدوا متعة تذكر - فالمال بينهم كطاغية مشترك -، المال بينهم كأفعوان يعض ذنبه الذى هو فتيل قنبلة -، طالما ظل الناس لا يعلمون شيئا ويدعون علم كل شئ، حاملين الكتاب المقدس فى يد وكتاب لينين فى اليد الثانية، وطالما سيظل المسافرون يقومون مقام المنجمين خلال الليل البهيم، وطالما... (ولن أستطيع، أنا أيضا أن أقول **هاذا**، إذ أنا أقل الناس زعما بمعرفة كل شئ، وهناك [**طالما**] كثير يمكن تعدادها)، فلا داعى للكلام، ولا داعى أيضا للخصام، ولا داعى أكثر للحب دون مناقضة كل ما ليس الحب، وكذلك لا داعى للموت، و- فيما عدا الربيع، أفكر دائما بالشباب، **بالأشجار المزهرة**، كل هذا المستنكر، المستنكر بشدة من قبل الشيوخ - أفكر فى المصادفة الرائعة فى الشارع، حتى فى نيويرك، - لا داعى أخيرا للحياة. **هناك**، أفكر فى صيغة التعرف الجميلة المتفائلة هذه التى تتردد فى قصائد أبولينير الأخيرة: هناك المرأة الشابة البديعة التى تطوف، فى هذه اللحظة، مظللة بأجفانها، حول البيوت الطباشيرية المتهدمة فى أمريكا الجنوبية والتى تكفى نظرة

منها لتمحو عند كل أحد معنى الحرب ذاته، هناك أهالى غينيا الجديدة، فى الصفوف الأمامية من هذه الحرب، أهالى غينيا الجديدة الذين أخضع فنهم بعضا منا بأكثر جدا من الفن المصبرى أو الفن الروماوي، منصرفين بكليتهم إلى التفرج على المشاهد الموفرة لهم في سمائهم - سامحوهم، فلم يكن لديهم وحدهم غير الأنواع الثلاثمائة من طيور الجنة - ويبدو أنهم «يتمتعون» بها رغم أنهم لا يملكون كفايتهم من نبال سم الكورار لمواجهة الغزاة البيض والصفر، وهناك الجمعيات السرية الجديدة التى تحاول أن تتحدد من خلال اجتماعاتها التآمرية المتسترة، عند الأصيل، فى الموانئ، هناك صديقى إيميه سيزير، المغناطيسى والأسود، المنصرف عن كل التكرارات الالواردية وغيرها، يكتب القصائد التى نحتاجها الآن، في المارتينيك. هناك أيضا رؤوس قادة لا يكاد نبتها يعلو على الأرض والتى يتساءل كل، وهو لا يرى غير شعورها، ما هو هذا العشب الذى سينتصر الذى سيتغلب على الخوف السرمدى، «خوف التغيير كيما يعود كل شئ». هذه الرؤوس بدأت فى الطلوع فى مكان ما في العالم - تلفتوا دون جهد وإلى كل ناحية، لا أحد يعرف، بالتأكيد، من هم هؤلاء القادة، من أين سيأتون، ماذا يعنون، تاريخيا - وقد يكون خارقا أن يعرفوا ذلك أنفسهم. لكنهم، لابد، كائنون الآن: ففى الإعصار الحالى، أمام الخطورة التى لم يسبق لها مثيل، للأزمة الاجتماعية، وكذلك الدينية والاقتصادية، سيكون الخطل فى تصورهم كثمرة نظام نعرفه تماما. أما أن يأتوا من أفق قابل للتخمين فأمر لا شك فيه: لكن لابد وأن يكونوا وضعوا عدة مناهج متجاورة من المطالب رأت الأحزاب، إلى الآن، أنها فى غنى عنها - وإلا عدنا إلى

السقوط بسرعة فى البربرية. ينبغى، لا أن يتوقف استغلال الإنسان للإنسان فحسب، بل أن يتوقف استغلال الإنسان من قبل «الإله» المزعوم المستحيل والمثير الذكر. ينبغى إعادة النظر جذريا، دون شبهة رثاء وبطريقة لا تقبل التسويف، فى مسألة علاقة الرجل والمرأة. ينبغى أن ينتقل الرجل بكل عتاده إلى صف الرجل. كفى ضعفا، كفى صبينة، كفى أفكار عدم لياقة، كفى خدرا، كفى تفرجا، كفى زهورا على القبور، كفى تعليما وطنيا بين درسى رياضة، كفى تسامحا، كفى رضى بالكذب والغش!

الأحزاب: ما هو، ما ليس **فى الخط**. لكن إذا كان خطى شديد التعرج، وأنا مقر بذلك، فإن خطى يمر بهيراكليت، وأبيلار، وايكهارت، وريتز، وروسو، وسويفت، وساد، ولويس، وأرنيم، ولوتريامون، وانغلز وجارى وبعض آخرين. لقد اتخذت منه نظام إحداثيات لاستعمالى الخاص، نظاما يستعصى على تجربتى الخاصة، ويبدو لى، إذن، محتويا على بعض فرص الغد.

استراحة قصيرة

تنبئية

سيأتى بعد هنيهة بهلوانات فى ثياب لاصقة مشذرة، من لون غير معروف إلى اليوم يمتص، معا، أشعة الشمس والقمر. هذا اللون سيسمى الحرية، وستخفق السماء بكل راياتها الزرقاء والسوداء، إذ ستهب لأول مرة ريح مواتية. وسيدرك الحاضرون أنهم قد نشروا الشراع وابحروا وأن كل الأسفار السابقة المزعومة لم تكن غير خداع. وستنظر الفكرة المنحرفة والصراعات الفظيعة في زماننا بعين الإشفاق الممزوج بالاشمئزاز، عين قائد السفينة «ارغوس» وهو يلتقط الأحياء على «طوف ميدوزا». وسيعجب كل أن يرى، دون دوار، الهاويات العليا المحروسة بتنين. إذا أضيئ جيدا لم يكن مصنوعا إلا من سلاسل. ها هم، إنهم الآن في أعلى، لقد ألقوا السلم، ولم يعد يمسكهم شئ. وعلى بساط أعوج تتقدم نحونا أولئك اللواتى كن نبيات الآلهة. ومن الساق التى يورقن بثوبهن الأخضر اللوزى المشقق من الأحجار، وبشعورهن المرسلة، تنطلق الوردة الزجاجية البراقة الكبرى التى تترجح فى غير وزن، الزهرة المتفتحة، أخيرا، للحياة الصحيحة. كل المسببات السابقة أصيبت بالسخافة لفورها، وغدا المكان حرا، حرا فكريا. وتتحرك نقطة الشرف في سرعة الشهاب الذى يرسم في ذات الوقت هذين الخطين: الرقصة لاختيار الكائن من الجنس الآخر، والتبختر أمام أنظار المتفرجين الغامضين من القادمين الجدد الذين يتوهم الإنسان أن عليه تقديم حساب لهم بعد مماته.

وخارج هذا، لا أجد عليه واجبا. ومن باقة الأسهم النارية جميعها تنفصل سنبلة يجب التقاطها طائرة: إنها الفرصة، المغامرة الوحيدة المتأكد أنها لم تكن مسجلة فى أى مكان فى أعماق الكتب أو فى نظرات البحارة الشيوخ الذين لا يقدرون الرياح إلا من على الشطآن. وما قيمة أي خضوع لما لم نأمر به نحن؟ ينبغى أن يفلت الإنسان من النطاق المضحك الذى حصر فيه: الواقع الحاضر المزعوم مع توقع واقع مستقبل ليس أفضل شأنا. كل دقيقة مليئة تحمل فى ذاتها نفى قرون من التاريخ الأعرج والمحطم. وأولئك الذين عليهم أن يطوحوا بسرعة هذه الدوائر المخصورة فوق رؤوسنا لن يتمكنوا إلا بنسغ صاف.

إن جميع النظم القائمة لا يمكن أن تعتبر عقليا إلا كأدوات على طاولة نجار. هذا النجار هو أنت. وإن لم تكن مصابا بجنون هائج، لن تعمد إلى الاستغناء عن جميع تلك الأدوات باستثناء واحدة، والتمسك، مثلا، بالمنجر لدرجة المناداة بخطل وإجرام استعمال المطرقة. على أن هذا هو الذى يحدث بالضبط حين يدّعى متشيع لطرف أو لآخر التفسير المقنع تماما للثورة الفرنسية أو للثورة الروسية، «ببغض الأب» (وهو، في روسيا العاهل المسقط) أو التفسير المقنع تماما لأعمال مالارميه «بعلاقات الطبقات» فى زمانه. ينبغى السماح، دون أي عمل اصطفائى، باللجوء إلى وسيلة المعرفة التى تبدو فى كل مرة الأكثر ملاءمة. وحسب اضطراب مفاجئ فى هذا العالم، كالذى نشهده اليوم، لتحتيم إعادة النظر، إن لم يكن في ضرورة، فعلى الأقل فى كفاية الأنماط الانتقائية للمعرفة وللتدخل التى كانت تغرى الإنسان خلال فترة التاريخ الأخيرة. ولا أريد،

كبرهان، غير الاهتمام الذى استولى بشكل منفصل، على أذهان شديدة التباين لكن معدودة اليوم بين الأوعى والأجرأ: - باتاى، كايوا، دوتوى، ماسون، مابى، ليونورا كارينغتون، أرنست، اتيامبل، بيريه، كالاس، سيليغمان، حنين - أقول: غير الاهتمام بإعطاء جواب عاجل على السؤال: «ما الرأى فى المبدأ المجازف: [لا مجتمع دون أسطورة اجتماعية]، وإلى أى حد نستطيع أن نختار أن نتبنى **ونفرض** أسطورة تتناسب مع المجتمع الذى نعتبره مرغوبا؟». لكن فى وسعى أيضا الاحتجاج بنوع من عودة، تجرى فى أثناء هذه الحرب، إلى فلسفة القرون الوسطى وإلى العلوم «الملعونة» (التى ظل الاتصال بها مستمرا، ضمنا، بواسطة الشعر «الملعون»). وعلى أن أذكر، أخيرا، شبه الإنذار النهائى الموجه، على الأقل فى باطن الضمير، إلى النظام الخاص بكل واحد، من قبل كثير من الذين لا يزالون يجاهدون لتغيير العالم، معلقين ذلك فقط على إحداث انقلاب جذرى فى شروطه الاقتصادية: نعم، إنى أسيرك أيها النظام، لقد سلمتك ذاتى دون مبالاة بحياتى، لكن لم يتحقق شئ إلى الآن مما كنت وعدت به. خذ حذرك، إن ما جعلنى أعتقده محتما قد تأخر كثيرا فى الحدوث، بل يمكن، بالتمادى، اعتباره معاكسا. إذا كانت هذه الحرب والمناسبات العديدة التى وفرتها لك لتحقيق نفسك ستذهب سدى فلا بد لى من التسليم بأن فيك شيئا مغترا جدا بل، من يدرى، وفاسدا في القاعدة لا أقوى على تجاهله بعد الآن. هكذا كان بعض الناس فى القديم يزعمون نجاحهم فى تبكيت الشيطان حتى ألجؤوه، على ما يقال، إلى الظهور أخيرا.

يبقى، من جهة أخرى، أننى، بعد عشرين سنة، أرى نفسى ملزما، كما حين شبابى، أن أدين كل شكلية، وأن أقصد بالذات، فى قولى

هذا، شكلية سوريالية ثابتة الوجود أيضا. إن عددا مفرطا من اللوحات، خاصة، تتزين اليوم فى العالم بما لم يكلف شيئا جموع مقلدى شيريكو وبيكاسو وإرنست وماسون وميرو وتانغى - وفى غد ماترا - أولئك الذين يجهلون أن ما من خبرة كبيرة في الفن إلا وتشرع فى **مخاطرة بالنفس**، وأن الطريق الواجب اتباعها ليست فى الحقيقة تلك المجانبة بحواجز سلامة وأن على كل فنان أن يعيد، وحده، السعى للحصول على «**الجزة الذهبية**».

إن المعارضة، فى عام ١٩٤٢، تحتاج أكثر من أي وقت مضى أن تتقوى فى مبدئها. كل الأفكار المنتصرة تسير إلى هلاكها. ينبغى بكل وسيلة إقناع الإنسان أنه، متى اكتسب، غرض الموافقة العامة، فالمقاومة الفردية هى المفتاح الوحيد للسجن. لكن هذه المقاومة يجب أن تكون مطلعة وفطينة. إنى أخالف، فطرة، فى التصويت الإجماعى لكل هيئة لا تعتزم مخالفة كل تصويت إجماعى لهيئة أكثر منها عددا. لكن وبذات الفطرة، أمنح صوتى لأولئك **الصاعدين** مع أي منهج جديد يهدف إلى أعظم انعتاق للإنسان ولم يمروا، بعد، بتجربة الواقع. وبتأمل السير التاريخى المسلم بأن الحقيقة لا تظهر إلا للسخرية خفية، وأنها لم تدرك أبدا، أرجح تأييد تلك الأقلية المستمرة التجدد والعاملة كقوة رفع. وسيكون أقصى طموحى أن أترك معناها النظرى متداولاً بعدى إلى مالا نهاية.

عودة
الأب دوشين

إنه بالغ النشاط، الأب دوشين؟ أينما التفت، بوجهه أم بذهنه، فالظرابين هي، حقا، سيدة الموقف، هؤلاء السادة في البزات من قشارة قديمة، على شرفات مقاهي باريس، والعودة الظافرة لرهبان سيتو ولرهبان الصمت الذي كانوا اضطروا إلى ركوب قطار طرف قدمي، والصفوف الأبجدية في الصباح الباكر في الضواحي، بأمل الحصول على خمسين غراما من رئة حصان، على أن يتجدد ذلك، عند الظهر من أجل قلقاستين - بينما، بالمال، تستطيع الاستمرار في كل يوم على إملاء بطنك حتى التخمة عند لابيروز، والجمهورية مرسلة إلى الصهر كي يرجع أفضل ما صنعته ليبصق، رمزيا، في وجهك، كل هذا تحت نظر، وكريم رعاية، «شارب» مجمد، هو في سبيل تسليم الأمر، في العتمة، لصدرة من قيئ[1]. ويجب الإقرار بأن ذلك رائع، لكن، رغم هذا، سيصلح الشأن، سيصلح، سيظل صالحا، لا أدري إن كنتم تعرفون ذلك القماش الجميل المخطط بثلاثة فلوس متره، بل بالمجان في أوقات المطر[2]، الذي كان رجال الثورة يسترون به عوراتهم مع هدير البحر[3]، لم يعد يلبس كثيرا في الأيام الأخيرة، لكن عاد إلى الرواج بل سيعود بحماس شديد، إن الله يهبنا في هذه الفترة إخوة صغارا، سيعود مع هدير البحر، وسأكنسها لك[4]. هذه الكشاطة،

١ ـ الاحتلال الألماني والحكم الفرنسي المتعاون معه.
٢ ـ أي: ينهب: أوقات المطر: أوقات اضطراب الأحوال.
٣ ـ أي: قصف المدافع.
٤ ـ أي: ايتها الثورة.

من باب سانت أوان إلى باب فانف. وأطمئنك أن أحدا، هذه المرة، لن يقطع رأسى باسم «الكائن الأعلى» وأن ذلك كله لن يجرى حسب قوانين شديدة الدقة. وأن الوقت قد أزف لرفض أكل كل تلك الكتب لمستهترين يأمرونك بالتزام البيت دون الاستماع لجوعك. لكن، ويحك، أنظرى الشارع، أليس غريبا، أليس مريبا، أليس محروسا جيدا، ومع ذلك سيكون لك أنت، إنه رائع.

بما أن عالمية الفكر لم تعط أبدا، دون شك، للإنسان، وبما أن عالمية المعرفة قد انتهت، على كل حال، من أن تكون نصيبه، يجدر التحفظ شديدا حول الزعم الذى قد يخامر الإنسان العبقرى باستطاعته حسم مسائل تتجاوز حقل تحرياته، وتتعدى، إذن، طاقته. فالرياضى العظيم لا يظهر أية عظمة خاصة فى فعل لبس خفه أو فى اغترافه فى جريدته. إنما نطلب إليه، فى أحيانه، أن يحدثنا فى الرياضيات. ما من عواتق إنسانية يمكن أن تحمل العلم المطلق. وهذا العلم المطلق الذى أريد جعله صفة «لله»، طالما أمر الإنسان أن يطمح إليه، بمقدار ما يتوهم نفسه «على صورته». يجب التخلص فى ذات الوقت من هذين الهذرين. لا شئ مما أنشأه أو قرره الإنسان أهل أن يعتبر نهائيا وغير قابل المس، وبالأحرى، أن يغدو موضع قدسية إذا كانت هذا القدسية توجب التنازل لإرادة سابقة مؤلهة . على أن هذه التحفظات لا ينبغى لها، طبعا، أن تنقص من الأشكال **النيرة** للتبعية الرضائية وللاحترام.

وفى هذه المناسبة، وبما أن شيئا لم يعد يحجزنى عن ترك ذهنى يسرح دون مبالاة باتهامات «الروحانية» التى لن يبخل بها على، أعتقد من المستحسن، فى البدء، إقناع الإنسان بأنه ليس بالضرورة،

كما يتبجح، **ملك** الخليقة. إن هذا الرأى يفسح لى، على الأقل، بعض توقعات ذات قيمة على الصعيد الشعرى، الأمر الذى يحبوه، مهما قيل، ببعض فعالية بعيدة.

إن الذهن العقلانى الأملك لنفسه والأحدّ والأقدر على إخضاع كل العوائق فى حقل تطبيقه، لم يزل يبدو لى، خارج ذلك الحقل، قابلا لأعجب التساهلات. وستظل دهشتى، فى هذا الصدد، تتبلور حول حوار كان مخاطبى فيه ذهنا ذا مدى وضلاعة فائقين. كان ذلك فى باتزكوارو، فى المكسيك: سأرانا دائما نذرع البهو المطل على صحن مزهر يتعالى فيه، من عشرين قفصاً، صراخ الطائر الساخر. كانت اليد القوية النحيفة التى سيطرت على بعض أهم أحداث هذا العصر تتسلى بمداعبة كلب كان يجول حولنا. أخذ يتكلم عن الكلاب، ورحت ألاحظ كيف غدت لغته أقل دقة وفكرته أقل تطلبا من عادته. بلغ به الفتور أن أحب حيوانا وأن زعم له طيبا فطريا. حتى أنه تحدث كسائر الناس، عن الإخلاص والتضحية. حاولت، فى هذا الموضوع، أن أبين له ما هو كيفى دون شك فى إعارة الحيوانات عواطف لا يقوم لها معنى إلا بنسبة ما تعود إلى الإنسان، إذ سيدعو ذلك إلى اعتبار البعوضة قاسية الطبع والسرطان رجعيا متقصدا. وبدا واضحا أنه لم يرض أن يتبعنى فى هذا السرد: كان يحرص - وهذا الضعف يؤسى على البعد، نظرا للمصير المفجع الذى يقبل الناس أن ينتهوا إليه فى سبيل قضيتهم - كان يحرص أن يكون الكلب يحس نحوه، بكل معنى الكلمة: **بصداقة**.

على أنى لا أزال أعتقد أن هذا الإطلال بالتمثيل الإنسانى على عالم الحيوان يكشف فى أسلوب التفكير عن تساهلات مؤسفة، ولا

أرى بأسا ، لإفهام ذلك، من فتح النوافذ على أعظم المناظر المستحيلة. إن زمانا كالذي نعيشه يتحمل، إذا كانت الغاية التحذير من كل أساليب التفكير المتعارفة التى لا مراء فى عدم كفايتها، جميع الانطلاقات لرحلات على طريق برجراك وعلى طريقة غوليفير. وكل احتمال وصل إلى مكان، بعد انعطافات معينة، حتى فى أرض أَرضَى للعقل من تلك التى نغادرها، ليس مستبعدا فى السفر الذى أدعو إليه اليوم.

الشفافون العظام

قد لا يكون الإنسان مركز وقبلة أنظار الكون. ويمكن أن نذهب إلى اعتقاد أن توجد فوقه. في السلم الحيواني. كائنات تصرفها غريب عليه غرابة تصرفه هو على فراشة الماء أو الحوت. ولا شئ ينافي. بالضرورة. أن لا تخضع هذه المخلوقات مطلقا لجهاز استعلاماته الحسى بفضل تمويه من اي نوع يراد تخيله لكن نظرية الشكل ودراسة الحيوانات المشتبهة[1] تتيحان وحدهما إمكانه. ولاشك فى أن أوسع مجال من التخمين مهيا لهذه الفكرة رغم أنها ترمى إلى وضع الإنسان فى حالة التفسير المتواضعة لعالمه التى يحلو فيها للطفل أن يتصور النملة التى تحت حين يركل بقدمه بيت النمل. وانطلاقا من الاختلاسات من نوع الإعصار التى لا يملك الإنسان غير أن يكون ضحيتها أو شاهدها. أو التي من نوع الحرب. التى طرحت حولها نظريات شديدة النقصان، لن يكون مستحيلا خلال عمل واسع لاتنى تحكمه الاستدلالات الأبعد مجازفة أن تدانى حتى جعلها قابلة التصديق. هيئة وطبيعة مثل تلك الكائنات الفرضية التي نتراءاها. بشكل مبهم. فى الخوف وفى شعور المخاطرة.

وارى واجبا لفت النظر إلى أنى لا أبتعد كثيرا هنا عن شهادة نوفاليس: «إننا نحيا. فى الحقيقة. داخل حيوان نحن طفيلياته. وتكوين هذا الحيوان يحدد تكويننا. وبالعكس.». وانى لا أعدو أن اتفق مع فكرة وليام جيمس: «من يدرى أن لا نكون نشغل فى

١ ـ الحيوانات المشتبهة: هي التى تتلبس أشكال أو ألوان البيئة التى تعيش فيها، من رمل وتراب وحجر وأعواد أو أوراق شجر، حماية لنفسها أو تغريرا بفريستها.

الطبيعة مكانا بجانب كائنات لا نحس بوجودها، هو من الصغر كمكان قططنا وكلابنا العائشة معنا، فى منازلنا؟»، إن العلماء أنفسهم لا ينفون جميعا هذا الرأى: «ربما كانت تطوف حولنا كائنات مبنية على ذات هيكلنا، لكن مختلفة، بشر، مثلا لكن أحيناتهم مستقيمة». هكذا يتكلم إميل دوكلو، المدير السابق لمعهد باستور (١٨٤٠ـ١٩٠٤).

خرافة جديدة؟ هذه الكائنات هل يجب إقناعها بأنها تنتسب إلى السراب أم إفساح المجال لها لتكشف عن نفسها؟

حـول السـورياليـة
فى منجزاتها

حول السوريالية

في منجزاتها

ما من أحد، اليوم، إلا ويعلم أن السوريالية، كحركة منظمة، ولدت فى عملية واسعة المدى تناولت اللغة. ولن نكون مبالغين مهما نكرر فى هذا الشأن أن ثمار الآلية الشفوية والكتابية التى بدأت تحث تقدمها، لم تكن في أذهان مؤلفيها تتبع أى قياس جمالى. وما أن أفسح غرور بعض منهم لهذا القياس أن يجد ممسكا - الأمر الذى لم يلبث أن حدث - حتى زاغت العملية، والأدهى أن «حالة النعمة المبررة» التى جعلتها ممكنة قد تلاشت.

ماذا كان القصد إذن؟ لم يكن أقل من إقصاء سر لغة لا تظل عناصرها تتصور كحطام سفينة على سطح بحر ميت. كان ينبغى لذلك التملص من استعمالها بشكل أكثر فأكثر انحصارا في الغاية النفعية، وهو السبيل الوحيد إلى تحريرها وإلى إعادة تزويدها بكل طاقتها. هذه الحاجة إلى الرد بطريقة قاسية على بخس اللغة، والتى تأكدت هنا مع لوتريامون ورامبو وملارميه - كما تأكدت فى ذات الحين فى انجلترا مع ليويس كارول - لم تن تتبدى ملحة منذ ذاك. تدل على ذلك المحاولات، المتباينة الأهمية، التى تتوافق مع «الكلمات المنعتقة» فى «المستقبلية»[1]، ومع التلقائية البالغة النسبية فى «الدادائية»، مروراً بفيض نشاط «اللعب بالكلام» المتصل إلى حد «بسر الجرس» أو «بلغة الطيور» (جان بيير بريسيه، ريمون روسيل،

١ - المستقبلية: مدرسة فنية حديثة تزعم تقديم أحاسيس ماضية وحاضرة ومستقبلية فى وقت واحد.

مرسيل دوشان، روبير دسنوس)، ومرورا أيضا بهوج «ثورة الكلمة» (جيمس جويس، إ. إ.. كومنغز، هنرى ميشو) التى ما كان لها غير أن تؤدى إلى «الحرفية»[1]. وعلى الصعيد التشكيلى عكس التطور القلق ذاته.

رغم إرادة التمرد المشتركة ضد استبداد لغة استذلت تماما، التى تعبر عنها مساع كالتى تعكسها «الكتابة الآلية» المنشئة للسوريالية، و«المناجاة الباطنة» فى نظام جويس، فإن النهجين مختلفان جذريا فى أساسهما، وبصيغة أخرى إنهما قائمان على طريقتى إدراك للعالم متغايرتين كليا. فتيار الاستدعاءات الواعية الخادع سيقابله جويس بسيل يجهد ليجعله ينبثق من جميع الجهات، يرمى، فى نهاية الأمر، إلى **التقليد** الأقرب شبها بالحياة (وهو بذلك يبقى فى نطاق **الفن** ويتردى فى التوهم **الرومنسى**، ولا يتحاشى أن ينسلك فى سلسلة الطبيعيين والتعبيريين الطويلة. أما «الآلية النفسية الخالصة» التى تحكم السوريالية، فهى تقابل ذات التيار - على نحو يبدو أضعف جدا للوهلة الأولى - بسروب نبع ليس إلا أن نسبره عميقا فى ذاتنا، لكن ما أن نتعرض لتوجيه مجراه حتى يجف فورا. هذا النبع، لم يكن من شئ، قبل السوريالية، يمكن أن يعطى فكرة عن تدفقه المضئ غير بعض ترشحات لم يكن يؤمن بها، مثل الجمل المسماة «جمل شبه السبات» أو «جمل ساعة الاستيقاظ». وكان عمل السوريالية الحاسم أنها بينت تسردها المستمر. وقد أظهرت التجربة أنها تحوى القليل جدا من الكلمات المولدة وأنها لا تسبب تفككا فى التسلسل المنطقى ولا تبدلا فى المفردات.

إننا هنا، كما ترون، أمام قصد مباين إطلاقا لذلك الذى قد يكون

١ - الحرفية: مدرسة أدبية حديثة تجعل القيمة للحرف لا للكلمة.

انتواه جويس مثلا، فلم يعد الغرض **استعمال** توارد الأفكار المنطلق لتأليف عمل **أدبى** يسعى إلى التفوق بجراءاته على سابقيه، لكن لجوءه إلى حيل تعدد طرق لفظ الكلمة الواحدة وتعدد معانيها وغير ذلك يفترض مواظبة الرجوع إلى الاختيار. كان الكل، بالنسبة إلى السوريالية الاقتناع بالعثور على «المادة الخام» (**بالمعنى الكيمى**) للغة. صار يعرف، منذئذ، **أين** تؤخذ، ولا حاجة إلى القول إن لا نفع فى تكرارها حتى الإضجار. هذا للذين يعجبون أن تكون ممارسة الكتابة الآلية بيننا قد أهملت بتلك السرعة. لقد أبرزنا، بشكل خاص، حتى الآن، أن مقابلة حاصلات هذه الكتابة قد سلطت النور على المنطقة التى تقوم فيها الرغبة غير المقيدة التى هى أيضا المنطقة التى تبدأ منها التخيلات الخرافية فى الإنطلاق. إننا لم نشدد بما يكفى على معنى وأثر العملية التى كانت تهدف أن تعيد اللغة إلى حياتها الصحيحة، أى، عوضا عن الصعود من الشئ المدلول إلى الدال الذى يبقى بعد زواله، وهو أمر ستتبين مع ذلك استحالة، أن ينتقل، بوثبة واحدة إلى نشأة المعانى.

إن الروح التى تجعل مثل هذه العملية ممكنة، بل وقابلة للتصور ليست سوى الروح التى حركت، منذ الأزل، الفلسفة السحرية القاضية بأنه، مادام اللفظ هو أساس كل شئ: «فعلى الاسم أن يتأصل وإلا كان باطلا». ورفد السوريالية الرئيسى فى الشعر كما فى الشكلية هو أنها نشطت هذا التأصل لتجعل يبدو تافها كل ما ليس هو.

وكما تثبت، على بعد الزمن، فإن تعريف السوريالية في «البيان الأول» لم يفعل غير أن حقق أحد الأقوال المأثورة التقليدية الذى هو

أنه «يجب شق طبول العقل المعلل والتأمل فى ثقبه» مما سيسوق إلى أن تتوضح الرموز التي كانت، إلى حينه، مظلمة.

على أن السوريالية، خلافا للنظم المتنوعة التى تزعم القيادة نحو هذا السبيل والتمكين من التقدم فيه، لم يخطر لها قط أن تتغافل عن نقطة الفتنة التى تبرق فى الحب بين الرجل والمرأة. وما كان لها أن تستطيع مادامت تحرياتها الأولى قد أدخلتها، كما رأينا، منطقة الشهوة فيها هى الحاكمة. ثم أنها، على الصعيد الشعرى، مؤشر على إفضاء مسعى نظرى يهدف إلى إعطاء المرأة نصيبا أكبر فأكبر، يرجع فى أصله، على ما يبدو، إلى منتصف القرن الثامن عشر. فمن خرائب الدين المسيحى التى تمت فى حياة باسكال، خلصت، لا من غير أن يتعلق «الجحيم» فى البدء بخطاها، (عند لاكلو وعند سادو وعند مونك ليويس)، صورة مختلفة تماما للمرأة تجسد أرفع حظ للرجل وتتطلب، حسب الرأى الأخير لغوتيه، أن تعتبر لديه واسطة عقد البناء. تابع هذا الرأى مسيره، المتقلب جدا فى الحق، خلال الرومنسية الألمانية والفرنسية: «نوڤاليس، هولدرلين، كلايست، نيرڤال، السان سيمونيون، فينيى، ستاندال، بودولير)، لكن برغم الهجمات التى تعرض لها عند نهاية القرن التاسع عشر (هويسمان، جارى)، وصل إلينا كأن مصفى مما يمكن أن يظل يعكره، حاملا جميع ضيائه. واعتمادا على ذلك، لم يعد على السوريالية غير أن تعود إلى الوراء، حتى إلى أبعد مما ذكرت، - إلى رسائل هيلوئيز أو الراهبة البورتغالية - لنكتشف أى نجوم رائعة منتثرة على **خط القلب**. ومن وجهة النظر الشعرية التى اتخذتها، ما كان ليفوتها أن على مسار هذا الخط ارتفعت أغلب النبرات التى رقيت بالإنسان إلى

أعلى من مقامه، مسببة بذلك، من واحد إلى آخر، فى رجع متسلسل، نقلا حقيقيا للانفعال. وإلى المرأة عاد الفضل فى النهاية، سواء كانت صوفى ڤون كوهن، أو دجوتيما، أو كاتشن فون هيلبرون، أو أوريليا، أو مينا دو ڤانغل، أو «فينوس السوداء» أو «البيضاء»، أو إيڤا «منزل الراعى».

إن هذه الملاحظة غرضها التمكين من إدراك الموقف السوريالى فى حضور «الإنسان»، وهو الموقف الذى نظر إليه طويلا على أنه «رفضى»[١]. ففى السوريالية تكون المرأة قد أحبَّت ومُجِّدت كالوعد الأعظم، الوعد الذى يستمر بعد الوفاء به. إن علامة الاختيار الموضوعة عليها والتى لا تبين إلا لواحد، (شرط أن يعمل كل على اكتشافها)، تكفى لدحض زعم ازدواجية الروح والجسد. وفى هذا المستوى، من المؤكد تماما أن الحب الجسدى هو ذات الحب الروحى، وعلى الجاذب المتبادل أن يكون من القوة بحيث يحقق، بواسطة التكامل المطلق، الوحدة التامة، الجسمانية والنفسية معا. نعم، لا نبغى إنكار أن هذا التحقيق يصطدم بعقبات كبيرة. ومع ذلك، وطالما نظل جديرين أن نتطلبه، أى أن لا نكون، ولو بدافع الخيبة، قد أفسدنا فى ذاتنا فكرة مثل هذا الحب فى نفس منبعها، لن يقوى شئ فى الحياة أن يرجع على التعطش الذى نحتفظ به إليه. وحالات الفشل الأليم فى هذا السبيل (التى يمكن أن تعزى، فى أغلب الأحيان، إلى الاستبداد الاجتماعى الذى يقلص إلى أقصى حد إمكانات الاختيار وتجعل من الزوج التام هدفا تتمرن من الخارج على رميه جميع قوى التقسيم)، إن حالات الفشل تلك، ليس لها أن

١ ـ الرفضية: مذهب فلسفى وأخلاقى يتميز برفض كل واقع وكل اعتقاد.

تبعث على اليأس من ذلك السبيل نفسه. لأن الموضوع، هنا أكثر مما فى أى مكان، وبالدرجة الأولى، هو ضرورة إعادة تكوين الخنثى الأولى الذى تحدثنا عنه جميع الروايات المتوارثة وضرورة تجسيده، من خلالنا، بشكل واقعى، المرغوب فوق كل شئ.

وفى نطاق ذلك الأمل كان واجب التوقع أن الشهوة الجنسية، المكبوتة إلى حد كبير فى الوعى المشوش أو فى الوعى السئ عند المحرِّمين، ستتبدى فى التحليل الأخير، «فى هذا الجانب»، المضلل، المدوخ، الزهيد، الذى بنى الحلم الإنسانى على امتداده اللا محدود جميع ما «على الجانب الآخر».

إن فى هذا بيان كاف على أن السوريالية، هنا، تبتعد، قصدا عن أغلب المذاهب التقليدية التى تعتبر الحب الجسدى سرابا والحب - الغرام سكرا مؤسفا بالسطوع الكوكبى فى المعنى الذى يعد هذا السطوع مرموزا إليه مسبقا فى حية سفر التكوين. وبشرط أن ينطبق هذا الحب فى جميع نواحيه على وصفه الغرامى، أى أن يفترض **الاختيار** بكل دقة الكلمة، فهو يفتح أبواب عالم حيث، تعريفا، لا يمكن أن يكون شر أو سقوط أو خطيئة.

وموقف السوريالية تجاه الطبيعة تحكمه قبل كل شئ الفكرة الأصلية التى اتخذتها عن «الصورة» الشعرية. ومعروف أنها رأت فيها وسيلة الحصول، فى ظروف استرخاء كامل لا فى ظروف تركيز ذهنى بالغ، على بعض لمحات نارية تربط عنصرين من الواقع فى درجة من التباعد ما كان للعقل معها أن يقارب بينهما وتوجب التخلص لفترة من كل روح نقد كيما يفسح لها التجابه. هذه التعبئة المدهشة من البوارق من لحظة ما تكتشف طريقة توليدها وما تدرك

غزارة إمكاناتها، تقود الذهن إلى تمثل العالم وإلى تمثل ذاته تمثلا أقل إبهاما. حينئذ سيثبت، **بنفسه** على الأقل، وإن بشكل مجزأ، من أن «كل ما هو فى الأعلى مثل كل ما هو فى الأسفل» وأن كل ما هو فى الداخل مثل كل ما هو فى الخارج. وانطلاقا من هذا سيظهر العالم له كطلسم لا يظل معمى إلا بقدر ما ينقص المران البهلوانى الذى يمكّن، حين يراد، من التنقل بين شحنة وأخرى. ولن نكون مبالغين مهما ألححنا على أن المجاز، إذ يجد كل حرية في السوريالية، يخلف بعيدا وراء المشابهة (المصنوعة مسبقا) التى حاول إعمالها، فى فرنسا، شارل فورييه وتلميذه ألفونس توسونيل. ومع أن كلا المجاز والمشابهة متوافقان على تمجيد نظام «المطابقات» فإن بينهما المسافة التى تفصل بين التحليق الشاهق والزحف أرضا[١]. وليس يعسر على الفهم أن الشأن هنا ليس زيادة سرعة وسهولة الانتقال، بدافع غرور التقدم الفنى، بل التحكم فى الكهرباء الناقلة الوحيدة لجعل الصلات المرادة إقامتها، تؤتى حقيقة ثمارها.

حول أساس القضية الذى هو صلات الذهن الإنسانى مع العالم الحسى، تلتقى السوريالية هنا مع مفكرين متباينى الاتجاه من أمثال لويس كلود دوسان مارتان من جهة، وشوبنهور فى جهة أخرى، بمعنى أنها تقدم مثلهم وجوب «محاولة فهم الطبيعة حسب أنفسنا لا محاولة فهم أنفسنا حسب الطبيعة». على أن هذا لا يستدعى أبدا أن تكون تشاطر الرأى بأن الإنسان يتمتع بتفوق مطلق على الكائنات الأخرى كافة ، أو، بصيغة ثانية، أن العالم يجد فيه كماله الخالص،

١ ـ إن نظرية فورييه حول «المشابهة الغرامية أو اللوحة الهيروغليفية للأهواء الإنسانية»، مهما قيل فى سذاجة تطبيقه لها بل وفى الأمثلة المؤسفة التى يدعمها بها، تزخر مع ذلك باللمحات العبقرية.

وهو أقل تأكيد تبريرا وأسوؤه استعمالا لمذهب اعتبار الإنسان قياسا لسائر ما عداه. بل إن موقفها فى هذا الصدد قد يلتقى مع موقف جيرار دو نيرڤال كما هو معبر عنه فى القصيدة الأربع عشرية الشهيرة: «الأبيات المذهبة». أما بالنسبة للكائنات الأخرى التى كلما الإنسان أعلى السلم الذى أنشأه لنفسه كلما نقصت قدرته على تقدير آمالها وآلامها، فهو لا يستطيع إلا بتواضع تام أن يستخدم القليل الذى يعرفه فى التعرف على ما يحيط به[١]. والوسيلة الوحيدة التى يملكها، فى سبيل ذلك، هى القريحة الشعرية. فهذه، إذ أطلق لها العنان أخيرا فى السوريالية، تريد أن تكون، لا متمثلة فحسب لكل الأشكال المعهودة، بل مبدعة بجرأة لأشكال جديدة، أى أن تبلغ موقع الشمول لجميع بناءات العالم الظاهر أو غير الظاهر. إنها وحدها تزودنا بالخيط الذى يعيد إلى طريق الفلسفة الغيبية، باعتبارها معرفة «الواقع الحسى الفائق المرئى خفيا فى غموض أبدى».

١ ـ فى هذا القصد لا نرى أفضل ولا أحسم من رونيه غينون في كتابه: «حالات الكائن المتعددة»: من المستحيل الاعتقاد «بأن الحال الإنسانية تشغل مقاما متقدما فى مجموع الوجود العالمى، أو أنها، ميتافيزيقيا، متبينة بالنسبة إلى الحالات الأخرى بحيازتها لأى نوع من الامتياز. هذه الحال الإنسانية ليست فى الواقع غير حالة ظهور كسائر الحالات، وبين عدد لا يحصى ملئها. وتقع فى تسلسل درجات «الوجود» في الموضع الذى هيأته لها طبيعتها ذاتها، أى الصفة التحديدية للشروط التى تعينها. وهذا المكان لايمنحها أفضلية ولا انحطاطا مطلقين. وإذا كان علينا أحيانا أن نتصور هذه الحالة بوجه خاص، فذلك، إذن، لأنها، بسبب كونها الحالة التى نحن موجودون، واقعا، فيها، تحظى بالنسبة إلينا، وإلينا وحدنا، بأهمية خاصة. وما تلك إلا وجه نظر نسبية تماما ولا داعى لوجودها، وجهة نظر الأفراد الذين نحن هم في طريقة ظهورنا الحاضرة». على أن هذا الرأى عندنا غير مستعار مطلقا من غينون لأنه بدا لنا دائما من بديهيات المنطق السليم (حتى لو لم يكن توزيع هذا المنطق السليم بين الناس متساويا).

الكتاب الثانى

الأوانى المستطرقة

نظير الكتاب

فى هذا الكتاب يعمل أندريه بروتون على إثبات أن العالم الواقعى وعالم الحلم لا يشكلان سوى عالم واحد، ويفحص فى مختلف النظريات التى عرضت تأويلا للحلم ليقف طويلا عند نظرية «فرويد».

لكن وحدة الحلم والواقع تمر، فى رأى بروتون، فى تغير اجتماعى عميق، على أن ما يتحرى التوصل إليه، تجاوزا للتحول الثورى، هو «صيرورة الإنسان الأبدية».

المركيز «هيرفيه سان - دنيس» صاحب ترجمة لأشعار صينية من عهاد «تانْغ»[1] وواضع كتاب غُفْل[2] صدر عام ١٨٦٧ بعنوان «الأحلام ووسائل توجيهها - ملاحظات عملية» وندرت نسخه حتى أن «فرويد» و«هافلوك أليس» اللذين خصاه بالذكر، أعجزهما الحصول على واحدة، وقد يكون أول رجل اعتبر ممكنا، دون لجوء إلى السحر المنحطة وسائطه آنذاك إلى بضع حيل عويصة، أن يذلل استعصاء أحلى النساء ويجعلها تستسلم بسرعة إلى رغبته. فهذا المسترسل فى الخيال الذى تبدو لنا حياته، من خلال كل ما يقول، بالغة العقم كوَّن لنفسه فيما يشبه التعويض، تصورا لما يحتمل أن ينتظره وهو مغمض العينين أصدع مما خرج به معظم أرباب العلم الذين قاموا بدراسات فى ذات الموضوع، وكان «هيرفيه» أوفر نجاحا من بطل «القهقرى لهويسمان» - هذا إلى أنى أظنه كان يتبع هواه متقويا برفعة منزلته الاجتماعية فلا يبالى بما يفعل - واستطاع دون اختلال ذهنى بيِّن، أن يحصِّل جملة لذات خالصة لا تقل إمتاعا، على الصعيد الحسى - عن انتشاءات «ديزيسانت» ولا تخلف فى المقابل سأما ولا ندما. وهكذا كان مرس[3] جذر سوسنة، هيأ مسبقا فى اليقظة ارتباطا بعدد من التمثلات المطربة المستوحاة من أسطورة «بيغماليون»[4] يُنجِم له فى أثناء نومه، لدى دس هذا الجذر فى فمه،

١ - أسرة «تانغ» Tang أو Thang أسرة امبراطورية حكمت الصين من عام ٦١٨ إلى عام٩٠٧.

٢ - الكتاب الغفل: الذى لا يحمل اسم مؤلفه.

٣ - «المرس» (أو «المرث») للجامد كالمص للسائل.

٤ - «بيغماليون»: فى الأسطورة الإغريقية نحات قبرصى صنع تمثالا حجريا لإلهة الماء «غالاتيه» وعشق التمثال وتوسل إلى إلهة الجمال «افروديت» فقلبت التمثال إلى امرأة حية وتزوجها، وقد اقتبس الموضوع، بنجاح مختلف، كثير من الأدباء كان أشهرهم «برنارد شو» فى تمثيليته «بيغماليون» التى أخرجتها السينما بعنوان «سيدتى الجميلة».

بفعل يد متواطئة، مغامرة عاطفية شائقة، ومع عدم استعجابى فى الصحيح من هذه النتيجة فإنى أميل إلى تصنيفها بين فتوحات القرن الفائت الشاعرية، غير بعيد عن تلك التى جسدت، على مسئولية «رامبو» تطبيق مبدأ احتياج الشاعر إلى بعث «الشواش» الكامل المتعمد فى حواسه كافة، بيد أن رفد صاحب ذلك الكتاب ما كان يتعدى إمكان التزويد بإضافة إلى الأسلوب السالف الذكر، فى التعبير وبالتالى فى المعرفة لولا انسياقى فى أن أرى فيه مجال توفيق جرئ بين الحدين المتطرفين النازعين إلى المضادة، لصالح مفهوم خلطى(١) بين عالم الواقع وعالم الحلم، أى إلى عزل هذين العالمين عن بعض وجعل اتباع أحدهما للآخر أمرا شخصيا بحتا يظل الانفعال فيه حَكَما، ولولا ظنى ممكنا أن يجرى بهذه الواسطة التحويل المتزايد الضرورة، «إذا تأملنا التبلبل المتفاقم فى أشعار زماننا» من المتخيل إلى التجربة المعاشة، وبصيغة أدق إلى التجربة الواجب أن تعاش، ولولا تبينى أن فى هذا فرجة ما أن نعبرها حتى نصبح، خارج هيكل الشعراء المتداعى، فى قلب الحياة الحقيقة.

حبذا لو تيسر أن نعرف قبليا بأية طريقة تروَّض القوى المكونة للحلم بحيث لا ينحرف العنصر العاطفى المشرف على تشكله عن الغرض الذى ارتبط به جاذب خاص لدى اليقظة. فما من أحد عانى مرة حالة حب تمالك أن لا يأسف لتآمر الصمت والإعتام الحاصل فى الحلم حول شخص المحبوب بينما ينصرف فكر النائم بكليته إلى شئون تافهة. ما السبيل إلى الاحتفاظ من حياة اليقظة بما يسبق أن يُحفظ ولو لمجرد أن لا يبدو الإنسان غير جدير بما هو الأفضل فى

١ ـ المفهوم الخلطى Philosophie Confusionnelle (فى علم النفس) اضطراب الذهن بحيث يتعذر القيام بتحليل موضوعى للوقائع.

تلك الحياة نفسها؟ هذا وخليق بالتنويه أن وجِدَ رجل حاول تحقيق رغباته عمليا فى أحلامه قبل زمن طويل من رواج النظرية التى غدت الآن شبه مسلمة والقائلة إن الحلم هو دائما تحقيق رغبة.

فبالاتفاق مع قائد فرقة موسيقية كانت له شهرة آنذاك على أن يعزف له حصرا لحني فالس معينين كلما راقص سيدتين لهما مكانة فى قلبه بحيث يصبح كل من اللحنين مهدى ومخصصا قصرا لإحداهما، ثم بالإعداد قبل النوم لتكرار خفيض لأحد هذين اللحنين فى ساعة مبكرة من الصباح بواسطة جهاز بارع الابتكار مؤلف من منبه عادى ومن صندوق موسيقى، استطاع «هيرفيه» أن يستضيف فى حلمه هذه أو تلك من السيدتين وأن يسند إليها الدور الرئيسى فى الرواية التى يمثلها له الأشخاص الثانويون في تفكيره اللاواعى.

من المؤسف أن مثل هذه التجربة الحاسمة لأول وهلة لم تتم فى ظروف تتيح استبعاد كل احتمال خطأ أو وهم. فلم تكن الدقة، لسوء الحظ، أكبر صفات المؤلف اللطيف التخيل لكن المفرط الادعاء، الأمر الذى يبعث اعتراضا جوهريا على الفور: أن أيا من مراقصتى المركيز لم تتبين ذات مقدرة على أن تستأثر باختياره فى الحياة الواقعية، مما يرجح أن تكون قضية الحلم بالنسبة إليه عبثا بحتا، فالشغف، بكل ما يحتويه من مبهر ومن مرهب معا، لم يكن دون أى شك، معنيا، والانفعال العاطفى، الذى اختير أو قُبل أن يكون مزدوج الرجع، بديهي أن يكون أيضا خفيف الوقع سهل التحمل. لذا لا تعتبر النتيجة جازمة من هذه الناحية، ومن ناحية ثانية كانت الإرادة الواعية كافية لتوجيه الحلم دون حاجة إلى صندوق موسيقى أو على الأقل إلى أنغام بذاتها تفضيلا على ما سواها. وأخيرا، ونظراً إلى

أن أحد اللحنين فقط تبين مؤاتيا لاستحضار إحدى الصورتين الأنثويتين المرسومتين مقدما، وإلى أنه يعود إلى الراصد، قبل استسلامه للنوم، اختيار اللحن الذى يرغب، يجوز لنا الظن أنه كان يضحي سلفا، عمدا أو سهوا، بإحدى السيدتين فى سبيل الثانية، وأن كل جملة موسيقية عاملة هنا عمل جذر السوسنة، كان من أثرها التذكير حصرا بتلك التى تشغل بال الحالم حقا، من غير أن تكون مقصودة أو متوقعة صراحة.

ليس أسخط للنفس، أقولها دون مواربة، من رؤية الإزراء الذى تناول بحث مسألة الحلم منذ العصور القديمة إلى اليوم. إن (تفاسير أحلام) مبتذلة لا تزال تتداول، كريهة كالعملة الرديئة، فى واجهات المكتبات المسماة زعما شعبية. وعبثا يحاول المرء أن يكتشف فى أعمال الفلاسفة الأقل تحيزا فى الأزمنة الحديثة ما يشبه تقويما نقديا أو أخلاقيا للاعتلاج النفسى كما يجري دون توجيه من العقل. وإنما يُخرَج من تلك الأعمال. بالخوف من الاعتقاد مع «كانط» بأن وظيفة الحلم هى «ولا ريب» أن يبين لنا ميولنا الخفية وأن يظهرنا لا على ما نحن عليه، بل على ما كنا سنصيره لو أننا تلقينا تربية غير تربيتنا(؟)... أو مع «هيغل» بأن الحلم لا يحوى أى ترابط يقبله العقل، إلخ... وفى صدد هذا الموضوع يجب الاعتراف بأن الكُتّاب الاشتراكيين، وعلى رأسهم الماركسيون، اعتمادا على ما يمكن أن نطلع عليه حاليا من أعمالهم فى فرنسا[١] كانوا أقل إيضاحا. أما الأدباء الروائيون، الذين يجدون مصلحة فى عدم جلاء الموضوع، الأمر الذى يتيح لهم على مدى سنين استغلال منجم قصص يزعمون

١ ـ نذكر القارئ بأن المؤلف الذى يقرؤه وضع فى عام ١٩٣١ ونشر فى عام ١٩٣٢.

باطلا ملكيتهم له، (مع أن التخيل الخرافى مُلك للجميع) فقد اقتصروا عوما على استثمار إمكانات التصور بدلا من إيراد الأحداث الواقعية وذلك لفائدة قوى المحافظة الاجتماعية التى ترى فيه بحق محولا ثمينا عن التفكير بالثورة، وعلماء النفس المحترفون الذين تقع عليهم كمرجع نهائى مسئولية التقرير فى شأن الحلم لم يعد عليهم والحالة هذه سوى أن يدفعوا أمامهم، كما تدفع الجعلان، كرة الآراء الخطلة التى مازالوا يدحرجونها منذ أمد سحيق. وقد لا يبدو شططا القول، تجاه المراوغات والمراوحات التى ألفناها فى «آخر العلوم» الذى يمارسه أولئك السادة: إن «لغز الحلم» الذى جرده أولئك المختصون، كالعادة، من كل دلالة حياتية، يهدد بالتحول إلى أشد الأسرار الدينية إفسادا للذهن.

لو كان لى استقصاء أسباب الإهمال المستديم من قبل أرباب الفكر المتوقع أن نجدهم خبيرين بهذا الجانب الأكثر تحييرا من الفعالية الإنسانية والمشترك بين كل بنى البشر والعديم الأثر، ظاهريا، على صعيد العيش المادى ـ فنسيان الأحلام الجزئي وصرف الانتباه عنها القصدى لم يستطعا جعلى أعتبرها عقيمة ـ لاستشهدت أولا دون أى شك بالواقع المسلم عالميا به وهو أن القوى المنظمة للفكر لا تحب إعارة شأن للقوى التى تبدو مشوشة له. ولا عجب فى أن الذين تمتعوا إلى أقصى حد بتلك أحجموا غريزيا عن التقويم الدقيق لهذه. فوقار المرء يزعزعه جدا محتوى أحلامه لذا لا يجد داعيا فى الغالب إلى تأملها وبالأحرى إلى روايتها وهو مالا يتناسب فى أحيان كثيرة مع طابع الجد الذى يقتضيه، إذا كان ينبغى التعليم، عرضه لمنجزاته. ولا ينقص ذلك من أسفنا على أن الصفة المضحكة غالبا للمغامرة الليلية

تجبره أن يخفى عنا هذا الوجه المتقلب والمعبر جدا من ذاته.

ومع الانعدام المتعمد لكل مراقبة يمارسها العلماء الخليقون بهذا اللقب على مناشئ وغايات الفعالية الحلمية وسع آراء الحط من هذه الفعالية وتفخيمها المفرط أن تأخذ بحرية مجراها، وحتى عام ١٩٠٠، تاريخ صدور «علم الأحلام» لفرويد، تتابعت النظريات الأقل إقناعا والأشد تناقضا، مائلة إلى جعلها من باب المُهمل أو المُبهم أو الخارق. وتواترت المشاهدات «المتجردة» وما من مؤلّف أجاب بوضوح على هذا السؤال الأساسى: «ما هو شأن الزمان والمكان ومبدأ السببية فى الحلم؟». إذا تذكرنا الجدال المستمر فى الفلسفة بيَن أصحاب المذهب القائل إن هذه الحدود الثلاثة تتوافق مع واقع موضوعى، وبين مؤيدى المذهب الآخر القائل إن لا دور لها سوى الدلالة على صور مجددة للتأمل الإنسانى، أقلقنا أن لا مَعلَم وضِعَ تاريخيا فى هذا الصدد. مع أن فى هذا الموضوع أكثر مما فى سواه، مجالا للفصل بين المتنازعين الألداء، ويزيد فى تفاقم نهمنا أن المراقبين القلة للحلم، الذين يبدون فى الوضع الأفضل، والذين توفر شهادتهم ضمانة أصدق، والأطباء خاصة، تحاشوا أو أغفلوا إعلامنا - من حيث مواقعهم المادية أو المثالية - فى أى طرف من النزاع يقفون، وكما هو الأمر فى ميدان العلوم الطبيعية الذى يأتلف فيه نوع من مادية حدسية صرف بدائية ذات صفة مهنية بحتة مع الإيمان بالله والأمل بحياة أخروية، يغلب الظن أن المراقبين المذكورين لم يكونوا على بينة فى هذا الحقل. فلابد لنا إذن أولا من أن نصلح عنهم إلى حد ما هذه الثغرة. ويحسن بأى ثمن التخلص من هذا التواضع العلمى الزيف دون تحويل النظر عن أن تجرد هؤلاء السادة المزعوم وتكاسلهم عن

التعميم أو الاستنتاج أو النقل إلى الصعيد الإنسانى الدائم التحرك لما يظل إن لم يفعلوا سر مختبر أو مكتبة، ليس سوى قناع اجتماعى موضوع من باب المحاذر ويجب رفعه دون مداراة من قبل الذين قدّروا نهائيا أنه بعد كل تلك التأويلات للعالم حان الوقت للانتقال إلى تحويله.

إن منظرى الحلم الرئيسيين لمجرد أنهم لا يميزون أو يميزون بين نشاط اليقظة النفسى ونشاط النوم وأنهم فى الحالة الثانية يعتبرون نشاط الحلم كانحطاط لنشاط اليقظة أو كتحرر ثمين من ذلك النشاط، يعرفوننا هكذا بأكثر مما يريدون على أسلوبهم العميق فى التفكير وفي الشعور. فى المدرسة الأولى يتصنف عفويا المؤمنون في وعى متباين بالمادية البدائية، وفى المدرسة الثانية (سبات الدماغ جزئيا) مختلف المفكرين ذوى النزعة الوضعية[١] وفى الثالثة، وباستثناء الروحانيين الخُلّص، المثاليون الخياليون. وجميع تيارات الفكر الإنسانى تجد نفسها ممثّلة هنا بالطبع. وبين الاعتقاد الشعبى بأن «الأحلام تأتى من المعدة» أو «بعد النوم يتابع أيّة فكرة كانت» وبين تصور «المخيلة الخلاقة» من السهل اكتشاف الآراء المتوسطة المألوفة: اللا أدرية[٢] والاصطفائية[٣]، على أن تعقد المسألة وعدم الكفاءة الفلسفية لدى البعض من الباحثين الأفضل أهلية فى الظاهر من ناحية القدرة على الملاحظة، كثيرا ما أتينا بالاستنتاجات الأبعد عن المنطق. فدعما للنظرية ذات الزعم المادى القائل إن الذهن يعمل فى الحلم بشكل طبيعى فى ظروف غير طبيعية انتهى بعض المؤلفين،

١ ـ الوضعية Positivisme فلسفة تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية مهملة كل تفكير تجريدى فى الأسباب المطلقة.

٢ ـ اللا أدرية agnoticisme مذهب يقول بإنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة.

٣ ـ الاصطفائية electisme مذهب فلسفى يأخذ بالأفضل من كل فكرة.

فى تناقض ظاهر إلى جعل أولى مميزات الحلم انتفاء الزمان والمكان (هافنر) الأمر الذى يحط الحلم إلى مستوى مجرد تمثلات فى اليقظة. وأنصار النظرية القائلة إن الحلم لا يتعدى أن يكون فى الحقيقة يقظة جزئية ولا قيمة له إلا كحدث عضوى صرف ينتهون إلى أن يدخلوا فيه من جديد العنصر النفسانى فى شكل بدائى (دولاج). وأخيرا إن حجج المتحمسين للحلم بوصفه فعالية فائقة خاصة تنهار باستمرار أمام تأمل السخافات الفاضحة التي ينطوى عليها محتواه الظاهر على الأقل، إن لم يكن بأكثر من ذلك أمام الفائدة المفرطة التى يمكن للحلم أن يستمدها من إشارات حسية واهية. و«فرويد» نفسه الذى لم يفعل على ما يبدو، فيما يتعلق بالتأويل الرمزى للحلم، غير أن تبنى آراء «فولكلت» المؤلف الذى أغفل اسمه إغفالا ذا دلالة فى جدول المراجع المثبت فى آخر كتابه المذكور آنفاً، «فرويد» الذى أُخذت كل مادة الحلم فى كتابه من الحياة الواقعية، لم يقاوم إغراء الإعلان «بأن الطبيعة الصميمية للاوعى (الحقيقة الجوهرية للنفسانى) مجهولة لنا بقدر جهلنا لحقيقة العالم الخارجى»، معطيا بذلك براهين مؤيدة لذات أولئك الذين كاد نهجه يلحق بهم أقسى هزيمة. وفى هذا ما يدعو إلى الظن أن أحدا، هنا لا يجرؤ على مقاومة الإهمال والتهاون العام ويصح والحالة هذه التساؤل عما إذا كان الحرج الواضح فى كل جهة لا يدل على أن المسألة تمس نقطة بالغة الحساسية وأن الجميع يخشون فوق كل شئ من التعرض للشبهة. وربما تعلق الأمر بأكثر مما نحسب، من يعلم؟، بالتفسير الجامع الذى سيوفق بين المادة وبين قواعد المنطق الصورى التى بينت حتى الآن عاجزة لوحدها عن تحديد ماهيته، مما يبعث الارتياح لدى

الرجعيين من كل نمط. وقد كتب فرويد. «خلا ذات الكُتّاب الدينيين والروحانيين الذين هم على حق كبير فى الحفاظ - طالما لم تطردهم منها تفسيرات العلوم الطبيعية - على بقايا العالم الفائق البالغ الاتساع فى القديم، نجد رجالا أريبين ورافضين كل فكرة مجازفة يسعون إلى دعم إيمانهم بوجود وبفعل القوى الروحية الخارقة، بالطبع المغلق لرؤى الأحلام بذاتها. ولابد من الاعتراف بأن الاعتماد على الإيمان يجد حقا سبيله للنفوذ هنا من جميع الجوانب، وقضية المسئولية فى الحلم المثارة ببراعة، لم تنجح فى أن تضم إليها وحسب كل الذين كانوا يريدون التسليم، لسبب ما، بمثل هذه المسئولية، بل ضمت أيضا كل الذين كانوا يعتبرون هذه الفعالية الفكرية، غير المراقبة بما يكفى، مهينة أو مضرة» ويندرج في الصنف الأول «شوبنهاور» و«فيشر» وفى الصنف الثانى «شبيتا» و«مورى» ومن المؤسف جدا أن «فرويد» بعد أن اكتشف تجريبيا وأبرز بوضوح فى الحلم عنصر توافق المتضادات وأظهر أن الأساس اللاواعى العميق للإيمان بحياة بعد الموت لا يرجع إلا لتأثير التخيلات والأفكار اللا واعية على حياة ما قبل الولادة، من المؤسف جدا أن الوحدانى[١] «فرويد» انساق فى النهاية إلى هذا التصريح الذي أقل ما يوصف به أنه مبهم، وهو «أن (الحقيقة النفسانية) حالة وجود مستقلة ينبغى عدم لبسها (بالحقيقة المادية)»[٢]! لماذا حمل إذن فى صفحة سابقة على «ثقة علماء النفس الضعيفة فى متانة الترابط السببى بين الجسد والروح»؟ وأخطأ «فرويد» كذلك بكل تأكيد فى استخلاصه

١ - الوحدانى Moniste المؤمن بمذهب فلسفى يقول: ليس هناك سوى نوع واحد من الحقيقة.

٢ - الحقيقة Réalité تأتى أيضا هنا بمعنى الواقع.

عدم وجود الحلم النبوئى - أعنى الحلم المتعلق بالمستقبل الفورى - لأن اعتبار الحلم كاشفا حصرا للماضى إنكار لأهمية التحرك الحياتى. وجدير بالملاحظة أن «هافلوك أليس» فى نقده نظرية فرويد «بأن الحلم يحقق رغبة لم يفعل إذ قابل ذلك بالحلم – الخوف» سوى أن أبرز عند «فرويد» وعنده هو الافتقاد شبه التام للتصور الجدلى[١] ويبدو أن هذا التصور لم يكن مجهولا لدى «هيلدبرانت» وهو صاحب مؤلف صدر عام ١٨٧٥ أورِدَت منه فى «علم الأحلام» استشهادات وفيرة: (فى الوسع القول إِن الحلم، فى كل ما يعرضه، يستمد عناصره من الواقع ومن حياة الفكر المتطورة بدءا من هذا الواقع، وأنه، مهما غرب ما يأتي به، لايمكنه أبدا مع ذلك الانفلات من العالم الواقعى، ولابد لخلائقه الأسمى والأقبح من أن تأخذ أصلها مما يظهره العالم الحسى أو مما خامر على وجه ما فكر اليقظة». غير أن المؤلف الذى يقرر من ناحية أخرى أنه كلما طهرت الحياة طهر الحلم يتحدث، للأسف، عن الشعور بالذنب فى الحلم، على منوال محاكم التفتيش القديمة وينصب نفسه دسا كروحانى. وهنا أكثر مما فى أى مقام آخر يصدق قول لينين: «هناك دلالة عظيمة فى أن ممثلى البورجوازية المتعلمة، كما الغريق المتمسك بقشة يلجؤون إلى أشد الوسائل تفننا لإيجاد أو لإبقاء مكان صغير «للإيمانية» المتواجدة فى الطبقات الدنيا من الجماهير الشعبية نتيجة الجهالة والغباء والفظاعة المنكرة للتناقضات الرأسمالية».

١ ـ الجدلية Dialectique: فن حوار يرتفع فيه الفكر من المحسوس إلى المعقول في نظرية أفلاطون ـ واستدلال على وجه الاحتمال حسب أرسطو ـ ومنطق حسب كانط ـ وإبراز تماسك المتناقضات ووحدتها حسب هيغل ـ وفى المفهوم العام الحديث: استدلال يعتمد تناقض واختلاف الأفكار ليصل فى النهاية إلى ضمها فى صيغة تركيبية.

لا عجب، أمام الموقف العام الذى اتخذه الكُتاب المذكورون آنفا المتراوح بين التعصب الدينى وإرادة الاستقلال حيال الأطراف المتنازعة (ذلك الاستقلال المزعوم الذى يخفى أذل التبعيات (فى التوجه الاعتباطى لمعظم الأبحاث المتناولة الحلم. فمسألة الحيز الفعلى كميا الذى يشغله هذا فى النوم على شدة خطرها تكاد لا تستوقف نظر جامعيينا الرصينين. وإذا كان «هيرفيه»، غير المجاز فى الطب أو الفلسفة، لم يتردد فى تأكيد أن لا نوم بلا حلم «وأن التفكير لا يهجع أبدا بصورة مطلقة» فإن الشك الجذرى الذى لم يزل علم النفس يقيمه حول أمانة الذاكرة بدا للمراقبين الآخرين مبررا حول هذا الموضوع لتحفظ شبه مطلق. وكرم منهم فوق ذلك إذا تكلفوا عناء شرح موقفهم فى هذا الأمر، فنجد «فرويد» هنا من أقل الدارسين جزما. على أن رأيا شبيها برأى «هيرفيه» صدر بشكل معتدل عن «مورى» الذى بروايته حلمه الشهير عن المقصلة خال أنه أظهر بوضوح الطابع التوهمى لتذكار الحلم وزعم إقامة البرهان على أن كل البناء موضع البحث يتركب فى الثوانى القليلة التى يقتضيها الاستيقاظ إذ يبادر الفكر إلى تأويل استرجاعى للسبب الخارجى الذى وضع نهاية للسبات. وأكد «فوكو» من جانب ثان أن الترابطات المنطقية التى يحسب الفكر أنه وجدها فى الحلم إنما يضيفها لاحقا للوعى المستفيق. وهذه النظرية التى تتبدى فى آخر الأمر مندمجة مع النظرية الذرائعية[1] حول الانفعال تنزع هنا إلى تقليص الحلم قدر المستطاع لدرجة مماثلته بنوع من دوار ذهنى انتقالى وقصير الأمر جدا. ويرفد «هافلوك أليس» هذه النظرية بتأييد فاتر. ومن المحزن فى

١ ـ الذرائعية Pragmatisme مذهب فلسفي يرى أن صحة الأفكار فى قيمة عواقبها العملية، فالحقيقة تعرف «بنجاحها».

هذا الصدد أن الحجج المقدمة من جانب ومن آخر لا تحمل إلى الآن ما يوجب اقتناعنا، حتى كأن القوة العظيمة المعروفة باسم «الإيحاء» (و «الإيحاء الذاتى») ستستمر طويلا فى مخاتلة كل الذين يحاولون هتك حرمتها، لقد أمللنا سماع التحدث عن إساءاتها على مدى قرن. وفى الميدان الطبى - قبل «فرويد» - لازال فى وسع «شاركو» و «بيرنهيم» وغيرهما الكثير، أن يحاضرونا عنها علميا (أليس مذهلا أن نشاهد «فرويد» وتلاميذه يوالون معالجة حالات فالج شقى هيستيرى وشفاءها - فيما يدَّعون - بينما ثبت بأكثر من دليل منذ عام ١٩٠٦ أن هذا الفالج الشقى الهيستيرى غير موجود والأصح أن رأى «شاركو» المفرط الجزم هو الذى ابتدعه؟) وسأكون عاتبا على نفسى إن لم أشر دون مزيد من الإبطاء إلى أن «هيرفيه» لأنه توصل بفعل الاعتياد إلى تذكر عدد من الأحلام أكبر فأكبر، كان فاسد الرأى جدا إذ استنتج الاستمرار التام للفعالية النفسانية خلال النوم ومجرد تقصير الذاكرة فى متابعة ذلك الاستمرار. كما أن هناك حاجة إلى إثبات أنه لم ينجح فى توسيع حدود تلك الفعالية إلى أبعاد هائلة بإخضاعها إلى امتحان ملاحظته الدائمة، إن هذا الإجهاد الفكرى الفريد ربما كان من شأنه أن يجعله فى أحوال فساد ذهنى خاص به وأن يُفقد استخلاصاته الموضوعية اللازمة. إن «هيرفيه» يرى نفسه يحلم فى كل آن يلاحظ نفسه يحلم، أى فى كل حين توقع فيه أن يحلم. وهذا كثير فى الظاهر، أما فى الواقع فليس بشئ. وتأكيد «مورى» المتناقض ليس أقوى إثباتا. ذلك أنه أخبرنا بعد طول سنين كيف أن سقوط قبة سريره على عنقه فى إحدى الليالى «كان كافيا» لإنجام سلسلة من التمثلات المقتبسة من تاريخ الثورة اختُتمت

بإعدامه على المقصلة. فلا شئ يبرر فى اعتقادى ذلك اللجوء إلى الذاكرة «الخائنة» والقبول الأعمى لشهادتها، بعد مثل هذا الزمن الطويل. إذ فى هذا تناقض يمنع التصديق. لست أجهل من ناحية أن «مورى» كان يعتبر «روبسيير» و«مارا» كأسوأ شخصين فى حقب رهيب (فهو إذن «مريب» لم يتعد أن حلم بنفسه مريبا) والحدث المادى الذى ينهى الحلم لا يكفى من ناحية أخرى لإبعاد افتراض عدد قليل من الظاهرات المنبئة التى قد تكون حدثت فى أثناء النوم أو خلال اليقظة قبل سقوط قبة السرير. وأخيرا، إن الحلم الذى، مع مباهاته بعدم الانتماء إلى أية شيعة فلسفية، يتحدث عن كرامته كخلق من الله، لديه - وهو ما ينبغى عدم نسيانه - كل الأسباب الخاطئة لاستخلاص سرعة التفكير الخاطفة فى الحلم، تلك السرعة التى تسهم - حسب ظنه - خلال السبات فى محو مفهوم الزمن لدينا متيحة له أن ينقل الزمن الفعلى إلى الصعيد النظرى الصرف. إذن فلا شئ أقل تجردا من هذا الإسهام الأخير فى دراسة الحلم، وما من شئ يمتنع من جعلى، رغم النجاح الذى ناله هذا الإسهام، أجد نفسى محقا فى اعتباره باطلا ولاغيا.

وبما أنى إلى الآن لم أختص فى دراسة الموضوع ولتقديرى أنى لم أقع على حجج دامغة بما يكفى للجزم فيه فسأتبنى من جهتى - لكن من باب الافتراض فقط - أى حتى ثبوت العكس أو إمكان توفيقه جدليا مع ذلك العكس - الرأى القائل إن الفعالية النفسانية تظل تعمل فى أثناء النوم بشكل مستمر. إذ أقدر أولا أن قراراً اعتباطيا من هذا النوع هو الوحيد الذى يمكنه الإسهام فى جعل الحلم يعود يوما إلى إطاره الصحيح الذى لا يمكن أن يكون سوى حياة الإنسان،

وثانيا إن طريقة التفكير هذه أكثر مطابقة من أى سواها لما نستطيع أن نعرفه من عمل الذهن عموما. ولا أرى فائدة نظرية ولا فائدة عملية من أن أفترض الانقطاع والاتصال يوميا فى التيار اللذين يقتضياهما التسليم براحة تامة وبالعتبة الواجبة اجتيازها لا أدرى كيف، دخولا وخروجا، بل قد يحصل منه ضرر جسيم من حيث الانتفاء هذا البالغ الغرابة للإنسان المُبعَد كل ليلة عن إدراكه، المقطّع فيما يخص وعيه، والمدعو إلى تصعيد ضميره روحانيا إلى حد خطير.

وسواء أُعطِى الحلم هذا المقدار أو دونه من الدوام (وفى الحالة الأولى سيستغرق - مع حساب لحظات العتمة النفسانية فى اليقظة - نصف الحياة الإنسانية على الأقل)، لا يمكن صرف الاهتمام عن الشكل الذى يتجاوب الفكر به فى الحلم، إن لم يكن إلا لاستخلاص وعى أكبر وأوضح لحريته. وعلى الرغم من أن ضرورة الحلم غير معروفة فجلى أنها موجودة. لذا فى الوسع أن نتوقع تبنى الأخصائيين حول هذه المسألة الملحة وجهة نظر عظيمة الدلالة. وإذا كانت الشهادات المدينة للحلم «العبث اللا منطقى الأنانى الدنس اللا أخلاقى» وفيرة كما سبق أن أشرت، فإن الشهادات التى تُورَد دفاعا عنه لا تقل مجازفة. وما هى سوى ارتجالات أناس متحمسين شديدى التفاؤل مصممين أن لايروا فى الحلم غير التسلية الحرة البهيجة «لمخيلتنا المنطلقة». لا فهم أسمى عند ذاك الطرف أو هذا، لا بادرة تقوم على قبول الحلم كحاجة طبيعية، لا ميل إلى أن تعين له فائدته الحقيقية، ولا شئ البتة، من «واقع المطلق» الذى يحلو للكل إسدال ستارة الحلم عليه وحسب، بل بواسطة الحلم، إلى أن يجعل «واقعا لنا».

كان يكفى للقطع فى لزوم الحلم كوننا نحلم. لا ينقص ذلك من حقيقة أن هذا اللزوم تبين يوم استطاع الإنسان إدراك الصلات الوثيقة بين الحلم وبين مختلف الفعاليات الهاذية كما تتبدى فى مشافى المجانين: «إن الحلم الناشئ عن تعب مناوب نذير أولى بدايات الخلل العقلى» (هافلوك أليس). ومرة أخرى لزم أن يؤثر موضوع الهذيان، بواسطة المريض، على أجهزة حس المراقب. مع التضخيم المميز له على ما يظهر. كيما يتحول جهل المراقب المطبق إلى بذرة معرفة. كيف حدث أن أحداً لم يفطن قبل الآن إلى تشابه انسراب الأفكار فى الحلم وفى الهوس الحاد، واستخدام أخف المهيجات الخارجية فى الحلم وفى هذيان التأويل، والاستجابات الانفعالية المتناقضة فى الحلم وفى الجنون المبكر؟ لا أدرى، لكن تجدر هنا ملاحظة أنه، بالانتقال ثانية من المجرد إلى المحسوس سلوكا لذلك السبيل الذى هو سبيل المعرفة الأوحد، تم التوصل إلى تخليص جزء من الحلم من ظلماته وأمكن ترائى وسيلة جعله واسطة لمعرفة أوسع لطموحات الحالم العميقة وفى الوقت ذاته لتقدير حاجاته الفورية.

والإمكان الوحيد المتاح لنا لاختبار قيمة وسائل المعرفة الأحدث الميسرة لنا لدراسة الحلم هى أن نستكشف بنفسنا إذا كانت الصحة الموضوعية للنظرية المعروضة علينا قابلة أن تجد تأكيدها فى الميزان العملى. ولعدم استطاعتنا، كما رأينا، إقامة وزن دقيق للنتائج التى زعم الحصول عليها بتطبيق هذه الوسائل فى معالجة الأمراض العقلية يبدو أن ليس لنا أفضل من أن نختبر على أنفسنا الطريقة المذكورة كيما نتأكد من أننا قادرون، من الكائن المحسوس المباشر الذى نراقبه والذى هو نحن، أن ننتقل بواسطتها إلى هذا الكائن

معروفاً بصورة أفضل فى واقعه وحقيقته، أى لا ككائن مباشر، بل فى العديد من إضافاته الأساسية الجديدة (وحدة الكنه الإنسانى وظاهرة الحلم). وعلى افتراض أن هذه التجربة كانت مرضية فى نتائجها وأنها جعلتنا مدركين لتحسن أُنجز فى معرفتنا ذاتنا، وبالتالى وفى نفس الوقت فى معرفتنا للكون، سيسعنا أن نقبل هذه الصورة الجديدة للأشياء بالصورة ثم أن نستمد من هذه المقابلة قوى جديدة كى ننعتق من بعض الأفكار المسبقة والتحيزات المتخلفة فينا وننقل إلى مكان أكثر تقدما موقع نضالنا.

كل ما يبدو لى ضروريا أن نحفظه فى هذا السبيل من أعمال (فرويد) هو نهج تأويل الأحلام ، وذلك للأسباب التالية: إنه، إلى حد عظيم، الاكتشاف الأطرف الذى أنجزه المؤلف إذ لم تترك نظريات الحلم العلمية قبله أى مكان لمسألة التأويل هذا، وهو زبدة ما حصل عليه من استقصائه اليومى فى ميدان الاضطرابات العقلية أى، ما هو مدين به قبل كل شئ، للمراقبة الدقيقة للظواهر الخارجية لتلك الاضطرابات، وأخيرا، إنه عرض من فرويد ذو طابع عملى حصرا يجعل مستحيلا أن يجوز علينا، دون تمحيص، هذا الرأى المريب أو ذاك غير المتيقن من صدقه. ولا حاجة البتة، للتوثق من قيمة الرأى المذكور، إلى تبنى التعميمات المتسرعة التى عودنا عليها بعد ذلك صاحب هذا العرض، الأمى جدا من حيث الفكر الفلسفى.

وكان من شأن طريقة تأويل الأحلام بواسطة التحليل النفسانى أن تثبت فعاليتها منذ أكثر من ربع قرن لولا عائقان لأول وهلة عرقلا سيرها وقلصا إلى حد عظيم من مدى استقصاءاتها. العائق الأول هو الحاجز المعروف باسم «جدار الحياة الخاصة»، وهو حاجز

اجتماعى متفق على أن هتك الغير له فضول أثيم، و«فرويد» نفسه الذى كان أول من أظهر فى هذا المجال تحررا فكريا بالغ الروعة خليقا بالتنويه، لم يفلت من خشية الإفراط فى البوح بما فى ضميره. وقد كتب: «إن المرء ليستشعر بخجل لا يصعب فهم أسبابه، فى كشف كل تلك الشئون الحميمة من حياته الداخلية ويحاذر التأويلات السيئة النية من قبل الغرباء عنه». وفى ختام حلم «حقن الدواء لإيرما» أبدى الملاحظة التالية «طبيعى أن لا أكون ذكرت هنا كل ما خطر ببالى خلال عملية التأويل» وقد نتصور ذلك ربما لكننا نأسف له بالتأكيد. وفى الصحفة (٢٧٨) من «علم الأحلام» اعترف بأنه، إذا لم يقم بإتمام برهنته العامة بعرض شامل علنى للحلم فلأنه لم يستطع التصرف «بهذه الوقاحة» بالأدوات النفسانية اللازمة لمثل تلك البرهنة» وفى الصفحة (٣٧٥) أعلن أنه لا يسعه التضحية بأناس عزيزين فى سبيل تطلعه إلى أن يفسر بشكل كامل أحد أحلامه. وأعاد الكرة مرة أخرى فى الصحفة (٤٠٤) فقال: «إن أفضل ما تعرف لن تستطيع أبدا أن تقوله». وفى الصفحة (٤٣٤) «لا يمكن للمرء تجاهل أنه يحتاج إلى تمالك عظيم للنفس كيما يؤول أحلامه الخاصة ويطلع الآخرين عليها. ينبغى له التسليم بأن يتبدى الوغد الوحيد بين كل النفوس الطاهرة التى تأهل بها الأرض» تذكر المؤلف فى اللحظة المناسبة أنه متزوج ورب أسرة وأنه نفس ذلك البورجوازي الصغير من مدينة «فيينا» الذي طمح طويلا إلى تعيينه أستاذا جامعيا. ومن هنا أحد أشد التناقضات إزعاجا فى كتابه: فالاهتمامات الجنسية لا تلعب فى الظاهر أى دور فى أحلامه الشخصية بينما تسهم بشكل مهيمن جلى فى تركيب الأحلام الأخرى

التى يعمد إلى عرضها علينا. بيد أن العقبة الثانية التى يصطدم بها التحليل النفسى هى بالضبط أن هذه الأحلام الأخيرة هي عموما أحلام مرضى، بل أكثر من ذلك، أحلام «مهسترين» أى أحلام أناس قابلين بصورة خاصة التأثر بالإيحاء وأهلٍ، إضافة إلى ذلك لاختلاق خرافى، ولا أوسع، فى هذا المضمار، حاشا أن يكون قصدى من هذا القول انتقاص أهمية قضية الجنس فى الحياة اللاواعية، وهى التى أعتبرها إلى درجة بعيدة أعظم مكتسبات التحليل النفسى. بل إنى ألوم «فرويد» بالعكس، على أنه ضحى بالفائدة التى كان سيجنيها، فيما يتعلق به، من هذا المكتسب فى سبيل دواعٍ نفعية بالغة التفه، إن فى هذا تخليا عن الواجب كأى تخل آخر كان من أثره تاريخيا التخلى الذى اضطر إلى أن يتهم به «يونغ» «وادلر» حين رآهما يهملان من أجل تخمينات مجردة بالغة المجازفة، تاريخ الفرد الواقعى.

إنى أعرف قول «فرويد»: «على الذين يميلون إلى لومى على هذا التحفظ محاولة أن يكونوا هم ذاتهم أكثر صراحة». لكن لايبدو لى أن فى هذا القول تحديا يصعب قبوله، وربما يكفى المرء أن لا يشتط فى التمسك بأمور كثيرة وما من وضع إنسانى يقر بنفسه ويظهر نفسه كما هو يكون فى نهاية الأمر عرضة لشديد من السخرية ولشديد من النقد، كان «نيتشه» يعلن: «ما من شئ هو خاصتك أكثر من أحلامك، كموضوع وكشكل وكمدة وكممثل وكمشاهد - في تلك الهزليات - أنت كليا نفسك» ويقول «جان - بول»: «فى الحق، هناك أناس يعلّمونك بأحلامهم الفعلية بأكثر مما يعلّمونك بنزواتهم التخيلية» ولنحاول أن نكون ذلك المراقب المتهور والنزيه.

حلم ليلة ٢٦ آب ١٩٣١ ـ الاستيقاظ فى الساعة الثالثة صباحا - التدوين فورا.

(«عجوز فى حالة اضطراب شديد تترصد غير بعيد عن محطة مترو «فيليبه» (التى هى أشبه بمحطة «روما»). إنها تكن مقتا شديدا لـ «س» (خليلتى سابقا) وتسعى إلى العثور عليها بأي ثمن (مما يجعلنى أعتقد أن حياة هذه فى خطر. لم تحدثنى «س» قط عن هذه المرأة لكنى لا أظنها نقية الضمير تجاهها. وتحاشيا لمقابلتها كانت تحرص أن تحضر دوما فى سيارة أجرة حتى مدخل المنزل فى الحى الذى كنا نشغل حتى هذه الأيام الأخيرة غرفة منه وأن تنتظر عند هذا الباب ذاته مرور سيارة أجرة للذهاب فيها. كانت تحاذر كليا أن تخطو فى الشارع. وقد أعطيتها كل ما تبقى معى من دراهم لتقوم بتسديد كلف الإيجار. إذ تقرر أن لا تعود. وذلك ربما إثر نقاش بيننا أشد خطورة من سابقيه. وإذ وصلت مع صديق المفترض أنه «جورج سادول» إلى رأس شارع «روما» التقينا العجوز ولاحظت أنها تراقب حركاتى بتدقيق. كيما أرى ما ستفعل وربما أيضا كى أضلل تحرياتها كتبت على ورقة شيئا ما أريد أن أجعلها تعتقد أنى سأرسله مع شخص إلى مسكني السابق. لكن بما أنها تستطيع القراءة عدلت الاسم والمناداة الأصلية بعكس ترتيب حروفها التى أعطت لدهشتى كلمة «مانون» التى شبكتها زيادة فى الاحتياط بحروف كلمة رقيقة مثل «حبيبتى» ودخلت العجوز التى بدت لى مجنونة البناية التى أشار إلىّ منها الشخص الذى يحرسها وغير المرئى تماما. أن لا أدخل. خشيت أمرآ سيئا. له صلة بالشرطة أو بغير ذلك - بالسجن - تكون «س» قد تورطت فيه قديما - عند والدى. ساعة العشاء. فى منزل لا أعرفه. تسلحت بمدسدس خشية هجوم من المجنونة. وقفت أمام طاولة كبيرة مستطيلة مجللة بغطاء أبيض. والدى. الذى أعلمته بمقابلتى. يتفوه بتعليقات غير لائقة: يماحك بما أنه لا يعرف

«س» يقول إنه لا يعلم وليس له أن يعلم هل هى «أفضل من العجوز أو أسوأ». تغضبنى هذه الأقوال وأستشهد الحضور سائلا هل يمكن أن يكون متحدثا بصورة طبيعية ودون تقصد جرحى حيث يقارن بين فتاة فى العشرين وامرأة فى الخامسة والستين (وهذان العددان مشدد عليهما فى الحلم). وأستسلم بعد ذلك لتأملاتى وأفكر أن «س» لن ترجع أبدا وأن من المشكوك فيه أن تستطيع هذه المرأة الوصول إليها فى مكان آخر غير الذى تبحث عنها فيه حاليا. الأمر الذى يبعث لدى شعورا مزيجا من الارتياح ومن الغم (وهو شعور حلل بسرعة شديدة فى الحلم).

....

ها انذا فى مخزن حيث يرينى غلام فى الثانية عشرة (هذا العدد غير محدد فى الحلم) ربطات عنق. أكون على وشك شراء واحدة منها تناسبنى حين يعثر لى على أخرى فى إحدى الأدراج ادعه يفرضها على. إنها ربطة من لون أخضر قاتم، عادية جدا، فيها خطوط بيضاء رفيعة جدا مائلة. تشبه تماما إحدى الربطات التى أملكها. لكن البائع الفتى يؤكد أنها تنسجم جدا مع قميصى الأحمر. ويأتى بائع آخر متوسط السن فيحدثنى وهو يفتش بين الربطات عن ربطة «نوسفيراتو» كان بيعها رائجا قبل سنتين لكنه يخشى أن لا تكون بقيت لديه واحدة من نوعها. وأكتشف أنا على الفور هذه الربطة بين سواها. إنها ربطة رمانية اللون تبرز بالأبيض على طرفيها أو على الأقل على الطرف المنظور. بعد عقد العقدة. صورة مزدوجة لوجه «نوسفيراتو» الذى هو فى ذات الوقت خريطة لفرنسا خالية من أية إشارة. وحدودها الشرقية. المرسومة باختزال شديد بالأخضر والأزرق بحيث أكاد أتصورها إنهرا. تمثل بشكل مذهل

تنكرية وجه مصاص الدماء. وصرت متشوقا جدا إلى إراءة أصدقائى هذه الربطة.

تحولت مائة وثمانين درجة نحو اليمين. عند خزانة السلع الأخرى يقف عضو من الحزب الشيوعى له مظهر «كاشان»[1] يحدثنى هذا فى بعض تحفظ عن سفرة إلى ألمانيا سيكون علىّ أن أقوم بها قريبا. أنا فى غاية السرور. يحضر «فايان ـ كوتربيه» الذى يتصرف فى البداية كأنه لا يعرفنى ثم يصافحنى (أنا جالس): يحادثنى بتفصيل أكثر عن هذه السفرة. سأذهب أولا إلى برلين. يوضح لى بمكر كبير أن «موضوع المحاضرة التى سألقيها ربما كان فى الحقيقة «السوريالية» سخرت باطنيا من هذه الطريقة فى عرض الأمور. ستكون المغادرة غدا. تذكرت أنى لحسن الحظ عثرت على بعض الدراهم من آن قريب. حدد شبيه كاشان أننا سنصحب معنا «ب» و«رنيه كلير» على ما أظن (كرّر اسم «ب» مرتين). خطر لى أن أستخدم كموضوع للمحاضرة، إذا كنت أنا الذى سيلقيها، عناصر الكتاب الذى اعتزمت البدء به فى أقرب حين (هو هذا الكتاب)».

ملاحظة توضيحية

طالعنى عام ١٩٣١ بآفاق بالغة الظلمة. كان القلب دائم التشوش وسيتبين القارئ فى القسم الثانى من هذا الكتاب حين سيتوجب علي أن أعرض، لغايات معينة، بعضا من ضلالاتى. كانت «س» قد غادرتنى، وما كان هناك أى احتمال فى أنها ستعود أبدا إلىّ، على أنى ظللت طويلا آملا أن أستبقيها معى دائما، أنا الذى لا أؤمن

١ ـ مارسيل كاشان Cachin (١٨٦٩ ـ ١٩٥٨) رئيس تحرير جريدة «هومانييته» لسان حال الحزب الشيوعى ابتداء من عام ١٩١٨.

بمقدرتى كنت آخذ عن قدرتى فكرة أنها، إذا كانت موجودة، يجب أن تعيننى بكليتها على الاحتفاظ بها إلى نهاية العمر. هذا كان شأن تصور للحب الأوحد المتبادل القابل التحقيق رغم كل شئ كنت تصورته فى صباى ويستطيع الذين عاشرونى عن كثب أن يشهدوا أنى دافعت عنه إلى أبعد ربما مما كان قابلا أن يدافع عنه، بقوة اليأس. هذه المرأة، كان علىّ أن أسلم بأن لا أعود أعرف شيئا عما صارت وعما ستصير إليه: كان ذلك ممضا، كان ذلك باعثا للجنون، إنى أتكلم عن ذلك اليوم، حدث ذلك الأمر غير المتوقع، الأمر المحزن، الأمر الرائع والتافه، إنى تكلمت عنه. سيسجل على أنى تكلمت عنه، وها قد انتهيت من مشكلة القلب. وفكريا كانت هناك الصعوبة الهائلة فى جعل الناس يقرون أنه لم يكن من باب الرومنسية المبتذلة ولا من باب حب المغامرة إصرارى على التأكيد منذ سنين أن ما من منتهى شعرى وفلسفى وعملى للنشاط الذى تكرسنا أنا وأصدقائى له سوى الثورة الاجتماعية، متصورة فى شكلها الماركسى - اللينينى. ما من شئ تُوزع أكثر من صدق تصريحاتنا في هذا الميدان، وفيما يخصنى كنت أتوقع، فى سبيل إنكار صدقنا، أن تضاعف ضدنا الأكاذيب والمكائد. وهكذا فإن النشاط السريالى «وقد تحدد بالنسبة إلى بهذين النوعين من الاعتبار، فقد فى نظرى، وأقولها مرغما، أفضل دواعى وجوده.

(مضى زمن - لاحظت فى الصيف التالى، من جزيرة «سان» التى يجدر أن يجعلها اسمها عزيزة على المحللين النفسانيين[1] أن المراكب ليست أقل ولا أكثر جمودا على البحر، أنها لا تزال موجودة وليست جانحة، شأن كل شئ. وفى العالم بأسره يأخذ العمل

١ - جزيرة «سان»: معنى كلمة «سان» الأصلى «Sein» هو النهد أو الثدى وتستعمل مجازا بمعنى الحضن وشاعريا بمعنى المهجة.

الشـيوعى مجـراه. وفـى مدينة «كاستيلان» (محافظة الألب السفلى) حيث فاجأنى هذا الحلم فى العام الماضى كان المستحيل قد انصهر فى الممكن... وكان نور ساطع يغمر أشجار الدلب فى الساحة.

التحليل

عجوز تبدو مجنونة تترصد بين محطتى (روما) و(فيلييه) «: إنها ناديا[1] التى نشرت حكايتها فى وقت مضى والتى كانت تقطن حين عرفتها فى شارع «شيروا» حيث يقود على ما يبدو طريق الحلم وما هى على هذا القدر من الشيخوخة إلا لأنى عشية الحلم بحت «لجورج سادول» الذى كان وحده معى فى «كاستيلان» بالإحساس الغريب بعدم الشيخوخة الذى أحدثته لدى المجنونات المبكرات فى آخر زياراتى لمشفى «سانت آن» قبل بضعة شهور. ولم أكد أعمد إلى ذلك التقدير حتى خالجنى منه بعض القلق: كيف يمكن ذلك؟ هل ذلك صحيح؟ وإلا فلماذا قلت ذلك؟ (دفاع ضد احتمال عودة «ناديا» سليمة العقل أو غير سليمة، التى ربما تكون قرأت كتابى عنها واستاءت منه، دفاع ضد المسئولية غير المتعمدة التى ربما تقع على فى أصل هذيانها وبالتالى فى دخولها مشفى المجانين، وهى المسئولية التى كثيرا ما وجهتها إلىّ «س» فى ساعات الغضب، متهمة إياى بتقصد جعلها مجنونة بدورها.) فيما يتعلق بملامح المرأة، الممحية جدا فى الحلم أحسبنى قادرا على ملاحظة أنها تتماثل أو تتراكب مع ملامح امرأة مسنة تنظر إلى بتحديق شديد، أو من مائدة شديدة القرب ساعة تناولنا الطعام.

١ - Nadja (تكتب «نادجا» وتلفظ فى رأى المؤلف «ناديا») صديقة قديمة للكاتب روى حكايتها فى قصة مستقلة جعل هذا الاسم عنوانا لها.

قدوم ومغادرة «س» في سيارة أجرة: كانت تلك حقا عادتها. وقد عهدت طويلا فيها، عدا التكاسل عن السير في باريس، خوفها من عبور الشارع، حتى مع عدم وجود سيارة في الأفق كانت تلبث هكذا ثابتة على طرف رصيف (وكان جدها قد مات إذ دهسته سيارة شحن كان يقودها هو) وخلتني قادرا يوما أن أساعدها في مقاومة ذلك الخوف نهائيا بتأكيدي لها أنها، إذا كانت منذ بضعة أشهر أقل خوفا فذاك ولابد لأنها تعرف أنها متزوجة، وبذاك وبالتعبير الشعبي، «مصونة من السيارات» الأمر الذي بدا مؤثرا في تفكيرها.

كل ما تبقى معي من دراهم كي تسدد كلف الإيجار:

كثيرا ما حاولت إقناع نفسي سدادا أو خطلا - بأن المتاعب المالية التي أعانيها لم تكن غير ذات تأثير في قراراتها بتركي. كما أن في ذلك تبريرا رجعيا حيال «ناديا» التي لمت نفسي أكثر من مرة على تركي إياها دون دراهم في الأيام الأخيرة.

لن تعود

إنها لن تعود حقيقة هذه المرة كما في المرات السابقة.

مع صديق هو ولابد "سادول"

بسبب أني وجدته قبل سنوات شديد الهيام بامرأة تحمل نفس الاسم الأول: «س» تبين فيما بعد أنها صديقة طفولة لصديقتي، بل وإنها استعارت منها هذا الاسم واستعاضت به عن اسمها الحقيقي: «هيلين».

"مانون"

إنه الاسم الذي لزم ابنة عمي من لقب كنت أناديها به على ما يبدو وأنا طفل. وقد شعرت نحوها وأنا في نحو التاسعة عشرة بانجذاب جنسي قوي خلته آنذاك حبا. ويميل الحلم هنا في الظاهر

إلى إعادة ذلك الوهم بشكل يقلل من المكانة التى كانت تحتلها «س» فى نفسى، وإلى تبديد الفكرة الحصرية التى أردت أن أكوّنها عن ذلك الحب، بجعلها موضع همى. وشخصية «مانون» أدخلت هنا بفعل العجب الذى أبديته عشية الحلم «لسادول» إذ تلقيت من والدها (عمى) رسالة شكر، غير هازئة - على رسالة تمنيات أعرف تماما أنى لم أوجهها إليه.

أشير إلىّ أن لا أدخل

ينبغى حقا هنا أن يعرى فى ذلك التعبير عن رغبتى التى سبق أن أبديتها فى عدم الالتقاء مع «ناديا» فى الحال التى صارت إليها، وفى أن أتجنب الخوض مع «س» فى أى محاولة تفاهم عقيمة ومؤلمة.

قضية مريبة

إنه تلميح إلى معاشرات مشبوهة ربما قامت بها «س» فى عهد سبق. وفى لهجة عنيفة لمتها على قبول الاستمرار فى معايشة شخص حاول فى الماضى، بالدعوة إلى شهادات كاذبة ضدها، أن يدخلها السجن.

طاولة كبيرة مستطيلة مجللة بغطاء أبيض

اعتدت فى «كاستيلان» أن أقرأ وأكتب على طاولة مستطيلة صغيرة تقع تحت الأقواس الخارجية للفندق وفى يوم الاثنين ٢٤ آب، استثنائيا، كنت أجلس إلى طاولة مدورة قريبة من تلك حين لاحظت أن امرأة شابة لم أكن رأيتها قبلا تبدو منهمكة فى كتابة أشعار على الطاولة المستطيلة. تصورت أنها قد تأتى فى الأيام التالية وأنه سيكون علىّ التخلى لها عن تلك الطاولة التى ربما ائتلفتها، مثلى، أكثر من ائتلافها غيرها. بدت لى هذه المرأة الشابة غريبة الطباع وجميلة وكان بودى الدخول فى الحديث معها. وتتمة الحلم ستتيح

ملاقاتها من جديد. يبقى أنه، عند وقعة العشاء، وعلى طاولة مستديرة كانت جلالة الغطاء الورقية المستطيلة مرفوعة الزاوية على يمينى بسبب ملاصقتها الجدار عند إحدى حوافها، ووضعت دون انتباه على الجزء غير المغطى إبريق الماء الذى سقط وتحطم محدثا دويا، مبللا عند قدمى الدفاتر التى كنت دونت عليها بعض الملاحظات العامة حول الأحلام. وهذه الحركة الخاطئة كانت فى ذاتها دليلا على رغبتى فى الجلوس فى الخارج إلى الطاولة المستطيلة برفقة المرأة الشابة. والطاولة مستطيلة فى الحلم لذات السبب وهى أيضا كبيرة بحيث لا يتحطم ما يوضع عليها. (وجنسيا معروف أن، المائدة المعدة ترمز إلى المرأة. وجدير بالملاحظة أن المائدة فى الحلم كانت فى طريق التحضير فقط لتقديم الطعام).

تعليقات والدى غير اللائقة

إنها بعث لأمر أغاظنى منه فى ماض قريب. ذاك أنى انسقت فى لحظة حزن شديد لا فى لحظة مسارة إلى أن أكتب إليه متحدثا عن «س»: «إن هذه المرأة سببت لى ضررا هائلا، لا يحده قياس» فأجابنى: «كما قلت أنت، أمك وأنا نعتقد أن هذه المرأة سببت لك...» (يتبع ذلك تكرير للتعابير التى استعملتها، وهو أمر لم أستطع قط قبوله فى أسلوب التراسل، وبعض التعليقات الأخلاقية كان يسعه تجنيب تقريعى بها فى ذلك الظرف).

عشرون سنة ـ خمس وستون سنة

حظرنا «سادول» وأنا، على نفسينا فى مساء ٢٥ آب، الدخول إلى «كازينو۔ عدن» (كما يتسمى محفل لهو صغير فى «كاستيلان») حيث استسلمنا فى اليوم السابق لإغراء «جهازى نقود» جميلين أحدهما

أقدم بكثير من الثانى وغير مضبوط بذات الدقة والإحكام، كان المطلوب، من أجل الربح فى هذه اللعبة الضم فى ترتيب متوجب لصور مختلفة تملأ ثلاثة دواليب وتمثل حبات ليمون وخوخ وبرتقال وكرز، وأجراس. وظهور لوحة «لعبة حرة» المخصصة للدولاب الأول يبيح فى أحيان معينة - إعادة اللعب مجانا. وقد فقدنا فى تلك اللعبة نهار الاثنين مبالغ كبيرة نسبيا. الأمر الذى جعلنى أعبر عنه وأنا أدفع ثمن المشروب الذى كان خمسة فرنكات بالقول «كأسان من الخمر: خمسة وستون فرنكا - إنه لمبلغ» ورد علىّ سادول «قائلا إنه خسر عشرين فرنكا» وواضح أن الوحدة النقدية حولت هنا إلى سنة، كتطبيق دقيق للمبدأ الذى وجدته بعدئذ عند «فرويد» فى الصفحة (٣٦٩) من «علم الأحلام» والذى يبين فى الأحلام واقع المثل المعروف «الوقت نقد» (الوقت من ذهب). وإعطاء سن العشرين شكليا لـ «س» التى أعرف جيداً أنها ليست سنها له بالطبع سبب آخر. فقد قالت لى «س» مرة أنها يوم بلغت العشرين، وهو يوم شعرت فيه بالوحدة وبالحزن لأنها فى أعمق ذكرياتها كانت تتصور في عيد ميلادها ذاك عالما بأكمله من الطغيان الأنوثى، أحست ببهجة عظيمة أمام طرد أرسل إليها وقدرت من مظهره أنه محتو ولابد على هدية ثمينة، وذلك لدرجة أنها ظلت طويلا لا تجرؤ على فتحه. حتى إذا قررت، فى احتياط شديد، معرفة ما بداخله اكتشفت، وقد رأيتها تبكى وهى تتذكر ذلك، حوض استبراء مملوءا بأقراص دوار الشمس، أبدا، لم تعرف مَنْ (عمها؟ عشيق؟) خطر له أن يمزح معها ذلك المزاح المريع الذى مازلت أعتبره من جهتى بديعا وفظيعا.

الانتقال إلى تتمة الحلم هذه يسرته أقراص دوار الشمس. إنه تحويل للمكان إلى زمان. إذ توجد قريبا جدا من المكان الذى أكتب فيه، إلى اليمين، لافتة تحمل هذه الكلمات: «جسر أقراص دوار شمس: ١٢ كيلو مترا». ولم أكتشفها إلا مساء ٢٥ آب، والمسافة الفعلية لم أحفظها على الفور بشكل مؤكد، ومن هنا عدم الدقة البسيط فى الحلم بخصوص ذلك. و«الجسر» بذاته سيتعين فى موضع آخر.

لم أقل شيئا عن سطر النقط الذى سبق ظهور ذلك الصبى والذى، حين دونت هذا الحلم، لم يبد لى دليلا على ثغرة، بل خاتمة هناك لما يسميه «فرويد» «الحلم ـ التمهيد» لأنه من جهة يبدو ومقصوده تبرير ما يجرى بعده تطبيقا لمبدأ: نظرا لحدوث هذا الأمر فإن الأمر الآخر سيحدث ولابد، ولأنه من جهة ثانية مقصود به تمكين الحلم الرئيسى، الذى يقوم مقام الجملة الأصلية فى المحاكمة الواعية، من أن يتركز بوضوح على الشاغل المهيمن للنائم. كل شئ يجرى كما لو أن هذا النائم يعتزم أن يحل بهذه الصورة مسألة عاطفية بالغة التعقيد، تستعصى بسبب طابعها المفرط التأثير، على عوامل التقدير الواعى المتحكمة جزئيا فى سير الحياة. ويعنى ذلك أن الحل المكتشف والمقبول على هذا الشكل من الحالم، سواء أدركه أو لم يدركه بعد الإفاقة، من شأنه أن يؤثر عميقا فى استعدادته، وأن يقسره، بتقديم مستندات سرية فى الإضبارة على الحكم. وليس فى غير هذا المفهوم، ولاشك، يجب أخذ تعبير «الليل مشورة» وظاهر أنه لم يكن عبثا سعى القدماء إلى تأويل أحلامهم.

وفــى النقطـة التى وصلت إليها من تحليلى هـذا صـار واضحـا أن الحلـم المتحـدث عنه ينزع إلى تخليصى من قلق فعلى بالغ الشدة قائـم علـى الصعوبـة النفسـية التـى ظللـت فيها طيلة شــهور، صعوبـــة اكتشـاف كيف أنى، من ذلك التصور للحب المنحصـر فـى كائــن واحد وحيـد، وهــو التصـور الذى عرضته فى الملاحظـة التوضيحيـة والــذى لا يمكنه إنسانيا أن يبقى بعد زوال حبى لــذاك الكائن استطعت الانتقال إلى تصور مختلف دون أن أفقـد أى اعتبـار لذاتـى فـى نظر ذاتى. كلنا يعلم أن الحلم، المتفائل المهـدئ فى طبيعتــه، إلا إذا كــان تحــت ثقــل حالـة صحيــة مقلقـــة، يميــل دومــا إلـى الاستفادة من مثـل هـذه التناقضـات للحفاظ على مجـرى الحياة. فلا عجب إذن أن يحمل «س» (قضيـة مريـبة) تهمـة لـم يكن لها قـط أسـاس فــى الحيــاة. إن الحلــم هنــا ينتقـم بالطريقة الأكثر إراحة لى. للشك البالغ التعذيــب الــذى كـــنت فيه أكثر من مرة تجاهـها، عاجزا عن أن أهين فيها المرأة التى أحببت: هل حقا كانت مذنبة نحوى، ألم أكن أيضا مذنبا نحوها. إلى أى حد تقع عليها مسئولية القطيعة بيننا، وإلـى أى حـد تـقـع علـىّ إلـخ...؟ والتحـليـل الخـاطف فـي الحـلـم للإحساسين المتقابلين الذى أشعرتنى به فكرة أن المرأة التى تبغى اضطهادها لن تستطيع الوصول إليها ولا ريب يبين ما قد يكون تبقى فى نفسـى نحوها من غيظ كما تبين ضعفى نحـوهـا، وسرعان ما يُكافح هـذا الشعور الأول فى شكله الفعال ويُكبت ويُنجم على ما أتصور تحركا فعليا فى النوم يفسر ذلك التحول المخسوس فى مجرى الأفكار.

اختيار ربطات العنق:

هذا التحرك أتاح بالفعل الانتقال إلى مخزن ربطات العنق. واستعان الحلم فى ذلك الانتقال بأنى كنت أشتكى تلك الليلة ألما فى حلقى. كنت أسعل ولجأت قبل النوم إلى لف عنقى بقطن مدفئ اضطرنى كيلا ينزلق عن مكانه إلى أن أزرر خلافا لعادتى قبة بيجامتى. وقد سبب لى ذلك، على الأرجح، شعورا بالاختناق. هذا وليس من شك فى أنى أعانى «عقدة نفسية» تجاه ربطة العنق. فأنا أكره هذه الزينة العديمة المعنى للباس الرجل، ينتابنى الخجل من مسايرتى تلك العادة السخيفة ومن عقدى كل صباح أمام المرآة (وأوضح هذا لعلماء التحليل النفسى) تلك القطعة من القماش المفترض أن تزهى بمقدار تافه منظر السترة ذات القلبة المزرى فى ذاته، وأعتبر ذلك خَرَقا على خَرَق. ثم أنى على معرفة تامة بأن «فرويد» اعتبر فى كتابه ربطة العنق عنوانا للذكورة لأنه خاصة بالرجل ولأنها تفسح لحرية الاختيار التى تلخص الشاغل الأساسى للحلم. وأخيرا وكعامل موجه آخر أحسب مفيدا أن أشير إلى أنى، قبل أيام، نسيت فى «مالمير» وخشيت أن أكون أضعت حينذاك وشاحا للرقبة كان أهدى إلىّ وكنت حريصا عليه. وفى الفندق الذى كنت نازلا فيه والذى كان يديره أناس لا يبعثون الاطمئنان كان يخدم فتى فى سن بائع الربطات الأول فى الحلم.

الربطة ذات اللون الأخضر المطبق

لدى فى الواقع ربطة قريبة الشبه إليها. وهى غرض لا يرتبط بشئ خاص فيما أعلم، لكن أخالنى كنت فى السنوات الأخيرة أحب وأتطلب الأخضر فى أقمشة اللباس. وهذه الربطة التى لبستها كثيرا

على ما أظن مهترئة الآن.

القميص الأحمر

إنى أرتدى فعلا منذ أمد قصير قميصا فى هذا اللون.

نوسفيراتو: (١) مصاص الدماء Nosferatu

فى الخامس والعشرين، مساء، كل على مسافة إلى يسارى فى غرفة الطعام نزيل لفتُ إليه انتباه «سادول». ذلك الرجل، الطافئ النظرة جدا ما كان يمكن أن يكون سوى أستاذ (جامعى وكريه جدا فى رأى «سادول»). كان لون بشرته هو الذى استرعى نظرى أولا. كان يبدو لى بوجهه، كما قلت آنذاك، أشبه برسم ممحى شدد عليه كبس القلم فى بعض نقاطه للدلالة فقط على مكان العينين واللحية. انصرف خاطرى من جهة إلى أستاذ الفلسفة الرجعى النموذجى الذى دأب «لينين» فى «المادية والنقدية التجريبية» على مهاجمته بل أكثر من ذلك إلى الشخص المشار إليه باسم «السيدة ذات القفاز» فى كتابى «ناديا» والذى ربما كان لزوجته الجالسة إلى جانبه بعض شبه بالسيد «ف» مدير المخبر فى معهد «باستور» والذى فى مظهره، كرجل علم، لم يزل يبدو لى بالغ التحير (هذا إلى أنى كنت، منذ عدة أيام، أجد الكثير من التشابهات؛ الوهمية والصحيحة، كما يمكن أن يحدث فى اعتقادى بعد عزلة مديدة عن العالم حين يجد المرء نفسه مختلطا مع عدد من الغرباء عنه. وليس الشبه، على ما يظهر

١ ـ مصاص الدماء: Vampire (والكلمة ألمانية): ميت تزعم الخرافة الشعبية فى ألمانيا (وفى أوربا الوسطى) أنه يخرج من قبره لمص دم الأحياء. وقد أعطيت له ملامح مميزة مثل شحوب اللون واصفرار الأسنان وجمود النظرة إلخ... كما نسب إليه طول البقاء بحيث يتحدث فى القرن التاسع عشر عن مصاص دماء مازال يظهر منذ القرن السابع عشر. ويقال إن الحرق هو الوسيلة الوحيدة للقضاء عليه. وقد أطلق اسم Vampire على نوع كبير من الخفاش فى أمريكا الاستوائية يعض ويمص دم بعض الحيوانات النائمة.

منحصرا فى الشكل فقد تصور لى إذ رأيت أحد نزلاء الفندق لأول مرة أنه يمكن أن ينادى باسم «ريازونوف» دون أن أتذكر قط أنى شاهدت ملامح رجل بهذا الاسم) وأظن أن السيد «ف»، بوصفه شخصية «ممحاة» تراكب هنا كى يوحى «بنوسفيراتو» مع الجملة التالية التى قرأتها فى ذات اليوم على ظهر دفتر تلميذ كنت أدون عليه بعض الملاحظات: «إن فصيلة الحيوانات المجترة ذات القرنين الشعريين تشمل الحيوانات المجترة المتكون قرناها من نتوء فى عظم الجمجمة مكسو بجلد أشعر متصل بجلدة الرأس ولا يسقط أبدا. ولا يعرف من هذه الفصيلة سوى نوع واحد هو الزرافة» (مماثلة بأذن «نوسفيراتو» الشعراء - وجدير بالملاحظة أن اختيار هذا الدفتر وبعضا غيره قبل يوم واحد من الحلم، كان أيضا ذا أثر مشدد فى انتقاء الربطات، فالطول غير العادى فى عنق الزرافة مستخدم هنا كواسطة انتقال للمماثلة الرمزية بين الزرافة والربطة من وجهة النظر الجنسية) كما أن وطواطا يتجول كل مساء تحت أقواس الفندق كان له دوره فى تكامل شخصية مصاص الدماء. وأخيرا فإن دخوله الحلم يجد سببه فى هيئة بعض مناظر «منطقة الألب - السفلى» عند هبوط الليل، التى تشبه إلى حد المناظر التى تجرى فيها أحداث الرواية السينمائية والتى جعلتنى قبل بضعة أيام أتذكر فى إحدى المحادثات الجملة التى لم أستطع قط دون مزيج من البهجة والرعب أن أراها تظهر على الشاشة: «حين كان فى الجانب الآخر من الجسر، جاءت

الأشباح لملاقاته[1] ونكتشف هنا الجسر، وهو أيضا من أفصح الرموز الجنسية، للمرة الثانية.

خشى البائع أن لا يكون بقى لديه أية ربطة من ذلك النوع

هذه إشارة إلى فقدان مسودة الشريط السينمائى عن «مصاص الدماء» الذى ظل طويلا موضع أسف أصحابه، وإلى الخوف من أن النسخة المتداولة قد تفقد صلاحيتها لكثرة استعمالها فى دور العرض.

وصف ربطة "نوسفيراتو":

المرأة الشابة التى تحدثت عنها فى معرض الطاولة المستطيلة فى الحلم، عادت يوم ـ الثلاثاء لتناول الشاى على شرفة الفندق ـ كانت فى تلك المرة ترتدى زى فلاحة ألمانية (فى المساء السابق كانت تقرأ كتبا بالألمانية) وخطر لنا «سادول» وأنا، أنها لا يمكن أن تكون سوى زوجة مهندس يعمل فى بناء سدود على نهر «فيردون» (Verdon). وحول الساعة السادسة وبعد أن حركت تحت أعيننا ودون كبير متعة قطع رقعة شطرنج صغيرة وتظاهرت بكشف طالعها بواسطة أوراق لعب، انطلقت، كما خمنا إذ رأيناها تجتاز الساحة لملاقاة زوجها وغابت عن نظرى عند منعطف جسر «دماندولكس» الواقع مباشرة خلف تلك الساحة، وهو جسر لم أعبره قط، وحين فكرت فى المساء الفائت فى أن أحادثها، خطر لى فورا التعذر الذى كنت سأعانيه فى مخاطبتها بلغتها وهو تعذر سيزيد من استغرابها له أنها ربما قرأت وهى تمر بجانبى أسماء المؤلفين الألمان للكتب التى كنت أقرؤها. وحقق الحلم هنا مرة أخرى نوعين من الرغبة معا، الأول أن أكلم

١ ـ قد تكون فائدة فى تنبيه القارئ أن السينما الناطقة التى ظهرت فى عام ١٩٢٩ لم تبدأ فى التعميم إلا فى منتصف عام ١٩٣١، وأن الصورة فى الأفلام الصامتة كانت توقف ليظهر مكانها شرح موجز يساعد فى فهم الأحداث ومتابعتها.

بحرية تلك المرأة والثانى أن أنبذ كل سبب لعدم التفاهم يمكن استغلاله وطنيا بين فرنسا حيث أعيش وبين البلد الرائع المفعم بالفكر وبالنور الذي شهد فى قرن واحد ميلاد «كانط» و«هيغل» و«فويرباخ» و«ماركس»[1] والاستعاضة بأنهار ذات خط بالغ الضعف عن حدود الشرق على الخارطة لا يمكن تأويلها إلا كدعوة جديدة لاجتياز الجسر.

كما أن هذه الرغبة البالغة الإلحاح فى الحلم تستمر طبعا فى إقناعى بوجوب أن أتخلص، كى أعيش، من الترددات ذات الطابع العاطفى والأخلاقى التى ربما شوهدت تعتلج فى وسط الحلم وبتعبير آخر، أنها تنزع إلى إقناعى، مادمت أعيش، بأن ليس من أحد لا يمكن الاستغناء عنه وذلك لمجرد أن تلك الفكرة مناقضة للحياة.

والتمثل غير المتوقع لوجه «نوسفيراتو» على طرفى الربطة يوحى بأنه منقول عن وجه شخصية كثيرا ما ترد فى لوحات ورسوم «سلفادور دالى» وأقصد «المستمنى الكبير» الذى تصوره من جهة أخرى فى شكل قليل الاختلاف مع الشكل المعتاد، صفحة الغلاف الأولى من كتابى وواضح تماما أن خط خضاب رأس مصاص الدماء يختلط مع طرف الجفن الطويل الهدب وهذا الجفن، على أعظم ترجيح هو الذى يعطيه فى الحلم مظهره المتحير. ومن ناحية أخرى، وفى لعبة الورقة المطوية المسماة «الجثة اللذيذة» القائمة على جعل ثلاثة أشخاص يرسمون على التوالى الأجزاء المكونة لشخصية ما دون أن يأخذ الثانى فى اعتباره إلهام الأول ودون أن يأخذ الثالث فى اعتباره إلهام الأولين (تنظر مجلة «ألوان» فى حزيران ١٩٢٩ ـ «الثورة

١ ـ ليس معنياً هنا قرن بالمفهوم المتعارف بل (مدة مائة سنة): كانط (١٧٢٧ – ١٨٠٤)، وهيغل (١٧٧٠ – ١٨٣١)، وفويرباخ (١٨٠٤ – ١٨٧٢)، وماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣).

السوريالية» العدد - ١٠ -) حدث لى أن جعلت خريطة فرنسا رأسا لأحد الكائنات المهجنة التى أريد تحصيلها.

نصف الدورة إلى اليمين

ينبغى أن ينظر إليه كتصحيح وضعية حقيقى، لا شك، فى المعنى الذى يؤول فيه «ستيكل» فى الحلم طريق اليمين: طريق الخير.

شبيه "كاشان"

إنه طبعا من نوع تصورى «ريازانوف» المزيف.

السفرة إلى ألمانيا

على هذه السفرة ينطبق معظم ما أورد حول الرغبة فى «عبور الجسر». جلى أن الاستيقاظ دنا، ومعه فكرة تحقيق الرغبات على الصعيد الواقعى. فاقتراح موضوع المحاضرة والإشارة إلى السخرية التى أثارها، ودخول «فايان - كوتورييه» الذى كان لى معه فى الشتاء الماضى حديث طويل حول إمكان استفادة الحزب الشيوعى من «السرياليين» كان هو شديد الحذر فيه، لا يخلوان من نوع من دعوة إلى الجانب العملى.

وجدت بعض الدراهم

ومعنى ذلك أن المتاعب التى بينت آنفا انتهت مؤقتا.

سنصطحب "ب" و"رنيه كلير"(١)

تستمر السخرية فيما يخص الأول، وهو كاتب أدب هزيل، «عديم الشخصية» حقا، جاء به الحلم، لا شك،للتذكير بأن «س» وصفته مرة بأن له «بطنا من فضة»، والدراهم(٢) التى جرى ذكرها فى الحلم هى

١ - رنيه كلير: Clair مخرج سينمائى فرنسى مشهور، انتخب عضوا فى المجمع الفرنسى.

٢ - كلمة Argent الفرنسية تعنى فى الأصل «الفضة» لكن استعمالها تجاوز المعنى الأصلى إلى معنى المال والدراهم.

التى أظهرت «س» ثانية، لكن دون تبين هذه المرة، كتشديد على أن «الجسر» قد اجتيز. أما «رنيه كلير» (إن كان هو) فقد جعله يدخل فى الحلم أنه مشترك بصورة خارجية فى إخراج فيلم سينمائى كلفنا «أراغون» وأنا بكتابة أحداثه وحواره - مقتبسين ذلك من موضوع رواية أوبرالية، وكان مقررا فى البداية تقديم عرضه الأول فى برلين ويعزو الحلم هنا إلى منظمى السفرة نية تعمد تضييق العمل الثورى الذى أود القيام به وذلك بإلزامه على أن يتم على الصعيد الفنى الأشد التباسا.

موضوع المحاضرة

إنه يعبر عن رغبتى فى أن لا أؤخذ على غفلة، وفى أن أتوصل إلى التوفيق على الصعيد الموضوعى بين مختلف اهتماماتى، وهى الرغبة التى تزداد إلحاحا داعية إياى إلى تعجيل القيام بعمل طالما أجلته آسفا.

لعل القارئ يقر لى أن هذا التحليل الذى يتبع محتوى الحلم الظاهر خطوة فخطوة والمقتصر بسبب إغفاله غيظى البنوى الذى تحدر عنه في الأغلب جزئيا والذى ليس للتذكير به سوى أهمية ثانوية، لم يدع جانبا أيا من العناصر الحديثة بدرجة أو بأخرى التى أسهمت فى تشكله. وقد جرى سبر بؤر التأثيرات التى اشتمل عليها فى جميع نواحيها ولم يبد منى أى تفضيل حصرى فيما يتعلق بالأولوية الواجب منحها لهذا النوع أو ذاك من الوصف التحديدى (ذاتى، موضوعى، عضوى، نفسانى) ومثل هذا التحليل الذى يمكن القول فيه أنه لا يكمل أبدا يبدو لى أهلا أن يوضح بما يكفى فكرة الحلم، التى لم أحاول البتة إخفاءها خلف حياتى الحميمة. وألح بشدة على أن هذا التحليل استنفد فى [illegible] محتوى الحلم وأبطل كل

الحجج التى أوردت تأكيدا لصفة الخفاء (اللاترابط) المميزة للحلم. لا سر فى نهاية الأمر. لا شئ يجعل الفكر الإنسانى يعتقد بتدخل قوة سامية يحصل فى أثناء النوم. ولا أرى فى كل استتمام عملية الحلم شيئا لا يقتبس جليا، إذا ما عمدنا إلى تمحيص، من معطيات الحياة المعاشة وحدها، وأكرر القول أنى لا أرى شيئا باستثناء تلك المعطيات التى تسرح فيها المخيلة شاعريا، يمكن أن يكون خلاصة قد يحاول اعتبارها غير قابلة الإطراح. فمن وجهة نظر الخارق الشعرى: هناك شئ ما ربما، أما من وجهة الخارق الدينى فلا شئ مطلقا.

خلافا لما يجنح المحتوى الظاهر لهذا الحلم إلى إبرازه كشاغل رئيسى، ومع أن أمر الربطة يتجاوب حقا مع ميل إلى اكتشاف وحتى إلى اقتناء كل غرض غريب، كل غرض «سريالى»، أظهر هذا التحليل أن التشديد يستقطب فى الصحيح شئونا أخرى وبالأخص كما رأينا، لزوم التخلص من عدد من التمثلات العاطفية، ذات الطابع المثبط. ففى السرد الذى لا يورد فكرة «عبور الجسر» صراحة بل يلمح إليها فى ثلاث طرائق على الأقل ويضمنها فى طى تأويل الشخصيتين الأقوى استرعاء للانتباه، وهما «نوسفيراتو» والشابة الألمانية التى كان دورها وسيلة تثبيت التوجيه وحسب، دعانى الحلم إلى أن أطرح، وقد يكون طرح عنى، الجانب الأكثر تنغيصا من الماضى. وأؤكد هنا فائدته الرئيسية، التى تتعدى كونها متعة باطلة كما يزعم البعض والتى تفوق مجرد عملية اندمال، بل التى هى تحرك فى أسمى معانى الكلمة أى بمعناها الخالص كتناقض حقيقى يقود إلى التقدم[١]. إنه، على النطاق الضيق لليوم المكون من أربع

١ ـ مبدأ التناقض، فى الفلسفة: هو عدم إمكان وجود نقيضين في آن واحد (كاستحالة السلب والإيجاب معا).

وعشرين ساعة، يعين الإنسان على إنجاز «**الوثبة الحيوية**». ما هو التبة اضطرابا فى تفاعل الاهتمام بالحياة، لكنه العنصر الشافى الساهر على أن لا يضطرب هذا التفاعل نهائيا. إنه المصدر الخفى للمعرفة الهادفة إلى تذكيرنا بأنه ليس فى بدء اليوم كما فى بدء الحياة الإنسانية على الأرض سوى طريق واحدة هى العمل.

أحسبنى أوضحت فى معرض إبرازى الصلة الرابطة بين «الحلم - التمهيد» و«الحلم الرئيسى» أن العلاقات السببية هنا لم تكن ممحاة أبدا. فعملية التأويل التى أفسحت لإدراك التغير المتفاوت الفورية لصور معينة (وجه «نوسفيراتو»، الخريطة، «ب»، إلخ...) لا تدع مجالا لأى شك فى هذا الصدد. فمن المعروف بالطبع، من ناحية، أن لا صيغة لدى الحلم يعبر بها عن الخيار أو التناقض، (ويلاحظ «فرويد»: «حتى فى حالة اللاوعى ترتبط كل فكرة بنقيضتها»). ومن ناحية أخرى، وفى حال اليقظة ذاتها، ومن وجهة النظر الجدلية التى يجب بكل ثمن أن تغلب على وجهة نظر المنطق الصورى «يتركز ويتشابك مفهوما السبب والمسبب فى مفهوم التبعية المتبادلة الكلية التى لا ينقطع السبب والمسبب فيها عن تناوب الموقع» (انجلز). وهذا الرأى وحده يبدو لى كافيا لبعض النظريات القائلة إن العلاقة السببية فى الحلم تُدخَل لاحقا.

يبقى أن نعرف إذا كان المكان والزمان، اللذان تعتبرهما الفلسفة المادية، لا مجرد شكلين للظاهرات، بل كشرطين جوهريين للوجود الفعلى، يمران خلال الحلم بأزمة معينة قد تُستَغَل عند الضرورة ضد تلك الفلسفة. إن نظرية «فيشتر» القائلة «إن مسرح الحلم ليس ذلك المسرح الذى تجرى عليه تمثلاتنا خلال اليقظة»، ونظرية «هافنر»

القائلة إن أول مميزات الحلم هو «انعدام الزمان والمكان» تكفيان وحدهما لجعلنا نفطن لذلك الخطر. إن فيهما دون أى شك مجرد التباس حول طبيعة عملية «التكثيف» كما تتم فى الحلم، أو شططا متعمدا مرتكبا بدءا مما يمكن رغم كل شئ أن يظل مبهما فى الظروف الخاصة بتلك العملية. إن إنسياقى، فى أثناء حلم واحد إلى أن أجعل يتدخل الأشخاص المختلفون الذين شغلوا المسرح قبل قليل والذين لا داعى لهم فى الحياة وخارج ذاتى أن يتصرفوا بصورة التبعية، يدل على حاجة الحلم اللازبة أن «يفخم» وأن «يهول»[1]، أى أن يقدم فى صيغة مسرحية من الأشد تشويقا ومن الأقوى تأثيرا مما تصُوِرَ وحدث فى الواقع ببطء ودون أية صعوبة تذكر، بشكل يمكّن الحياة العضوية من أن تتابع السير، بل ربما يكون فى هذا، مادمت أتحدث بلغة المسرح، ما يؤكد قاعدة «الوحدات الثلاث»[2] حسبما أوجبت اعتباطا فى التمثيلية الكلاسيكية، وكذلك قانون «الإقصار البالغ» الذى أضفى على الشعر الحديث أحد أبرز مميزاته. وبين هاتين النزعتين إلى الاختصار فى أسلوب موجز بارع التماسك فائق الموضوعية لكل ما يراد جعله ملزِما وملزَما بنوع أو آخر من الخاتمة لا يفصل تاريخيا أكثر من ثلاثة قرون أمضاها الإنسان وهو ينعى حظه أكثر وأكثر ويرغب فى حمل أجيال المستقبل على أن يفعلوا فعله. وعملية التكثيف هذه، تجرى مع ذلك فى كل لحظة خلال حياة اليقظة: «من المجتمع عليه أن انفعالا شديدا، إن فى اليقظة وإن فى الحلم يمحو مفهوم الزمن» (هافلوك أليس). والزمان والمكان لا

١ ـ كلمة Dramatiser الفرنسية تعنى أيضا، سرد فى صيغة مسرحية. والمعنيان هنا مقصودان بدلالة ما يلى التعبير من شرح فى النص.

٢ ـ قاعدة الوحدات الثلاث: شرط وجود وحدة العمل ووحدة الزمان ووحدة المكان فى المسرح الكلاسيكى.

ينبغي اعتبارهما هنا أو هناك، بل هنا وهناك معا، إلا من حيث وجههما الجدلى الذى يحد من كل إمكان قياس مطلق حى بمقياس المتر والساعة. وقولى هذا يتوافق تماما مع فكرة «فويرباخ»: «فى المكان يكون الجزء أصغر من الكل، وعلى العكس، هو فى الزمان أكبر، وهميا على الأقل، لأن الجزء فى الزمان وهو وحده الحقيقى بينما ليس الكل سوى معنى فكرى، ولأن ثانية واحدة فى الواقع تبدو لنا أطول مدة من عام بأكمله فى التخيل». وعلى ذلك يكون الزمان والمكان فى الحلم هما الزمان والمكان الحقيقيان: «هل الترتيب الزمنى إلزامى؟ - كلا.» (لينين). وكل محاولة للتمييز بين الحالين أو لدحض الأولين بواسطة الآخرين (أو بما تُزعَم ملاحظته من انعدام للآخرين (لا يرمى إلى غير المبادرة إلى نجدة «الإيمانية» كما سبق أن بين «انجلز»: «إن الكائنات خارج الزمان والمكان، الذين أوجدهم رجال الكهنوت وغذتهم مخيلة الجماهير الجاهلة المضطهدة ما هم سوى نتاج تصورات سقيمة، ذرائع لمثالية الفلسفة، **الحصيلة الفاسدة لنظام اجتماعى فاسد**».

لنتفق دون إبطاء على ماهية هؤلاء الكائنات. ينبغى أولا تمييزهم عن عدد من الإنشاءات الفنية التى تبدو، ظاهريا على الأقل، شاذة عن أوضاع الوجود الطبيعى لما سواها وأقتصر فأذكر من أمثلة تلك المشوهات إضافة إلى «المستمنى الكبير» لدالى الذى سبق الحديث عنه «الزمار» «لبيكاسو»، و«العراف» «لشيريكو»، و«العروس»

١ - الكلمة الفرنسية Monstre تعنى من فى خلقه تشوه عظيم. و« المشوه»: كل شئ من الخلق لا يوافق بعضه بعضا.

«لدوشان، و«المرأة مائة رأس»[1] «لإرنست»، وأيما شخصية غريبة حارقة لجياكوميتى. إن الخاصة المشوشة لتلك الأعمال لمتباينة، إلى جانب الميل الجارف منذ قرابة عشرين سنة فى سائر بلاد العالم إلى التكثير منها، فى نجاح متفاوت لكن على الرغم من المعارضة شبه العامة التى تلقاها، من شأنها حقا أن تجعلنا نتأمل فى أنها قد تكون استجابة لحاجة فى عصرنا هذا. وإنى لأرى خطلاً فاحشا فى سعى البعض إلى تلمس سوابق لها فى التاريخ، إن عند البدائيين[2] وإن عند المجازيين،[3] - فهذه الصور المختلفة التى يبعث منظرها الأولى المنكر والمبهم شده «الجاهل» بالإبداعات «المغلقة»[4] لا يجوز على أى حال قرنها بالكائنات المتخيلة المتولدة عن الرعب الدينى المنفلتة من الذهنية المبلبلة بدرجة أو بأخرى لدى أمثال «جيروم بوش» أو «وليام بليك»[5] لاشئ فى تلك الرسوم يسعه فى النهاية الاستعصاء على تأويل كالذى تناولت به موضوع الحلم ذاك: ربطة العنق «نوسفيراتو» وذلك شرط أن لا يرتكب الفنان خطأ اللبس بين

١ - فى هذه التسمية لعب على الألفاظ: فكلمة Sans: تعنى «بدون» وكلمة Cent تعنى «مائة» وتلفظ كلتاهما «ثنسان» وتوكيدا لتعمد هذا اللاعب جعل الرسام العنوان يحمل الرقم الأجنبى«100٪ » (أى «مائة» بالأرقام).

٢ - «البدائيون» عموما: فنانو الرسم والنحت فى عهود ما قبل النهضة (القرن السادس عشر) وتخصيصا: الفنانون الذين كانوا يصورون مشاهد دينية متخيلة تبعا لوحى الفكرة دون عناية بالجمالية Primitifs.

٣ - «المجازيون» Mystiques الفنانون الذين كانوا يرسمون تصورات دينية فى أشكال إيحائية رمزية.

٤ - هنا تشبه مجازى ببعض المذاهب السرية القائمة على المكاشفة التى تخفى معانيها تدريبا بواسطة أحد «العارفين».

٥ - «بوش Bosch (١٤٥٠ - ١٥١٦) رسام هولندى عالج مواضيع خارقة أو رمزية بتخيل غريب شاذ. «بليك» Blake (١٧٥٧ - ١٨٢٧) شاعر ورسام انجليزى مال فى ممارسته للفنين إلى التصعيد الفائق الرومنسى.

الغموض الحقيقى المستمر لعمله وبين محاولات تخفية زرية، كما هى الحال غالبا للأسف. والمذهب العام - المتباين - الذى يوحى بنشوء هذا العمل، أيا كان، ومهما كان قادرا على التعليل - اللاحق لهذه الطريقة أو تلك فى العرض (تكعيبية، مستقبلية، بنائية، سريالية[١] - على أن هذه الأخيرة أوعى قليلا من سابقاتها لوسائل الفنية الحقيقية)، ينبغى أن لا ينسينا أن شواغل خاصة حصراً بالفنان لكن متصلة فى جوهرها بشواغل جميع الناس تجد هنا سبيل التعبير عن ذاتها فى صيغة ملتوية، بحيث يقضى، لو أفسح لنا أن نبلغها بالاستقصاء، على آخر إمكان لهذا العمل أن يزعم نفسه فى نظر غير الخبيرين عملا «غيبيا»[٢] وأجد نفسى مرغما كيلا أثقل هذا القسم من شرحى، على التخلى عن أن أخضع للتأويل، كما فعلت بحلم، قصيدة صادف أن كتبتها أو، وبالأحرى، نصا سرياليا. وآمل أن تحاول التجربة يوما ولا أشك فى أنها ستكون جازمة كليا. وسأكتفى هنا ببيان أسوأ الإيضاحات حول الدلالة الحقيقية التى أنسبها، منذ بضعة أيام فقط، إلى شئ تصورته خلال لعبة «الجثة اللذيذة» التى انسقت قبل صفحات إلى عرض قاعدتها الصبيانية. هذا الشئ -

١ - المذهب التكعيبى Cubisme: مذهب فنى ظهر حول عامى ١٩٠٦ - ١٩٠٨ يقرر وجوها مختلفة لشئ واحد يمكن أن تمثل معا فى شكل رسوم هندسية.

- المذهب المستقبلى Futurisme مذهب أدبى وفنى ظهر فى إيطاليا (حول عام ١٩٠٦) فى محيط «مارنيتى» (١٨٧٦ - ١٩٤٤) وكان متمردا على التقاليد وعلى المدرسية وعلى الأخلاق ويدعو إلى تحرى الإحساس المنشط الفعال.

- المذهب البنائى Constructivisme مذهب جمالى نشأ عام ١٩٢٠ ليعارض النحت التقليدى الكتلوى لنحت فراغ محاط بتنسيق خطوط سطوح مستوية.

- المذهب السريالى Surréalisme حركة أدبية وفنية تهدف إلى التعبير عن الفكرة الخالصة مع نبذ كل منطق وكل اهتمام أخلاقى وجمالى.

٢ - «غيبى» Métaphysique (خارق للطبيعة) تجريدى مطلق مغلق لا يمكن استكشاف فحواه.

الوهم الذى لم ينقطع منذئذ يتراءى لى قابل التنفيذ والذى كنت أتوقع من منظره الحقيقى مفاجأة عنيفة، يمكن أن يبين كالتالى (رسمته، كيفما اتفق، على أنه جذع إنسان، على الثلث الثانى من الورقة - وقد نشر هذا الرسم فى العدد (٩ - ١٠) من «الثورة السريالية»): مغلف فارغ أبيض أو قريب جدا من الأبيض، بلا عنوان، مغلق ومختوم بالأحمر، والختم المدور لا يحمل نقشا معينا، وممكن جدا أن يكون ختما قبل النقش، أطرافه مغروسة بأهداب، عليه عروة جانبية يمكن استعمالها فى إمساك المغلف، وتلاعب لفظى سخيف ساعد مع ذلك على تأليف هذا الرسم زودنى بكلمة: «صمت»[1] التى بدت لى صالحة أن ترافقه أو أن تقوم مقام التسمية له. إنه، فى ظنى، نتاج تخيل لا يفتَرَض لأول وهلة أن يستخلص منه معنى: وشأنى وإن استمد من تحقيقه العملى أى انفعال يروق لى، وليشاركنى فى هذا الانفعال من يشاء. إنه على الأقل أتى فى ظروف اعتباط كاف كيلا يخطر لأحد أن يسجله على كمطعن. ولئن جاز إنكار الأهمية الموضوعية لمثل هذا التصور، وعلى الأخص القيمة النفعية لمثل هذا التنفيذ. كيف يمكن، دون مزيد من التحقق، أن أؤاخذ على أنى تمسكت به، أو على الأقل أن تُدرَكَ الأسباب التى قد تكون دعتنى إلى التمسك به. فإنما هو شئ شاعرى جيد أو غير جيد على الصعيد الشاعرى، ليس غير. ويتوقف الأمر كله على معرفة ما هو هذا الصعيد. إذا تذكرنا القوى العظيمة التى يمكن أن تبلغها فى ذهن القارئ جملة «لوتريامون»[2] الشهيرة: «جميل... مثل الالتقاء الطارئ

١ - التلاعب اللفظى هنا هو أن كلمة «هدب» هى بالفرنسية، «Cil» وكلمة عروة «الإبريق» هى Anse ووصل الكلمتين ببعض يعطى صوتيا كلمة سيلانس Silence أى «صمت» أو «سكوت».
٢ - لوتريامون Lautréamont (١٨٤٦ - ١٨٧٠): شاعر فرنسى اعتبرته «السريالية» رائدا لها.

على طاولة تشريح بين آلة خياطة وبين مظلة»، وإذا أردنا الرجوع إلى تفسير الرموز الجنسية الأبسط، لن نبطئ فى التسليم بأن هذه القوة ناشئة عن أن المظلة لا يمكن هنا أن تمثل سوى الرجل، وآلة الخياطة لا يمكن أن تمثل سوى المرأة، وأخيرا لا يمكن لطاولة التشريح أن تمثل إلا السرير الذى هو ذاته رمز مشترك للحياة والموت. وبعد العملية الجنسية المباشرة عن الصورة البالغة التشتت التى رسمها لها «لوتريامون» يثير هنا وحده الدهشة الصادعة. ويصح، والحالة هذه، التساؤل عما إذا كان «المغلف - الصمت» على ما يتصف به من تفاهة وكيفية، لا يُكن هموما حميمة معينة، وبصفة أخرى لا يدل على مخامرة نفسانية أكثر إغراضا. ولا أحسبنى فى حاجة إلى كبير تحفظ كى أوضح قصدى. لقد ثبت بالبرهان أنه لا ينبغى اعتبار ظاهر محتوى ارتجال شعرى، تماما كما بالنسبة لحلم، شافاً عن مضمونه الباطن. فهناك حلم برئ أو مؤنق: («خلال إقامتهما الصيفية على بحيرة... ألقت بنفسها فى الماء الداكن، عند موضع انعكاس البدر الشاحب...») يمكن أن يستدعى لدى التحليل تفاسير مختلفة أقل إبهاجا، وحلم آخر «يخدش الحياء» فى ظاهره لا يخلو تأويله من معنى كريم (ينظر «علم الأحلام» - الصفحة ٤١٩ -). فبإعادتى، قبل أيام، رسم «المغلف الصمت» انتابتنى أولى المخاوف حول النقاء الخالص لغايته وعلى أنى لا أحسن الرسم مطلقا فقد جاء رسمى ذاك أسوأ أداء. وإذ كنت أنظر إليه فى وضع عرضى قليلا بدا لى أن الشكل الذى أخرجته فيه يميل جدا إلى تمثيل شئ آخر، وتلك العروة على الأخص، رابتنى كثيرا، كذلك لم تكن الأهداب الموزعة على تلك الصورة كما حول عين أدعى للثقة. وانصرف ذهنى،

على الرغم منى، إلى المزحة السخيفة - المجهولة الأصل - التى جعلت تلك العين تمثُل فى قعر آنية معينة، ذات «أذن» كالعروة فعلا. فكلمة «صمت» واستعمال الورق فى الإنشاء، وأكاد لا أجرؤ على ذكر الختم الأحمر، ما كان لهما أن يأخذا فى تلك الحالة سوى معنى واحد بالغ الجلاء. والتكثيف والنقل الناتجان عن الكبت أكملا التصور، ولم يعد علىّ، إتماما لإقناع نفسى، إلا أن أضع، فكريا، «الغلاف ـ الشبح» فى يد شبح «يمسكه كما ينبغى أن يمسك» وأن ألاحظ أنه غدا فى الوضع الملائم ـ له. ولم أكن فعلت، فى الواقع، غير أن تحققت، لحسابى، من أن «الأشباح» (شأن قطاع الطريق الوهميين الذين يظل أحيانا يخافهم الإنسان البالغ)، كما قال «فرويد» هم، لكن مصعدين ـ[1]» زوار الليل فى ثياب النوم البيضاء الذين يوقظون الطفل ليجلسوه على «المبولة» كيلا يندى سريره، أو الذين يرفعون أغطيته ليروا أين يضع يديه خلال سباته». ولا حاجة للقول إن مثل تلك الاعتبارات لا يمكن فى نظرى أن تحول دون تداول أشياء من هذا النوع، وهو ما لم أفتأ أدعو إليه منذ أمد طويل، بل أضيف أنها على العكس حجة لتشجيع هذا التداول. وكنت ألحت على أصدقائى منذ عهد قريب أن ينفذوا اقتراح «دالى» المتعلق بصنع أشياء قابلة التحريك ذات مدلول إباحى، أى أشياء غايتها أن تبعث، بطريق غير مباشرة، انفعالا جنسيا معينا. وقد نشر الكثير من صور تلك الأشياء فى العدد الثالث من «سريالية» وعن تلك التى عرفتها أخالنى أستطيع القول، دون أن

١ ـ التصعيد Sublimation: هو فى الأصل فى الكيمياء: تحويل الجامد مباشرة إلى بخار دون تمييعه أولا. وقد استعمل «فرويد» التعبير فى علم النفس على أنه الارتفاع التصورى بالأشياء العادية إلى درجة السمو الروحى .

يحمل قولى أى انتقاص من قيمتها التأثيرية البالغة ومن «جمالها» أنها توفر مجالا للتأويل أقل اتساعا من الذى توفره الأشياء المضمنة ذات المعنى لكن غير المحددة القصد بذات الوضوح. فالدمج المتعمد للمحتوى الباطن - المقرر سلفا - فى المحتوى الظاهر من شأنه هنا إضعاف الميل إلى «المسرحة» وإلى «التفخيم» اللذين يستعملهما الكبت إلى أقصى حد فى الحال العكس. ولا شك أخيرا فى أن مثل تلك الأشياء ستبقى أبدا مفتقدة قدرة الإيحاء المذهلة التى فى بعض الأشياء شبه المألوفة، وحسبى منهما مثالاً «الكاشف الكهربائى»(١) ذو الصفحتين الذهبيتين: (تكون الصفيحتان منضمتين تماما فى مركز قفص، فإذا أُدنى منهما قضيب مفروك انفرجتا) الذى يسهم جدا فى إشغاف الأطفال بدراسة الفيزياء.

أما وقد بطلت الحجة الرامية بواسطة الحلم إلى إدانة المعرفة المادية(٢) - وأظن قد سلم بأن عالم الحلم والعالم الواقعى عالم واحد، أى أن الثانى(٣) - لا يفعل كى يتشكل سوى الاغتراف من «سيل المعطى» - لم يبق إلا السعى إلى إظهار تباينات الوضوح والحدة القائم عليها التميز الذى يمكن أن يجرى بين العمليات الحقيقية والعمليات الوهمية الحاصلة فى هذا وذاك، إذ من الجلى أن على هذا التمييز نفسه يتوقف الاتزان العقلى. فإن يحدث لدى الإنسان أقل تشوش دائم فى هذا الشأن يصبح مختلا بحيث ما من مجتمع يمكن

١ - «الكاشف الكهربى» Electroscope: جهاز يمكن من تعيين صفة الشحنات الكهربائية ومعرفة سلبيتها أو إيجابيتها.

٢ - المذهب المادى Matérialisme : موقف فلسفى يعتبر أن المادة هي الحقيقة الوحيدة وينفى وجود الروح وعالم الغيب والله. والمادية الحديثة، وهى المادية «الجدلية» تمثلت فى ماركس وانجلز ولينين وستالين.

٣ - ظاهر أن المؤلف سها فذكر الثانى إذ أراد ذكر الأول.

أن يفسح له فيه محلا. ويجوز فى هذه الحالة التساؤل عما إذا كان هذا التميز مبنيا فى كل وجوهه على أساس سليم ومن أين أوتى الإنسان قدرة التفريق هذه التى تتيح له تصرفه الاجتماعى السوى. لقد كثر الحديث مجددا، فى السنوات الأخيرة عن الخصائص الأغرب، وربما الأبعث على الحيرة، التى للحلم. فالاختيار الحسى المتعارف عليه بين العامة والقائل إنه يكفى المرء، للتثبت من أنه لا يحلم، أن يقرص ساقه ليشعر بالألم الناشئ خاصة عن تلك القرصة، لم يتأكد عدم قبوله الخطأ: إذ استذكر عديد من الحالمين أنهم توصلوا بنجاح تام فى أثناء نومهم إلى القيام بتلك التجربة. وكذلك يكاد يكون مألوفا أن يحلم المرء أنه يحلم، أو أن يُدخل فى حلمه جزءا من تصرف مستقل يكون، خلافا لما سواه، معتبرا أنه تم فى حلم. وأخيرا فإن شاعرية الحلم التى لا تحجم دون أى تقدير ذكى أو مكار أو مضلل لذات عملها، قابلة أن تقارَن بالفكرة التى يتخذها الحالم عنها كيما يجني فائدة من هذه المقارنة. وبما أن هذه الخاصة لم تلاحظ ولم يسلم بها حتى الآن أجيز لنفسى تقديم المثال التالي: وخلافا لما بدا لى ضروريا فى موضوع حلم ربطة العنق، لن أفعل فى صدد الحلم الجديد كيلا أصرف انتباه القارئ، غير أن أرويه فى خطوطه العريضة مكتفيا بالتشديد على الجزء الأخص الذى يهم بحثنا.

حلم ٥ نيسان- ١٩٣١- الاستيقاظ الساعة السادسة والنصف صباحا. التدوين فورى.

مساء، مع صديق، متجهين نحو قصر مفترض أنه فى ضاحية «لوريان»*. الأرض مبتلة. الماء يكاد يصل إلى منتصف الساق.

* (الملاحظات المنجمة هى للمؤلف): لوريان: المدينة التى يقطنها أبواى.

ذلك الماء السكرى اللون، مع بقايا خضرة داكنة مريبة المظهر ومع ذلك مستحبة جدا. كثير من الأعشاب الطويلة تمر من فوقها سمكة رائعة فى هيئة مغزل ذى عفرية[1] لها بريق أرجوانى ونارى شديد الشبه بلمعان المعدن. طاردتها لكن، كما لو أرادت أن تتحدانى، سارعت سيرها منطلقة نحو القصر. خشيت أن أسقط فى حفرة. الأرض أكثر جفافا. قذفتها بحجر لم يصبها أو أصاب جبهتها. بدلا منها رمتنى «امرأة طائر» بالحجر. سقط الحجر فى فرجة ما بين ساقى، الأمر الذى أخافنى وجعلنى أتخلى عن مطاردتها.

ملحقات القصر. قاعدة طعام، ذلك أننا جئنا «للحشيش»*. أناس آخرون، كثيرون موجودون هناك للغاية ذاتها. لكن هل هو حشيش حقيقى؟ بدأت بتناول مقدار ملعقتين (مصفرتين قليلا، لا خضراوين بما يكفى، حسب تقديرى) فى رغيفين صغيرين مدورين ومشقوقين شبيهين بالأرغفة المقدمة فى ألمانيا مع وجبة الصباح. أنا خجل جدا من الطريقة التى حصلت بها عليه. الخدم المحيطون بى يبدون ساخرين جدا منى. الحشيش الذى يقدمونه إلىّ وإن يكن أكثر قليلا اخضرارا ليس له تماما الطعم الذى أعرفه.

فى منزلى صباحا. غرفة شبيهة بغرفتى لكن ممتدة فى اتساع. لايزال يخيم الظلام. من سريرى ألمح فى ركن اليسار طفلتين فى سن الثانية والسادسة تقريبا، منصرفتين إلى

١ ـ العفرية: نتوء من فوق الرأس كعرف الديك.

* لم أتناول الحشيش فى الحقيقة سوى مرة واحدة، منذ سنوات عديدة وبكمية زهيدة جدا.

اللعب. أعرف أنى تناولت حشيشا وأن وجودهما مجرد توهم. كلتاهما عارية وهما تشكلان كتلة بيضاء متحركة في غاية الانسجام. من المؤسف أن أكون نمت. تأثير الحشيش سينتهى قريبا. أخاطب الطفلتين وأدعوهما أن تأتيا فوق سريرى. فتفعلان. ياله من شعور عجيب بالواقع. ألفت نظر أحد الناس، الذى هو «بول ايلوار» ولابد. أنى ألمسهما. فعلا أحس أنى أشد بيدى على ساعديهما قريبا من مفصل اليد. وأن ذلك ليس مطلقا كما فى الحلم حيث يكون الإحساس ضعيفا بدرجة متباينة. حيث يفتقد عنصر ما عصى على التعريف. خاص بالإحساس الحقيقى، حيث لا يكون الإحساس أبدا كاملا كما حين يقرص المرء نفسه أو يضم إليه أحداً «فعلا». هناك على العكس لا يوجد أى اختلاف. إنه الواقع تماما. الواقع المطلق. الطفلة الصغرى. الجالسة مفرشخة فوقى تزن علىّ وزنها بالضبط. الذى أقدره. الذى هو وزنها الصحيح. فهى موجودة إذن. أجد نفسي وأنا أقوم بهذه الملاحظة مغمورا بشعور رائع (إنه أقوى شعور بلغته قط فى الحلم). على أنى. جنسيا لا أهتم البتة بما يجرى. إحساس بالحرارة وبالرطوبة أخرجنى من تأملاتى. إنها إحدى الفتاتين تبولت. اختفتا معا.

يدخل والدى. أرض الغرفة تنتشر عليها بُوَح جافة تقريبا لكن لاتزال تلمع عند حفافها. فى حال ما إذا وجهت إلى ملاحظة حولها أفكر باتهام الطفلتين لكن ما الفائدة إذا لم تكونا موجودتين. وبصيغة أدق إذا كنت لا أستطيع أن أعلم بوجودهما شخصا لم يتناول حشيشا؟ كيف أعلل الوجود «الحقيقى». لتلك

البوح؟ كيف أقنع أحداً بصدقى؟ زعمت أمى، وهى فى سخط شديد أن جميع أثاثها ملطخ فى الماضى على هذه الصورة وبفعلى أنا فى «موريه»* - أنا وحدى ثانية ومضطجع: تبدد كل داع للقلق. اكتشاف ذلك القصر بدا لى توفقاً عظيماً. أى علاج ضد الملل؟ أتذكر ببهجة شديدة وضوح الصورة التى رأيتها قبل قليل. وعلى الفور ها هما الفتاتان تتشكلان فى ذات المكان إنهما تتخذان بسرعة قوة حضور رهيبة. أشعر أنى أقارب الجنون. أطلب صارخا أن يولع النور. لا أحد يسمعنى.

يبدو أن «ستيكل» الذى استشهد به «فرويد» كان أول من استخلص معنى استخدام الحلم، وبتعبير آخر، أول من قلّص إلى قيمتها الحقيقية تلك العملية التى تتكشف فى التحليل عن أنها لا غاية لها سوى تجريد جزء من الحلم من صفته كواقع مفرط الثبوت. فالمقصود فى مثل هذه الحال تذكار حقيقى من شأنه أن يعرقل تحقيق الرغبة، ويخضع إلى إضعاف ضرورى غايته التمكين، فى أفضل الظروف، لهذا التحقيق. ونكون هنا أمام إنكار مطلق لواقعة حدثت لكن ينبغى التغلب عليها بأى ثمن، إنه إضفاء الصفة الجدلية على فكرة الحلم التى، وهي مضطرة إلى بلوغ غرضها، لا تجد سبيلا غير تحطيم آخر الأطر المنطقية. فهذا الأمر المعين الذي كان يجب أن يعتبر كأن لم يكن، يجب أن يطويه، عند الاستيقاظ، النسيان. لكن حتى إذا كان التأويل الذى قمت به للحلم الذى رويته لتوى لم يكف لإثبات ذلك بذات الوضوح فمن السهل تصور أن هذا الحلم الذى يتقدم كالمقابل الكلى لتلك الصفة التى سلف بحثها، بمعنى أنه اندرج

* لم تقطن أمى قط فى هذه المدينة.

فيه جزء من حلم يعتبر غير ممكن مطلقا أن يحلم، إنما هدفه أن يجعل من أمر لم يكن - لكن أحس به بشدة كأمر أمكن أن يكون، وبالتالى يمكن ويجب أن يكون - أمرا كان إذن محتملا من كل الوجوه، ينبغى أن ينتقل دون عائق إلى الحياة الواقعية شأن كل احتمال. ولا أحسب أن علىّ، بعد كل ما تم قوله، تحذير القارئ من الفكرة السقيمة بأن إرضاء الرغبة المتوخى يمكن أن يكون هنا على ارتباط مباشر مع رؤية أو مع لمس الطفلتين. إذ لا تتجاوب هاتان، مثلهما مثل «ربطة العنق نوسفيراتو» فى الحلم الأول. مع أى واقع موضوعى، ولا تدينان بحدة وجودهما إلا لقوة تخيل بالغة (فى الاستيقاظ الفورى) وبالتالى لأن تشكلهما هو الذى تطلب فى الحلم أعظم عملية تكثيف وتركيز.

وهكذا تكون آخر حجة لمنازعة «المادية» بمقابلتها بالأمور المذكورة آنفا، وهى الحلم الواعى ذاته، وإدراج حلم واع فى حلم لا واعى، والحلم الذي يزعم نفسه، مع أدلة «ملموسة» واقعا معاشا، باطلة كسابقاتها. فما من شئ يستطيع جعل الإنسان الموضوع فى ظروف غير مرضية، يتردد فى الاعتراف بالواقع الخارجى حيث يكون وفى إنكاره حيث لا يكون، والأشياء الخارجية المحيطة بنا، على نقيض «الربطة نوسفيراتو» و«الطفلتين العاريتين» «حقيقية فى أن الأحاسيس التى تشعرنا إياها تبدو كأنها موحدة برباط مجهول الكنه مستحيل الحل لا بالمصادفة فى يوم» (هنرى بوانكاريه)[1] ومعروف أن صاحب هذا القول لم يكن دائما ذا آراء بمثل هذا السداد وهذا

١ - هنرى بوانكاريه (١٨٥٤ - ١٩١٢) أحد أعظم علماء الرياضيات فى عصره ويغيظ الكاتب منه أنه كان «مؤمنا».

الوضوح. ولا يحول ذلك دون أن يكون هنا صائب الإلهام إذ أعطانا، للتمييز بين الأشياء الحقيقية وسائر ما سواها، هذا الأساس الذى يمكن أن نعتبره فى نهاية الأمر ضروريا وكافيا: «**المعيار الحسى مخضعا لامتحان الزمان**». وينبغى كيلا يكون هذا المعيار صالحا أن يختلف الزمان فى الحلم عن الزمان فى اليقظة، وقد رأينا أن لا اختلاف بينهما. والرباط الظاهر الذى يوحد بين الأشياء الحقيقية وحدها دون كل ما عداها يجب هو أيضا أن يعتبر حقيقيا. إنه يشكل جزءا موضوعيا من العالم الخارجى، وصورته لدى الإنسان هى العادة وهو وحده الذى يسهر بالنسبة إلى هذا العالم على ما يُزعَم سر عدم امحائه.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سيدة أحببتها طويلا

وسأدعوها باسم

«أوريليا»

غدت ضائعة مني

جيرار دو نيرفال

«أوريليا»

يوم الخامس من نيسان، عندالظهر، فى مقهى على ساحة «بلانش» (أى الساحة البيضاء) اعتدنا ارتياده أصدقائى وأنا، أطلعت «بول ايلوار» على حلم ليلتى «حلم الحشيش» وأوشكنا أن ننتهى من تأويله معا، فقد كان يرافقنى معظم ساعات النهار الماضى * حيث التقت عينى عين امرأة - أو فتاة - شابة جالسة صحبة رجل على بعد خطوات منا، وإذ لم تبد أى تبرم من تحديقى فيها رحت أتأملها تفصيلا من رأسها إلى قدميها فى بالغ مؤانسة، أو لعلى من فورى لم أعد أستطيع صرف لحظي عنها، وراحت عينها تبتسم لى دون خفض بصرها وكأنها لا تخاف أن يؤاخذها رفيقها على ذلك. أما هذا، وكان فى غاية السكون والسكوت، بعيدا بأفكاره جدا، فى الظاهر عنها، - وكان يقارب الأربعين - فقد تراءى لى إنسانا خامدا فاقد الهمة جديرا جدا بالعطف - ومازلت أذكره جيدا: هزيلا أصلع مقوسا بائس الهيئة حقا، مثالا للإهمال فى اللبس، وبجانبه كانت تلك الشابة تبدو على قدر من النباهة والبهجة والثقة بالذات، وعلى قدر من شدة الإثارة فى كل تصرفاتها بحيث أن تصور أنهما متعايشان يكاد يدعو إلى الضحك. كانت ساقها البديعة السكب المكشوفة قصدا إلى ما فوق الركبة بلفها على الساق الأخرى تهتز بسرعة وببطء وبتسريع فى شعاع الشمس الشاحب الأول - الأجمل - منذ مطلع السنة. عيناها (ولم أتعرف أبدا على لونهما وقد ظلتا فى حافظتى عينين مشرقتين[1] ولا أدرى كيف أصفهما، كانتا

* أنه لأمر عظيم القيمة أن يكون لنا شاهد على مرحلة عيشنا فى اليوم الفائت، لا لسبب أنه يمنع الكبت من سوق المؤول فى الطريق الخطأ وحسب، بل أيضا لأن ذاكرة هذا الشاهد من شأنها إرجاع جزء العناصر الواقعية الأحفل بالدلالة، بما أنها هى ذاتها المعرضة للتحوير، وكذلك فى تأويل حلم «ربطة العنق» ما كنت ربما أستطيع الاستغناء عن معاونة «جورج سادول».

١ - المشرق Clair هو المائل إلى البياض والمسمى عاميا بالفاتح أو الكاشف ويقابله المطبق أى Foncé المائل إلى القتمة والمسمى عاميا بالغامق لأن الفاتح والكاشف والغامق لا تحمل فى العربية أية دلالة بالنسبة إلى الألوان.

من اللاتى «لن تُرى ثانية أبدا». كانتا فتيتين، صريحتين، نهمتين، دون فتور، دون صبينة، دون حذر، دون «روح» بالمعنى الشاعرى (الدينى) للكلمة. عينان يهبط عليهما الظلام، ولابد، دفعة واحدة. وفى نوع من اللياقة الفائقة التى تحسنها النساء الأكثر افتقادا لها، وذلك في مناسبات تزداد ندرة كلما ازدادت المرأة إدراكا لحسنها، وكما للتلطيف من تأثير ما فى هيئة الرجل من زراية، كانت هي ذاتها في أبسط ملبس. هذا إلى أن كل ذلك البؤس، على عجبه، قد يكون حقيقيا. وقد استشففت، دون تعميق، غوراً من الشقاء والجور الاجتماعيين هو فعلا ذاك الذى يقابله المرء كل يوم فى البلاد الرأسمالية. ثم خامرنى أنهما ربما كانا فنانى سيرك، أو بهلوانين من الألى لا يندر التقاؤهم فى هذا الحى. وإنى لأدهش دوما لرؤية زوجين يبدوان لغرابة اجتماعهما، خارجين عن أنماط الاختيارالحالية: المرأة التى تفوق بجمالها على استحقاق الرجل لها، وهذا الذى كانت هناك ضرورة مهنية لإلحاقها بنفسه، نظرا إلى جمالها وحده، المنهك بعمله الخاص الأتعب والأصعب، على أنها كانت فكرة عابرة غير ممكنة الاستقرار لأن ذلك اليوم كان عيد الفصح ولأن الشارع كان يضج بكامله بصوت السيارات الكبيرة المتجولة فى باريس بأجانب زائرين. وقد لا يكونان غير عابرى سبيل، وبشكل أدق ألمانيين كما استطعت التثبت فيما بعد. كنت واثقا وأنا أنظر إليهما يغادران أن المرأة الشابة التى أطالت الالتفات إلى خلف ستعود فى الغد، أو، إذا عاقها مانع، فى أقرب يوم تستطيع.

كان يتملكنى، حسبما أذكر، فى ذلك الحين، الجزع الذى خلفه في افتقاد امرأة لن أدعوها بأى اسم كيلا أكدرها، وذلك بطلب منها.

كانت هذا الجزع مبنيا رئيسيا على ما كنت فيه من استحالة تقدير الأسباب ذات الصفة الاجتماعية التى قد تكون فرقت بيننا إلى الأبد، كما تصورت منذئذ. أحيانا كانت تلك الأسباب تشغل كل ساحة معرفتى وهى معرفة يغشيها انعدام أثر ملموس لذلك الاختفاء نفسه، وأحيانا كان اليأس يتغلب على كل اعتبار مقبول فأغرق فى مجرد التكره من العيش ولم أعرف بعد كيف استمررت فى العيش وكيف سيمكننى العيش. إنى لا أتعذب مرة، وإن حطنى القول، من غياب شخص ومن الوحدة قدر تعذبى من كونه فى مكان غير حيث لا أكون، ومما قد أتخيله، رغم كل شئ، من كل ابتهاجه لأمر تافه، ومن اكتئابه، ومن تبرمه أن تكثفت السحب فى يوم. وأن أحرم فجأة من إمكان أن أقدر واحدا واحدا انفعالات هذا الشخص تجاه الحياة الخارجية هو الذى يهبطنى إلى دْرك ذاتى. ومازلت عاجزا حتى اليوم عن تصور كيف يصبر على ذلك، ولن أزال أبدا. إن الحب، إذا نظر من الجانب المادى ليس البتة داء مخجلا. وكما لاحظه «ماركس» و«انجلز» فى «الأسرة المقدسة»: لا يعد كون الحب عصيا على الحكم النقدى النظرى العاجز عن تحديد منشأ وهدف له بشكل قبلى، ولا كونه، بالنسبة إلى التجريد «لا يحمل جواز مرور جدلى» (فى معنى الكلمة الردئ)، حجة لنبذه بوصفه صبيانيا وخطيرا. ويضيفان: «إن ما يهاجمه النقد هنا ليس الحب وحسب، بل كل ما هو حى، كل ما يقع مباشرة تحت الحواس ويندرج فى ميدان التجربة المادية التى لا يمكن مطلقا تعيين أى من أصلها وغرضها» وكنت كما أسلفت القول فى وضع إنسان وجب عليه، وقد خال أنه فعل كل شئ كيما يدفع القدر السئ المعاكس للحب، أن يسلم بواقع أن الشخص الذى كان

حاجته الأعظم لزمن طويل، قد انسحب من حياته، وأن المرام نفسه الذى كان بالنسبة إليه «حجر الزاوية للعالم المادى» قد ضاع منه، لكم قلبت النظر فى ذلك الشخص من حيث افتقاده للاتزان الاجتماعى كما قلبت النظر فى وضعى الاجتماعى أنا ذاتى. ولم تكن النتيجة سوى تثبيتى على فكرة أن تغيرا اجتماعيا جذريا يكون أثره أن يمحو، مع النتاج الرأسمالى، أوضاع الملكية الخاصة به هو وحده القادر على تأمين الغلبة، فى صعيد الحياة الواقعية، للحب المتبادل، طالما أن لهذا الحب، بفعل طبيعته، «حدا معينا من الدوام ومن القوة يؤدى بالطرفين إلى اعتبار عدم التملك وكذلك الفراق كمصاب كبير، إن لم نقل أعظم المصائب» (انجلز «نشوء الأسرة»).، ولأنه قد يحصل له مع ذلك أن يصطدم، بصورة مؤسية، فى حال تهيؤ الطرفين غير الكافى، باعتبارات اقتصادية يزيد فى تأثيرها كونها مكبوتة أحيانا. ومثل تلك الأفكار لم يكن لها فى الحقيقة أى عزاء لى يستحق الذكر ولم توفر للألم الذى كنت أشعره سوى سلوان بالغ الضعف. كان أمرا مختلفا، كإحساس المرء بالأرض تميد به لدى كل خطوة، أن يجد أن شيئا جوهريا، خارجيا تماما، قد غاب عن حواسه آخذا معه، بالنسبة إلى، وبالنسبة إلى وحدى كما كنت أعلم، كل الأشياء الأخرى، ملقيا شكا ممضا حول ثبات كل الأشياء الأخرى حتى صرت غير متمسك بها غير حافظ لها، نابذا إياها لا كثانوية وحسب بل أيضا كمريبة. نعم خسرت اللعبة، وخسرتها تماما. حتى أنها لم يبق لى فيها، فى الظروف التى جرت ضمنها، فخر أنى لعبتها. وأمام عينى كانت الأشجار والكتب والناس تتلوح وفى قلبها خنجر.

(لست فى أحوال كهذه قادرا على أن ألجأ إلى التساكرات

المبتذلة، إذ يخطر لى أنى سآخذ فيها سريعا فكرة عن نفسى غير ملائمة لاستمرار حياتى ذاتها. إنى أكره الوسط الاجتماعى وألهياته. لم أعاشر قط مومسا. ويرجع هذا من ناحية إلى أنى لم أحب - ولا أحسبنى قادرا أن أحب - مومسا، ومن ناحية أخرى إلى أنى أتحمل العفة جيدا حين لا أحب. لكن سيبدو لى شائنا فوق كل حد طرد صورة شخص محبوب بصورة شخص أو أشخاص غير محبوبين، وأستمر فى اعتبار أن عمليات الحب هى الأخطر: فإلى جانب النتائج الاجتماعية التى لا أخفى عن نفسى أنها قد تنجم عنها لا أنسى أبدا، وذلك من نفس وجهة النظر المادية «إن ما يتحداه المرء عند الغير كنهه ذاته» (انجلز) وكيما يكون الشأن كذلك يبدو لى وجوب أن تكون كلمة «الغير» فى تلك الجملة محددة فى عدد من الناس وبالأخص فى الذين يمكن أن يكونوا، بالنسبة إلى الفرد المعنىّ، سبب التهاء أو تمتع وقتيين. وتجنبا لكل لبس أحرص على إضافة أننى لا أقرر مبدأ عاما، بل لا أبغى سوى المساعدة على فهم ما تقدم وما سيتبع: ولا أستطيع فعل ذلك دون التحدث عن نفسى).

لكنى عدت، بكامل إدراكى، إلى الفوضى. عندما تعبت الأفكار التى كانت تهاجمنى كل صباح من الجولان فى رأسى كسناجب مضطرمة كانت الآلية العاطفية تصر بنجاح متفاوت على فرض حقوقها. وجدتنى حائرا أمام هذا الميزان بلا ذراع لكن اللامع دائما، هذا الميزان الثمل: أن أحِب وأن أحَب. كان الإغراء اللامنطقى لكن الفورى أن أستعيض عن الشئ الخارجى المفتقد بشئ خارجى يملأ إلى حد الفراغ الذى خلّفه الأول، يفسح بعنف مكانا له فى بعض الأحيان باعثا فىّ بداية تحرك» ومن جانب آخر أخذ يخطر لى أن

الخطأ الأوليّ الذى قد أكون ارتكبته والذى دفعت ثمنه انصرافا أليما عنى كان قائما على نقص تقديرى للحاجة إلى الرفه المادى التى قد توجد طبيعيا، وعلى جهل منها تقربا، لدى امرأة لا عمل لها وليس لها وسائل تأمين هذا الرفه أو مجال تقدم فى سبيل تحقيقه خلال حياتها. كان لابد من الاعتراف بأنى من هذه الناحية لم أكن قط قادرا إلا على تخييب أملها، على الإضرار بها، وفى رد فعل أخلاقى غريب وقد لاحظت أنى لم أكن بعيدا عن أن أعلق بذلك معنى تعويض، بالصفة الإنسانية الأكثر عمومية، تصورت فجأة أنه ينبغى أن لا أقربَ إلى إذا مكننى المستقبل سوى امرأة عديمة الموارد تماما، مستذلة تماما من قبل المجتمع - شرط أن لا تكون كرامتها تأثرت البتة من وضعها، وأنه سيصبح على الأقل فى مقدورى إعانتها على العيش لأمد ما: الأمد الذى سأتمكن فيه من العيش أنا نفسى. فما كان من شئ يمنع أن توجد امرأة ظريفة حصيفة لو أمكنها أن تُخبَر باستعدادى لقبلت مقاسمتى ما عندى ولكم بلغ الأمر بى أحيانا الأسف على عدم استطاعتى نشر إعلان فى صحيفة ما مثالية. ولانعدام ذلك كنت أتصور، وأقولها صادقا، الصعوبات البالغة التى قد يلاقيها المرء فى التعرف على امرأة يمكن، إذا ما رآها فى الشارع أن يستبشر بخير منها. فالرثاء الاجتماعى والموقف الدفاعى الذى تقسر النساء عليه تعريضات مالا يحصى من أوغاد، والأخطال الدائمة الاحتمال حول ماهية المتنزهات الفكرية والخلقية، ليست بالتى تجعل من هذا المسعى، فى أسوأ الأحوال، تسلية تغرى بالإقدام. على أن شيئا واحدا يبدو لى - وليستنكر من يشاء من مدعى الاحتشام - أقل إبطالا للسحر الذى تخلفه امرأة حبيبة هجرت، كل

السحر الذى هو سحر الحياة ذاتها وهذا الشئ هو شخص «المرأة» الجمعى، كما يتكون، مثلا، خلال نزهة فردية طويلة نوعا ما فى شوارع مدينة كبيرة. فالشقرة تبرز بهاء السواد والعكس بالعكس، والفراء الفاخرة تلفت الإعجاب وتحيله كذلك إلى المعاطف الرثة. إن فى الغموض المكتنف أبدا أجسادا مختلفة توحى بما يمكن من تخيلها ما يدعم فكرة أن لا شئ يفقد، تماما طالما ظل الإغراء من كل ناحية ناشطا. هذه المرأة العابرة أين تذهب؟ بم تحلم؟ لم هى بهذا الزهو، بهذا الغنج، بهذه المسكنة؟ وتنطبق الأسئلة نفسها على أخرى، حتى من قبل أن تمر. إن هيجا عظيما ينبعث، هيجا حيا، هيجا خالصا، هيج انبناء لا هيج انهدام، هو هيج الإنسان المتحرى، اجتماعيا، غاية لا خارج الكائن الإنسانى، بل فيه وفى كائن آخر معا، يا للروعة فى هذا وللرفعة وللصفاء رغم كل شئ. وامرأة باريس، تلك المتعددة الخلقة، المؤلفة يومياً من كل الصور التى تأتى تتمازج فى مرايا الظاهر، لكم تتناقض مع الأفكار المنطوية، لكم تطرب، لكم تتشابه عند الوحدة وعند الشجن؟ حين تهجرنى فجأة الإنسانة الماثلة الأشد «محسوسية» فالسبيل الأوحد لإعادة اكتشافها (هى التى تكون صارت غيرها، أو تلك سواها) لاكتشافها مجددا وقد صرت أعرفها الآن على حقيقتها، هو أن أكون استطعت فى أثناء ذلك تحقيق العملية الذهنية الجوهرية التى هى الانتقال من شخص الإنسانة إلى كنهها. وهذا هو، ولا ريب، سر الشعراء الذين ينتقلون، كيما يبدعوا أشجى نبراتهم، إلى اليأس. فما من مجال يتوصل فيه قانون النفى ونفى النفى إلى التأكد بإصداع من هذه الطريقة، وبهذا الثمن تكون الحياة.

وطبيعى، وقد اختفت الإنسانة الماثلة المحبوبة، أن ينشئ هذا التحول بواسطة الكنه، إذا امتد بلا جدوى لعدم تمكن الفكر من الرجوع إلى تلك المرأة، كثيرا من المواقف اللا إنسانية وأن يقود إلى مساعٍ خاطئة. وأوضح فأقول: راجح أن الحب الجارى فى المسرى العام لتطوره يتجه إلى التكامل فلسفيا، شأن كل أمر. ولعلى أكتشف بعد حين السبب العميق الخفى علىّ الآن لهذا التخالف المعلن فى النهاية بينى وبين التى كنت أريدها أقرب إلىّ وسأتبين عندئذ أنى فعلا لم أعرف أن أصنع من الإنسانة الماثلة وكأنْ مطبوعة فى الذاكرة، شخصا «ماديا» تماما بالنسبة إلى، وربما كنت سأخفق فى أن أصير شخصا «ماديا» بالنسبة إليها أيضا. لكن، بعد هذا الاستنتاج، كيف لا آمل أن أكون يوما أحسن حظا أو، إن لم يكن ذلك، كيف لا أريد أن يصبح رجل قرأ هذا السطور، وبسببها بعض الشئ، أقل منى تعاسة؟ أقول إن من غير المستحيل أن أتمتع بعد خيبتى بالقدرة على اعتبار كائن آخر «كمادى» أو على جعل كائن آخر يعتبر «ماديا» من قبل شخص يحبه. وحبذا إن كان اعترافى يعين هذا الشخص على التخلص، كما أود لو كنت تخلصت، من كل رابطة مثالية. سيستفيد من ذلك أنه سيكون أقل تسكعا فى تلك الشوارع المظلمة. وإذا تعرض أحد، فى ظروف كالتى وصفتها، لتشوش نفسى متباين المدى، فذلك، وهو ما يجب قوله، لأن وسائل المعرفة الخاصة بالحب المتخلف بعد فقدان الشخص الحبيب، وقد غدت بلا تطبيق، تنزع بإلحاح، بكل قواها، إلى أن تُمارس من جديد... إنها تنزع إلى أن تمارَس مجددا لأن الوضع التأملى الصرف الذى أوجد الإنسان فجأة فيه يتبدى غير مطاق. وها هو،

بغتة، فى صراع مع عالم كل ما فيه ملتبس. كيف يتجنب هذه المرة أن يضل وأن يضلل شخصا آخر حول ذاته هو؟ هل سيقوم بالتحديد؟ إنه محطم، مخيَّب، ضعيف، متحير. ألن يقرر؟

كيما يحيا يجب أن يقرر. يجب أن يعود إلى التفضيل هنا وهناك: إن عينين جميلتين جدا، كعينى تلك الألمانية الشابة يمكن، على كل حال أن تكونا واحة. وقد أغفلت ذكر أنى لم أكن فى غد يوم إذ تبينت لى بالتأكيد الصفة القطعية للوضع الذى أصبح قدرى بالنسبة إلى المرأة التى كنت أحب. بل مضت على ذلك عدة شهور استنفدت خلالها كل وجوه رؤية نفسى أروح واجئ فى ردب[1]. وللتسلى عن ذلك التحرك اللا إرادى الذى أشرت إليه آنفا بلغ بى الأمر أن راهنت بعض الأصدقاء على أنى سأتعرض بالحديث لعشر نساء ذوات مظهر «شريف» بين شارع «بواسونيير» وساحة «الأوبرا». ولم أجز لنفسى حتى أن أتخيرهن. وذلك كى أستكشف رد فعلهن الأول، كى أسمع أصواتهن. ولم أتعد الثمانى، ومن هذا العدد لم توجد سوى واحدة - وكانت إلى ذلك دميمة الشكل - لم ترد على. خمس من الأخريات وافقن على التواعد معى. ومن نفل القول إنى أكره هذا النوع من التصرف لكنى أجد له عذرا فى ذلك الظرف: ففى الغيهب الذى كنت أتخبط فيه كان يعنى لى الكثير أن أجعل تلك الغريبات يلتفتن إلى. ومرة أخرى كنت أتنزه حاملا فى يدى وردة حمراء فى غاية الجمال كنت أقصد إهداءها إلى إحدى السيدات العابرات، لكن بما أنى كنت أؤكد لهن أنى لا أبغى سوى أن أقدم لهن تلك الوردة لقيت أشد العناء فى العثور على واحدة رضيت أن تقبلها.

١ - الردب: الطريق لا ينفذ.

وعادت شابة الخامس من نيسان التى لمت نفسى بشدة على أنى لم أتبعها فظهرت قرب المقهى مرتين أو ثلاثا. وكنت لم أنقطع تقريبا عن ترصدها بأمل أن أراها بمفردها وأن أسلمها بطاقة كتبت عليها هذه الكلمات بعد أن كلفت من ترجمها لي من أجلها: «لم أعد أفكر إلا بك. أتمنى بجنون التعرف عليك. ذاك «السيد» ربما هو أخوك؟ إن كنت غير متزوجة فإنى أطلب يدك» يتبع ذلك التوقيع و«أتوسل إليك». تلك البطاقة، لم أجد أية فرصة لإيصالها إليها. وحتى اليوم التالى للغد، الذى لم أرها بعده. لم تحضر إلا بصحبة رجل المقابلة الأولى، لكن متزايد الاستنكار لتصرفها الذى ظهر هو نفسه ولتصرفى أنا. حاولت المستحيل كى أحصل على عنوانها لكن الاحتياطات المستمرة المتخذة برغمها كى يظل هذا العنوان مكتوما عنى بدت كافية الجدوى.

يا لها من قصة مبتورة! لا يكاد يُذكَر شخص حتى يترك إلى سواه ـ بل إلى لا أحد، من يدرى؟ إذن ما فائدة كل هذا الإسهاب؟ إن المؤلف الذى كان يبدو آخذا فى البوح بشئ من حياته إنما يتكلم فى حلم! كما فى حلم!.

فى الثانى عشر من نيسان حول السادسة مساء كنت أتمشى مع كلبى «ملموث» فى ظاهر المدينة. وعند سينما «غيتيه ـ روششوار» التى استوقفنى أمامها إعلان فيلم «خطيئة يهودية» لمحت قريبا منى فتاة بدت مشدودة الانتباه مثلى إلى ذلك الإعلان. ولأنها كانت بالغة الانشغال عنى أفسحت لى أن أتأملها طويلا. ما من شئ كان أحلى من ذلك التأمل ولا أبعد عن الإملال. كنت بادى الفقر جدا فى ذلك الحين من حياتى، وأقولها كيما يدرك القارئ تماما كل الانفعال الذى

يتملكنى لدى رؤيتى امرأة، وكان يمكن أن تذكّر منذ اللحظة الأولى بتلك التى لم يجد «شارل كرو» فى ختام قصيدته الأجمل، «حرية» كى يصفها غير هذه الكلمات القاصرة الباهرة:

الصديقة المتألقة السمراء

أو أيضا بتلك التى لها عيناها، نعم العينان اللتان ماتزال منذ خمسة عشر عاما تسحرنى فتنتهما، وهى «دليلة» فى لوحة «غوستاف مورو» المائية الصغيرة التى ما أكثر ما ذهبت أشبع النظر إليها فى متحف «لوكسمبورج». تحت أنوار واجهة السينما، إذا ما عمدت إلى مقارنة أبعد وأدق معا، أخطرتنى هاتان العينان فورا بماء غير مكدر تسقط عليه قطرة ماء ملونة تشفيفا بلون السماء، لكن سماء عاصفة كانتا كما لو أن هذه القطرة متوقفة إلى مالا نهاية لحظة ما تمس الماء، تماما بالضبط قبل لحظة رؤيتها تذوب فيها. تلك الاستحالة المنعكسة فى عين كانت تزرى بالزبرجد وبالزمرد، وفى الظلّ، كما رأيتها من بعد، كان يمكن تصور مماسة دائمة ومع ذلك متجددة لهذا الماء ذاته، من إبرة رفيعة جدا عليها نقطة دقيقة من حبر صينى.

كل ما فى رشاقة تلك الفتاة كان عفويا. كانت ترتدى ثوبا من أسود كالح ظهرت فيه أكثر من أنيقة. وكان فى خطوها إذ راحت تتسكع أمام الحوانيت شئ ما بالغ الفتنة بالغ الجدية لكونها غافلة عنه تماما لابد من أن يذكّر بالحاجة الجسدية القوية الطبيعية، فى قانونها الذى نسعى دائبين إلى استكشافه، كما يلفت الخاطر بشعور أرق إلى استرخاء بعض الزهور المتطاولة البادئة فى التفتح. كان حسبها أن تمر هكذا كى تثبط بصمتها، غير المستنكر حتى، محاولات المطارحة والمقابحة التى يعرضها لها، فى مساء أحد، وفى

مكان كهذا، كل ما فيها. كنت ألحظ بتأثر كيف أن أحدا لا يعاود مضايقتها، بل كان كل ما يجازف بالتحرش بها، حتى قبل أن ينظر إلى وجهها، يندحر مبتلعا مجاملاته أو مماجناته. كان الجميع يبتعدون فورا وغاية ما يجيزون لأنفسهم أن يلووا بصرهم ليقدر بلمحة جمال الخصر وما يبوح به الجورب القطنى من كمال فى حماتها[1]. ترددت طويلا قبل أن أدنو منها، لا أن مثل تلك الأمثلة المتنوعة الخائبة كانت رادعا لى بل لأنها لم ترنى أو تكاد، وكدت من جانبى أكتفى فى ذلك اليوم بمجرد يقينى بوجود مثل تلك المرأة. اقتضى كى أقدم أنها، وقد عادت فجأة على أعقابها، سلكت الرصيف المجانب، بعد ممر «ماجنتا»، مشفى «لاريبوازيير». أقول اليوم «لاريبوازيير» لكن أتذكر أنى حاولت عبثا آنذاك وضع اسم لتلك المؤسسة التى تحيط بها تلك الجدران الطويلة الكامدة، المغطاة من مكان إلى مكان بإعلانات ممزقة... على أنى لست أجهل موقع ذلك المشفى لكن، بناء على كتابة منقوشة قرأتها فى غير انتباه لا تدل على سوى جناح خاص منه، كنت مائلا إلى الظن أنه «دار التوليد» (التى كنت أعرف موقعها أيضا منذ أمد طويل). وهذا الالتباس الشديد الشبه بتلك التى قد تحدث فى الحلم. يعنى فى رأيى التعرف على الأم الرائعة المكنونة فى تلك الامرأة الشابة. وهكذا تحققت كما ترون، رغبتى الأشد إلحاحا، إن لم يكن فى أن لا أموت، فعلى الأقل فى أن «أتخلف» فيما أمكننى اعتباره قبل أن أموت رائعا وقابلا

١ ـ الحماة: هى ما يسمى عاميا «بطة الساق».

للبقاء[1]، أعلم أن امحاء مشفى «لاريبوازيير» يمكن من جهة أخرى أن يعود إلى أنى إذ رأيت لأول وهلة تلك المرأة الشهية للغاية لم أتمالك ذهنى من التساؤل الخفى عما يمكن أن تفعله هنا فى تلك الساعة ومن شك راودنى، سرعان ما طردته، حول أخلاقيتها، وكذلك حول صحتها، وعلى أولى كلمات وجهتها إليها أجابت دون ارتباك (وكنت لشدة انفعالى عاجزاً عن أخذ فكرة جديدة عن عينيها المثبتتين علىّ) بل تلطفت بإظهار عدم توقعها لما قلته لها. ولم تعد لدهشتى حدود - وأقولها دون خوف من سخرية - حين تعطفت فدعتنى إلى مرافقتها حتى دكان قريب لبيع لحم خنازير تريد أن تشترى منه خيارا مخللا. وأعلمتنى تفسيرا لذلك أنها متوجهة إلى العشاء مع والدتها كما تفعل يومياً وأنهما لا تستطعمان بوجبة إلا مرفقة بهذا التابل. وأتذكر الآن نفسى أمام دكان الجزارة وقد تصالحت فيما يشبه المعجزة مع حياة كل يوم. جميل طبعا ومبهج جدا أن يأكل المرء من شخص له أهميته عنده خياراً مخللا مثلا. كان لابد من أن تلفظ هذه الكلمة هنا والحياة مؤلفة كذلك من هذه العادات البسيطة وهى مرتبطة بتلك النعومات التى يملكها الإنسان أو لا يملكها. تلك المخللات كانت لى أشبه بعامل سعادة فى يوم ما. أعلن أن هذه الملاحظة لن تعجب الجميع لكن أؤكد لنفسي أنها ما كانت لتسوء «فويرباخ» وذلك حسبى (هذا إلى أنى أحب جدا الكتاب الطبيعيين - باستثناء المتشائمين، فهم حقا مفرطو التشاؤم - وأرى أنهم وحدهم عرفوا الاستفادة من موقف كهذا، وأجدهم، وسطيا، أشعرَ جدا من

١ ـ فعل Survivre الفرنسى يعنى البقاء فى الحياة بعد موت الآخرين. ويؤخذ أيضا بالمعنى المجازى ـ وليس له مقابل مفرد فى إلعربية وأقرب تعبير هو «خلف» الرجل أى بقى بعده وقام مقامه. منه «الخالفة» أى الأمة الباقية بعد الأمة السالفة.

الرمزيين الذين كانوا فى ذات العهد يعملون على إفساد عقل الجمهور بهذيانهم المتباين الإيقاع: إن «زولا» لم يكن قاصر الموهبة، كما أن الأخوين «غونكور» اللذين يتجه الناس أكثر فأكثر إلى إطلاعنا على بعض عاداتهما الذميمة فقط لم يكونا عاجزين عن أن يريا أو عن يلمسا، و«هويسمان» بينهم جميعا، قبل أن يغوص فى موحل تفاهة «فى الطريق» لم ينفك أن يكون عظيما جدا، ومن السديد جدا إعطاء المثل فى «الأمانة» لكتاب اليوم بمؤلفات «روبير كاز» المتنادرة القراء، رغم كل المآخذ عليها. و«ألفونس دوديه» الناطق الحقيقى بلسان البورجوازية الصغيرة فى زمان عرف نفسه معها من كان الوجوه كمخلوق دنئ كريه ذميم. وأصر على الاعتقاد، بصرف النظر عن الموهبة، وسأعاود التحدث فى ذلك، إن أولئك الكتّاب قد ضلوا كليا السبيل). صار المخلل الآن فى الورقة وصار فى وسعنا المضى. لم يبد الوقت لى قط أقصر منه فى ذلك اليوم. ومن جديد لم يعد أحد فى الشارع بالنسبة إلى لشدة ما كنت أنتظر تلك الشفتين الضاحكتين أن تنطقا الحكم على غير المتصور أن أعيش أو أن لا أدرى ثانية كيف سأعيش غدا. علمت من تلك الفتاة أنها راقصة وأنها، وياللعجب، تحب مهنتها وأنها تعيش هناك - وكنا نعبر ساحة «لاشابيل» - عند والديها، قريبا جدا. غمرتنى الفرحة إذ وجدتها مطمئنة، مجاملة رغم أنها لم تظهر كبير فضول فى شأنى. الأمر الذى وفر على أن أدخل، مقابل تلك الثقة وتلك الملاحظة، كما كنت سأفعل ولابد، فى تفاصيل مؤسية عن ذاتى. وحين ودعتنى منحتنى، دون تمنع، موعدا إلى الغد.

كثيرا ما أتيح لى منذئذ أن أشاهد الواجهة المتشققة الدخناء

للمنزل فى شارع «باجول» الذى رأيت تختفى فى بابه صديقة مساء واحد تلك ـ التى لن تعود أبدا لى صديقة ـ كانت تلك الواجهة فى حالة لم أعرف ما يفوقها كآبة. كيف يمكن لإنسانة بريعة[1] كتلك أن تبقى وهى مبتهجة الساعات الطوال خلف تلك الستائر الرمادية؟ كيف تستطيع أن تعبر دون أذى عدة مرات فى اليوم مصب الشوارع فى ساحة «لاشابيل» الدنسة والشديدة الإذهال معا حيث لا تزال نسوة شبيهات جميعا بقِرَبٍ بالية يلتمسن المارة، وقد عرين صدورهن، «أن يدفعوا لهن ثمن زجاجة خمر»؟. على أن ذلك ليس إلا جانبا إضافيا للمسألة. قد يقول قائل إنه كان يجدر أن يكفينى، لو نطقت بالحق، أنى استرجعت الاتصال بالحياة الخارجية وذلك بفضل تلك الإنسانة دون أن أنتظر منها أكثر مما أعطتنى. لكن ماذا عن الأمل؟ لم أشك فى أن متنزهة الأحد الحسناء ستعود فى الغد كما وعدت، وأعترف أنى تولهت حين لم أرها. ومع ذلك كان هذا الوله مفضلا فى كل شئ على ما أخرجنى ظهورها منه. فقد استردت الحياة معنى عندى، بل خير ما يمكن أن تحمله من معنى. ولم يسعنى غير أن استخبرت فى شارع «باجول» عن اسمها كيما أبلغها رسالة. وإذ لم ألق جوابا أمضيت عدة أعصر متوالية أكابد من غيابها فى الحديقة الصغيرة المتوسطة الساحة والتى كان عليها أن تمر بجانبها فى الذهاب والإياب، لكنى لم أنجح فى لمحها. وانتهى هذا الغياب المتعمد فى خيالى إلى تصعيد كلى كان من القوة بحيث لم أعد أجرؤ أن أذهب لملاقاتها خشية أن لا أميزها. ذلك أنى نسيت كل شئ من قوامها ومن وقفتها؛ ولمجرد أن تكون خافضة عينيها

١ ـ البريع: البالغ الجمال.

ربما أكون عاجزا عن التعرف على شكلها وأنا قريب منها. وكنت أزداد شكرانا لها على أنها لم تصدنى بجفاء يوم الأحد بل إن هذا الشكران لم يلبث أن اتخذ فى نفسى صفة مفخمة غريبة. فدون أن أتوقع بذلك طبعا أن أقهر المقاومة التى أبدتها لى، كان يخطر لى أن أمطرها بهدايا صغيرة اعتبرتها ذات تأثير عظيم بسبب طابعها المتجرد عن الغاية. وهكذا أرسلت إليها إصيصا فيه «صحراوية»[١] كبيرة اخترتها للونها الوردى ورحت أتخيل دخوله المسرحى إلى الباحة المقتمة واجتيازه السلم القذر ولابد إلى منزلها. وجاء شكرها موجزا جدا فى بطاقة صغيرة. وبعد أيام سلكت طريق الوردة دمية عظيمة الحجم فى ثياب ساحرة، لكن تلك المرة لم تطاوعنى نفسى أن أبعث بها دون إرفاقها برسالة. وأنالنى ذلك قبولها منحى الموعد الذى التمسته منها، وأفادنى أيضا، فى الحديث الذى جرى بيننا صباح الأحد التاسع عشر من نيسان والذى دار، إذ تركتها تتكلم، حول حوادث مهنية صغيرة، وحول طرائف بريئة مقتطفة من أعمدة المراسلات الغزلية فى الصحف، أدركت أن ليس من شئ مشترك بينى وبين تلك الصبية ذات الستة عشرة سنة والتى حسبتها، فى اضطرابى، متجاوزة العشرين. ومع ذلك كانت هى التى قررت معى أن نقف عند هذا الحد، ناسية أنها عرضت علىّ أن نتلاقى بعد يومين. كان صحيحا إذن قولى إنها لم تواجهنى فى مسيرة حياتى إلا فى الأحد الأول. وما أزال أحمل لها شكرا لا يقدر على تلك المواجهة. والآن وقد انقطعت عن السعى إلى مقابلتها قد يقع أن أصادفها أحيانا. إن لعينيها ذات الجمال لكنها فقدت هالتها بالنسبة

١ ـ الصحراوية: Azalée نبتة تزيينية ذات أزهار جميلة بيضاء الأطراف وردية الوسط.

لى. وربما كى لا يبقى شئ بينها وبينى من الكلام المختلف الأهمية جدا الذى تبادلناه صارت حين تمر قربى تلوى بوجهها عنى دونما سبب لئلا تضطر أن ترد على تحية قد أحييها بها.

ومن جهة أخرى، ما كاد ذلك الوجه الفتان يختفى حتى طفا إلى سطح فكرى ثانية ذلك الطوف السحرى الذى كانته لى عينا الخامس والثانى عشر من نيسان. بيد أنه ينبغى الاعتراف بأن الصورة الأنثوية كانت تميل إلى المصح[1]. وسأبين ذلك، لكن باعتبار أننا سنصل إلى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من نيسان أجد ضروريا أن أمهد لحديثى بإعطاء فكرة عن حالتى النفسية العامة يوم الاثنين.

من جديد اشغلتنى كليا فكرة وحدتى الذاتية. هاتان المرأتان اللتان تراءتا لى كالطيف العابر، بالرغم من أنه كان يسعهما تخليصى من وسواس لا يطاق هو إبطال مالا يمكن إبطاله: كل ما كان ضد تحقيق الرغبة التى لا أمل فى إشباعها التى ستلازمنى مدى عمرى، أبانتا لى، بطريقة أخرى، تفاهة تلك الحياة، حياتى أنا، التى كانت غير قابلة الارتباط مع غيرها. قبل حين من ذلك، فى يوم أحد على ضفاف نهر «مارن» خامرنى حسد أولئك الناس الذين يعملون طوال أسبوع كى يتفرغوا للمرح يوما واحدا تحت سماء صافية فى ركن خضير. كنت أتخيل دون سخرية ما هو قائم بينهم من معشر وثيق هنئ. لقد اختاروا بعضا زوجين زوجين لا على التعيين ولم يخطر لهم التفارق من ثم. كانت أحاديث يومهم أخبار مشغل أو مكتب، قطعة من قماش جميل، مشروع نزهة، قصة فيلم. كانوا يلبسون ويشلحون الأطفال المليحين والقبيحين. كانت هناك ولا

١ ـ مصح الشئ: امحى، مصح اللون: ذهب رونقه، مصحت الصورة: غابت معالمها.

شك معكرات من حين إلى حين لكن سرعان ما كانت تستأنف الحياة مسارها الطبيعى، كانت تجرى ثقيلة عقيمة لكن رضية على الأقل. كان الكل ينزل إلى الماء ويخرج على هواه ويسترجع قواه ويعيد. كانت الحاجة إلى فهم شئ عن العالم، والهمة للتميز على الغير، ورغبة الإسهام فى حل أمر عويص، كل ذلك المعامل المنهض المثبط معا، مبعدا مرة وإلى الأبد فى الحساب. وهل لغير هؤلاء خلق توت السياج فى الأحراج؟ كنت طبعا قد قسيت على التكيف مع عيشهم لكن كيف لا أقرّ بأنهم محظوظون إلى حد؟ كان فيهم ولا ريب متاجرون، متاجرو آداب ولاسيما علوم، كرّهوا إلىّ بقدر زهيد الآخرين. ولن تلبث «باريس» مساء أن تحشر ببلاهة فى فرنها كل ذلك الخليط بعد أن تقلبه فى طحين أنوارها... عجبى... وفيما يخصنى كان الشئ على النقيض. كنت وحيدا. كما سبق لى القول، أتأمل ذلك النشاط الذى ربما كنت اشتركت فيه لو لم أصبح هكذا محطما. هل كان مهما، حتى أن أنظر إليه؟ ما أشد الغرور الذى ينبغى أن يملأ المرء كى يعتبر نفسه، على الصعيد الفكرى، قد صنع شيئا؟ هناك الفلاسفة العظام، والشعراء العظام، والثوريون العظام، والعشاق العظام... أعلم ذلك، لكن إذا لم يتأكد المرء من إمكان بلوغه أبدا تلك العظمة فكيف السبيل إلى أن يكون مجرد إنسان؟ كيف يبرر احتلاله الموقع الذى يشغله أمام المأكل والمشرب والملبس والمنامة؟ لكم هم خليون، رغم كل شئ، من هذا الهم أولئك الذين يفلحون ويبذرون الأرض والذين يستطيعون لدى كل مسألة أن يشهروا - وسيشهرون قريبا، وفى كل مكان - أدواتهم الحديدية. كنا لانزال فى ذلك الحين، أصدقائى وأنا نتبادل الرأى حول وسائل قيادة

حملة تخصيصا ضد الدين. ولابد من الاعتراف بأننا، أثر اختلافات ترجع إلى تباين طباع أكثر منها إلى تباين أفكار، اضطررنا إلى الاقتصار على هذا العمل المشترك الوحيد. ربما تفيد مؤرخا فى المستقبل معرفة أن شأننا كان كذلك فى ذلك العهد. سوف يتحرى، وسوف يكتشف، على ما أظن الأسباب الحيوية التى دعت - القلة التى كناها - إلى تفضيل العمل الجماعي على العمل الأفرادى عندما يرى ما نجم عن التفرد من محررات متنوعة لم تكن حائزة فى الحقيقة على رضاء أحد منا. لكن أحسبنى أستطيع القول من الآن أننا حققنا على الأقل بعضا من القصد الذى كان سيبقى لولا ذلك، مجرد نية. كما كان أيضا من شأن هذا الحد الأدنى من التبعية المتبادلة الطوعية أن سقط من اهتماماتنا كل ما ليس سوى براق أو ثانوى بوصفه يعنى بشكل أخص هذا أو ذاك من رابطتنا. وإذا لم يكن وسع لانتظام طبقى جعلنا ذلك لنا سلوكا. وكيما نفعل المزيد كان ضروريا أن يخفف عنا الضغط الاجتماعى الشديد لكنه بلغ من «اللطف»... أن جعلنا نأسف على عصر «الموسوعة»[١] السعيد... ياللصدود القاسى من كل جانب، إما جمهور نوجه إليه الخطاب ويجدر أن نعرف كل شئ عنه لمواصلة الحديث، ولا يصغى، إما جمهور لا مبال وفظ يعيرنا السمع. ألا كيف كانت الحال إذن فى فرنسا فى القرن الثامن عشر؟... فى ساعات القنوط يجد المرء أن الأمر خطير، وفى غيرها يجده أقل خطورة. وفى نيسان ١٩٣١، مثلا كان ممكنا أن أعتبره خطيرا جدا. كان علينا أن نعرف، فيما يجب

١ ـ الموسوعة: Encyclopédie قاموس شامل لجميع المعارف والفنون اشترك فى وضعه (١٧٥١ـ ١٧٧٢) نخبة من رجال العلم والفكر دعوا إلى التحرر المطلق من القيود الاجتماعية والدينية والفكرية القائمة وسموا آنذاك «الموسوعيين» واعتبروا عند أهل عصرهم «إباحيين».

معرفته، إذا كانت الوسائل التى حددناها لأنفسنا قابلة حقا أن توضع بكاملها فى خدمة قضية كقضية مكافحة الدين، على ما قد يكون لها من أهمية. لاشئ كان أقل تأكدا لدى التفكير. من جهتنا لم يكن ذلك شئ قابل تماما للتبرير إلا من الخارج. وأن نقتصر، منهجيا، كما اقترح البعض، على نشاط كهذا، ألا يعنى أن نحرر اعتباطيا، كرد فعل، مختلف إرادات التفرد التى أمكن ضمها إلى بعض فى الشعر وفى الرسم وبصورة عامة فى الأشكال المتباينة من التعبير السريالى؟ فيما يخصنى كنت أجزع لما نبذه جانبا مثل هذا المشروع، من نهجي فى الحياة ومن طموحاتى الشخصية. فالسريالية، كما ظلت كثرة منا تصورها طيلة سنين، ما كان لها أن تدين باعتبارها موجودة إلا لعدم التخصيص قبليا لسعيها. وأتمنى أن يعترف لها بأن خير ما عملت على تحقيقه هو مد «سلك ناقل» بين العالمين اللذين شد ما فُصِل بينهما، عالمى اليقظة والنوم، الواقع الخارجى والواقع الباطنى، العقل والجنون، سكينة المعرفة والحب، الحياة للحياة والثورة، إلخ... إذ تكون قد حاولت، ربما بطريقة رديئة، لكن حاولت أن لا تدع سؤالا بلا جواب وحرصت، وإن قليلا، على ترابط الأجوبة التى قدمتها. على افتراض أن هذا كان مجالنا، هل كان جديرا بنا التخلى عنه؟ إن الثورى يحلم كأى إنسان آخر وقد يقع له أن يهتم بنفسه فقط، وهو يعلم أن المرء، من حكيم قد ينقلب مجنونا، وقد لا تكون امرأة جميلة فى نظره أقل جمالا فى نظر غيره، ويمكن أن يتألم بسببها وأن يحبها. وبودنا لو أبان لنا هذا الثورى تصرفه تجاه كل تلك الأحوال. وفى حدود ما وسعنا تقديره - وأعيد القول إن السريالية لم تكب على سوى ذلك - آمل أننا لم نتعثر فى

طريق معرفة الكون والإنسان، بل على العكس، وبدأبنا على جعل ذلك الثورى فى كل وجه منسجما مع ذاته، ما قصدنا غير إعلاء شأنه. وأن تكون ارتُكبت أخطاء فى مسارنا، لست أنا الذى أنفى ذلك ولربما يكون الوقت حان لإحصاء تلك الأخطاء. لكن أميل إلى الاعتقاد أن تطورنا العام، المتوقف، وهذا ما يعرقله، على تطورات خاصة مختلفة، سيكون من شأنه إعطاء ما استطعنا مباشرته معناه الحقيقى. عندئذ فقط سينكشف إذا نجحنا، ومن الزاوية التى وضعنا أنفسنا فيها بكفاءاتنا الشخصية، فى تخليص «اللؤلؤة» التى فشل آخرون، حسب تعبير ثان «للينين» فى استخراجها من مزبلة «المثالية المطلقة».

وأعود إلى ما يخصنى فأقول إننى لم أستطع آنذاك، وأتبين الآن بصورة أجلى، أن اكتفى بذلك المشروع المثقل بالقيود. وكان جم من الأفكار والتمثلات المناقضة يحاصرنى فى نفس وقت ما كنت «من أجل فعل شئ على الأقل»، مستعدا أن أوافق عليه، وسيقر لى القارئ أن الأمر كان لفتور من جهتي تجاه العمل المبتغى. فأبداً فى الحقيقة لم أنقطع عن اعتباره من أشد المهمات ضرورة واستعجالا ومازلت أؤمن أننا أولى الناس بمباشرته. لكنى بكل بساطة لم أكن أطيق التسليم بأن أرى كل ما بلغته تجربتنا السابقة يذوب ويختلط بشكل ثانوى جدا فيه، لم أكن أشعر أنه قد ينشأ عنه بالنسبة إلىّ، ولا بالنسبة لأى منا الرضى الحيوى الذى نسعى إليه من وراء تعبيرنا. إنى قصدا أشدد على حالة انعدام استطاعة التقرير الذهنى التى صرت فيها آنذاك بفعل ذلك الاقتراح نفسه، فما الفائدة، فى تلك الناحية أيضا. من كل ما اعتقدته شديدا فعالا؟ كان الأفضل (وهذا على الأقل ما كان يوحيه لى وهن عزيمتى الشخصى) لو لم نشعر

بشئ، لو لم نفه بشئ، وها قد غدا الأمر فجأة موضع تحول عن الغاية.

سواء تلفت إلى هذه الجهة أو لتلك كانت وحدتى هى هى. كان العالم الخارجى قد استرجع مظهره كمجرد إطار. فى ذلك اليوم تنزهت أولا على أرصفة النهر وجعلنى ذلك آسف على أنى لا أستطيع، نظرا لبهظ الثمن، شراء «الفن العظيم Ars Magna» من تأليف «ريمون لول» الذي كنت أعرف أنى أجده فى إحدى مكتبات «الضفة اليسار Rive Gauche» ثم خطر لى الزقاق الصغير المعتم الأشبه بالمبتور فى تلك الأيام والذي أصبح الآن شارع «جى - لو - كور» فغادرت ذلك الحى إلى حى «سانت - أوغستان» حيث أمّلت أن أكتشف عند كتبى آخر رواية نادرة من روايات الرعب قريبة من روايات «ليويس» أو «ماتوران» لم أكن قرأتها بعد. كنت أنشد بشكل خاص «البارون الإنجليزى الهرم - أو - الأشباح المنتَقم لها» للمؤلفة «كلاراريف» على أن الخوف من أن ابدو شاذ الذوق فى المطالعة حجزنى فى اللحظة الأخيرة عن طلب ذلك الكتاب وجعلنى أفضل الاستعلام عما قد يوجد من كتب قديمة تبحث فى أحداث يوم «التاسع من ترميدور»[1]. وقلبت فى ملل بعض مجلدات التبسيط التاريخى متمالكا بعناء عن شراء هذيانات فى خمسة مجلدات من وضع أحد «الاباتيات»[2] الذى أخذ على نفسه تأويل جميع العهد الثورى من وجهة نظر الهرطقة حصريا، الأمر الذى بدا لى أن ربما يكون مدعاة ضحك ودخلت من ثم، بدافع تسلية عطالتى، مكتبة فى

١ - هما يومان: «التاسع والعاشر من ترميدور» (٢٧و ٢٨ تموز ١٧٩٤) وفيهما ثارت «الثورة» على «روبسبيير» وأوقفته وأعدمته على المقصلة مع واحد وعشرين من أصحابه. وانتهى بذلك عهد «الإرهاب» و«ترومدور أى شهر الحر» هو الشهر الحادى عشر من التقويم «الجمهورى» الذى وضعته الثورة. ويمتد من(٢٠) تموز إلى (١٨) آب.

٢ - الاباتى فى القديم رئيس دير رهبان. الآن لقب يطلق على بعض رجال الكهنوت.

شارع «مالزيرب» لكن الكتب، كما سنح لى التأكد بعد ساعات قليلة، كانت، شأن النساء على ما يظهر، كأنما تتبادل مواضعها، والكتاب الذى سلم إلىّ ملفوفا هناك لم يكن الذى أردت اقتناءه. وفيما كنت أتمشى نحو ساحة «مادلين» دنا منى رجل أنيق فى الخمسين تقريبا، عليه سمة أستاذ جامعة، حسبته أولا يحدث نفسه، وطلب منى إقراضه فرنكا واحدا، قائلا «سيدى، أنظر إلى ما صرت إليه، لست أحمل من المال ما أدفعه ثم بطاقة قطار النفق[1]». تطلعت إليه في دهشة. كل شئ فيه كان يكذب تلك الفاقة وأعطيته ورقة مالية بعشرة فرنكات فشكرنى بحرارة: «لايسعك أن تقدر. لقد التقيت فى هذا الشارع نفسه، على بعض بضعة أمتار بأقدم أصدقائى. ورفض أن يؤدى لى الخدمة التى أديتها أنت. ثم، لماذا أديت لى هذه الخدمة؟» وخطا خطوة إلى الخلف وهتف فجأة: «سيدى، لست أعزف من أنت لكن أتمنى أن تفعل ما تريد فعله وما تستطيع فعله: شيئا عظيما». وابتعد عنى. لست مجنونا وإنى أروى هذه الحكاية كما جرت لى. وتابعت طريقى، وبعد قليل استوقفنى رجل شرطة يستخبرنى إذا كان الرجل الذى شاهده معى لم يطلب منى دراهم. وأجبته بداهة بالنفى* وكان إلى جانبه شاب لم أره فى البداية أبدى استغرابه. ذلك أن أشخاصا عدة - هو أحدهم - بلّصهم الرجل على هذه الصورة

١ - قطار النفق Métro: عربة كهربائية تسير فى أنفاق تحت الأرض تصل بين مختلف أحياء بعض المدن.

* كان الفصل الأول من هذا الكتاب قد وضع (وقد رويت هذه الكلمات من الذاكرة) حين شرعت بقراءة «البارون الإنجليازى الهرم» الذى توصلت فى النهاية إلى اقتنائه وتملكنى شعور مذهل بسبق السماع مرفق على الفور باستذكار واضح جدا لرجل شارع «مالزيرب» لدى بلوغى آخر الصحفة (٨٢) وأول الصفحة (٨٣): (لست أدرى لكن يخيل إلى أنى أتوسم فيك دلائل تنبئنى بأنك مهيأ لأمر عظيم».

الغريبة. ولم أعد أفكر فى الحادث حتى صبيحة اليوم التالى حين جاءنى «بول ايلوار»، ولم أكن أخبرته بتلك المقابلة، منتقدا آراء «فويرباخ» حول الإحسان. ومن ناحية ثانية كانت صحيفة (٢١) نيسان تنشر على صفحتها الأولى المقالة الصغيرة الممتعة التالية:

«توصلت أمس الضابطة العدلية إلى وضع نهاية لأفعال خمسة أشخاص ظلوا طيلة أسابيع يسلبون أموال ريفيين موسرين أو أجانب أغنياء من نزلاء العاصمة.

فمنذ شهرين كانت الشكاوى تتوالى. وكانت رواية الضحية هى هى تقريبا. - دنا منى فى الشارع رجل لا أعرفه عرض على أن يرشدنى فى «باريس» وفى الطريق عثرنا على محفظة محشوة بأوراق نقدية أجنبية التقطها رفيقى ووضعها فى جيبه. لكن فى تلك اللحظة جاء صاحب المحفظة يطالب بإعادتها إليه. ولزعمه أن بعضا من دراهمه قد سرق واتهامه لى أخرجت، إثباتا لبراءتى، محفظتى من جيبى وناولته إياها. وبعد أن فحصها وتثبت من أنها لا تحوى عملة أجنبية أعادها إلى، ونشب نزاع حاد عندئذ بين رفيقى بالمصادفة وبين الشخص الثانى وسرعان ما هرب كلاهما يطارد أحدهما الآخر.

وانتبهت إذ ذاك أن دراهمى استلبت منى وأدركت اللعبة التى خدعت فيها. فقد كان الأمر مدبرا بالاتفاق بين الرجلين.

وأمس، فى ساحة «كونكورد»، وبعد تحقيق دقيق، قبض على الشركاء الخمسة بالجرم المشهود وأوقفوا. وهم «البير موسكو» الملقب «عين موسكو»... إلخ...».

وفى أول بريد ذلك اليوم تلقيت رسالة من مدير إحدى المجلات

رفق مقال حول «بيان السريالية الثانى» يدعونى فيها إلى الرد. وهذا المقال، الذى كان فى غاية اللطف وإن لم ينم على تفهم بالغ، كان موقعا باسم أحد أصحابى القديمين، «ج - ب - سانسون» وهو فار من الجيش الفرنسى فى بداية الحرب لم يصلنى خبر مباشر منه منذ ذلك الحين. طالعت بسرور تلك الصفحات القليلة. وجدت فيها النظرة الصريحة التى عهدتها فى كاتبها. وكنت على ثقة من أنه كان حسبي مقابلته من جديد وتزويده شفاها ببعض إيضاحات حول الموقف السريالى الصريح كى أجعله يتخلى عن معظم اعتراضاته. وكان الاعتراض الرئيسى التأكيد على فكرة أننا سنظل أبدا وبرغمنا روحانيين وأن انجذابنا «للمغيَّب» يترجم حالة نفسية «لا يحول إلحاده من أن يصفها بالدينية». وكان من شأن هذه المفارقة المقرونة بتحفظ أخطر حول سداد الحملة المعادية للدين فى الاتحاد السوفيتى، أن تزيد بشكل صادع ضرورة وقيمة النقاش حول مناسبة القيم بحملة مماثلة فى فرنسا. وأكرر أن ذلك النقاش جرى بيننا فى مساء اليوم السابق. وهكذا يرى القارئ كيف حدث ترابط أمور من هذا النوع فى ذهنى. وهذا هو ما وصف بالروحانية عندى. ربما قيل لى إن العلاقة السببية لا يمكن أن تقوم على هذا الوجه. وليس من صلة محسوسة بين كتاب بعينه يأتيك من سويسرا وبين همّ معين كان يشغلك لدى تحرير ذلك الكتاب. وإنى لأسأل أليس هذا إطلاقا بشكل مؤسف لمفهوم السببية؟ أليس فى هذا استهانة رخيصة بقول «انجلز»: «إن السببية لا يمكن أن تُفهم إلا بالارتباط مع نوع المصادفة الموضوعية الذى هو أحد مظاهر الضرورة؟» وأضيف أن العلاقة السببية على غرابتها هنا حقيقية لا لاعتمادها على الفعل

المتبادل وحسب بل لأنها معاينة. وسأذهب إلى أبعد: ذلك الاسم «سانسون»[١] الذى لم أسمعه يلفظ منذ سنين، إذ وقع تحت نظرى فى ذلك الصباح، هل كان من شأنه غير أن يذكرنى بالفتاة ذات العينين «المائيتين»، الشبيهتين كما قلت بعينى «دليلة» التى كنت على موعد معها فى ظهر ذلك اليوم ذاته، لتناول الغداء؟ أن يقارب هذا فى رأى بعضٍ هذيان التأويل، أمر لا أستنكره، بعد أن شددت على أسباب تضعضعى آنذاك. وعند الحلاق بعد قليل، كنت أقلب بلا إكتراث صفحات مجلة «(الضحك) Rire» التى وضعت بين يدى حين كدت أقهقه لرؤية رسم وقراءة شرحه. وجدته بالغ الطرافة بالغ الفكاهة. لم أصدق عيني: غرفة، وفي السرير امرأة صغيرة القدّ، مفرطة الشقرة، ذات عينين واسعتين كصحنين، ملتفتة نحو شخص أسمر أصلع، ذى أنف كالمنقار، يرتدى مبذلا[٢] مزينا بشرائط، يدخل حاملا فى يده كوبا، كان العنوان «الطائشة». وتحت الرسم الحوار التالى:

«من الذى يحضر القهوة إلى سرير زوجته الصغيرة؟

ـ إنه أقرنها»[٣]

بدا ذلك لى فى تلك اللحظة رائعا. وصرت أتعجل الخروج لشراء نسخة من المجلة. وعبثا حاولت استذكار هفوة أكثر منها إضحاكا.

١ ـ اسم «سانسون» Sanson» الفرنسى هو التحريف لاسم «شمشون» الوارد فى التوراة والمربط باسم «دليلة».

٢ ـ المبذل من الثياب: ما يلبس فى البيت كل يوم.

٣ ـ هنا تلاعب لفظى لم نجد أقرب تعبيرا له سوى «القرين» أى الزوج «الأقرن» أى، مجازا، الزوج المخدوع. وفى الفرنسية العامية تعبيرا تدليل بين محبين هما «Cocotte» للمرأة و«Coco» للرجل، وقد زل لسان المرأة التى فى الرسم فاستعملت كلمة «Cocu» ومعناها الزوج المخدوع و«الأقرن» هو ذو القرنين طبعا.

والأعجب هو أنى لم أستحب قط الكلمة الأخيرة من الحوار. ومازلت أحفظ أنى عرضت نفسى فى صغرى لتعنيف قاسٍ لأننى استفهمت عن معناها والدىّ اللذين أخذانى إلى مسرح «باليه - رويال». كما أن امرأة كانت «امرأتى» كانت تستكره إلى حد تلك الكلمة التى لا أعرف فى الصحيح سوى استعمال واحد لها لائق هو استعمالها فى هذه الجملة من «نشوء الأسرة»: «مع أحادية الزواج ظهرت شخصيتان اجتماعيتان ثابتتان مميزتان كانتا قبلا مجهولتين هما خليل المرأة والأقرن» لكن يجب الاعتراف بأن هذه الكلمة فى إيرادها ضمن هذا الرأى، حملت أكثر من معناها الحرفى. وما كان على كى أقتنع بذلك من ثم غير أن أستذكر من المرأة الشقراء التى ساقتنى إلى الدخول لأول مرة عند ذلك الحلاق.

وإذا كانت السببية فى نظرى ذلك الصباح أمراً عصيا ومريبا بصورة خاصة فإن مفهوم الزمن لم ينجح بدوره فى أن يحتفظ بسلامته. ومع أنى قادر عموما، بعد التطلع إلى الساعة للمرة الأخيرة فى الواحدة بعد الظهر، أن أقول، فى اختلاف لا يزيد عن دقيقة، أن تلك الساعة تشير الآن إلى الخامسة والدقيقة الثالثة والعشرين (وقد أشهدت على ذلك مرات عديدة خاصة فى الأيام التى أكون فيها صاحى الذهن ومتململ النفس) لاحظت أن سيارة الأجرة التى أتت بى إلى باب الحلاق كانت تمضى فى بطء شديد، كما أنى وجدت الآن أن سيارة الركوب العامة التى صعدت إليها والتى كانت تجتاز الشوارع البالغة الزحام فى تلك الساعة وذلك الوقت تنهب الطريق نهبا. فحين توقفَت خطفا عند زاوية شارع «ريشليو» لم يتيسر لى، من مكان الوقوف الذى كنت فيه، ونسخة «الضحك» فى يدى أن أتبين

مناسبة ما كان يجرى على شرفة مقهى «كاردينال» أمام جمهرة مشاهدين كبيرة. كان رجل يرتدى جلد حيوان منتصبا فوق طاولة، يمرر من خلف كتفه اليسرى حيوانات ضارية فتية، بالغة المعط يتناولها من خلف كتفه اليمنى المكسوة بوشاح أحمر. وكانت الحيوانات التى استسلمت لتلك اللعبة السخيفة، تحشر على التوالى وبصعوبة عظيمة من قبل مساعدى الرجل فى قفص ذى فتحات تهوية، كان ثلاث آلات تصوير مصوبة على ذلك المشهد العديم المعنى، وكان من العسير تصور ما هو أسمج وأغبى. وتخيلت لبضع ثوان، بكل ما يجدر من اشمئزاز، الجهود السينمائية الفرنسية الغربية، وينبغى القول إنى مجتذب دوما إلى كنز الحماقة والخَرَق الذى يجد طريقه بفعل تلك الجهود، إلى التلألؤ كل أسبوع على الشاشات الباريسية، وأنى مولع جدا بالحوار الفرنسى وبالتمثيل الفرنسى: إذ يكون المرء متأكدا من أنهما سيضحكانه كثيرا (إلا إذا كانت الرواية «هزلية» بحيث يتحرك التأثير الإنسانى فى حاجته إلى التنفيس عن ذاته).

الساعة الثانية عشرة إلا الثلث. كنت أعرف أننى وصلت بأبكر جدا مما يجب. لم يبق لى سوى أن أتصبر لمدة نصف ساعة فى مقهى «باتيفول» فى الرقم (٧) من شارع «فوبور سان ـ مارتان» . وعلى أن أختار مكان التواعد هذا لم يكن منى بل من الفتاة التى أنتظرها، فقد كان المقهى مألوفا جدا لى. كنت دخلته قبل أشهر إثر امرأة باهرة الجمال كانت عيناها طبعا أول ما سحرنى فيها. وبما أن المعلومات التى أخذتها عنها من خادم المقهى أفترت جدا رغبتى فى التعرف عليها اكتفيت بالنظر إليها من بعيد وبالعزم، حين تثقلنى الوحدة، أن أعود لأنظر إليها من بعيد أيضا لكن الصالة التى دخلتها

كانت كافية وحدها لاستبقائى. كانت تزخر بين الساعتين السادسة والثامنة بأكبر ازدحام رأيته أبدا: كان يختلط فيها صغار فنانى المسرح والملاهى مع عدد من رجال ونساء من مجتمع لايزيد وضوح مهنة عن أولئك. كان مقهى «بانيفول» أشبه «ببلاط معجزات» حقيقى[١] يمزج فى نوع من صور مد وجزر بحرية، صوت انهمار مطر، الأمل واليأس الموجودين فى جميع حانات العالم. وعلى مدى شهور بعد ذلك ظللنا أصدقائى وأنا نتلاقى فيه عند كل أمسية، وكأن كلاهما كان يتمتع بعدم استطاعة التحدث إلى الآخرين، لعدم إمكان إسماعهم ما يقول. فبعد التصافح ووضع قطعة الجليد فى الكأس لم يكن علينا سوى أن نستسلم لهذهدة تلك الريح التى تعصف بحاجز مدفأة لو أشعلت لكان دخانها حريرا. كانت هناك نساء شابات يستعددن، بعد التمهيد بغمزة عين أو بتعرية ساق، للإيقاع «بمدير» مسرح أو ملهى، وأخريات مرتخيات بلغن نهاية مسلكهن الحياتى وكانت تجرى مفاوضات خافتة ذات غاية دنيئة طبعا. وكانت تقوم عناقات ونزاعات وشجارات. ولم يكن شئ أكثر إلهاء وأكثر إراحة من ذلك المشهد.

حين دخلت «باتيفول» يوم الثلاثاء فى العشرين من نيسان، كان خاليا تقريبا. على طاولة قريبة من الباب كانت امرأة تجلس وحيدة تحرر رسائل. وكنت عن غير قصد أستعرض الأسباب التى أرادتنى فى تلك البرهة هناك لا فى مكان آخر وكانت تلك الأسباب تبدو لى

١ ـ بلاط المعجزات أو «باحة المعجزات» (Cour Des Miracles) حى فى «باريس» القديمة كان فى القرون الوسطى مأوى الشحاذين والمتشردين. «المعجزات» هى تخلص الشحاذين من العاهات كالعمى والكساح والعجز، التى كانوا يزعمونها بأنفسهم فى أثناء «ممارستهم المهنة» استدرارا لعطف المارة.

فى تتابعها أكثر تعقدا وتشابكا مما تصورتها أولا. وكانت مطابقات كثيرة لا تزال محتملة، فأمام مسرح «غيتيه - روششوار» قابلت الفتاة التى أنتظرها دون أن أكون متوقعا مجيئها، وكانت قالت لى صباح يوم الأحد إنها ستمضى بعد الظهر في نفس ذلك المسرح حيث كانت أمها تريد أن تحضر تمثيل آخر ما أخرجه «فوياد» فى رواية عنوانها «نرسيس، بطل الحب» وهى إحدى الروايات الفرنسية التى لا تجاريها قيمة سوى الأفلام الفرنسية. ووعدنا نفسينا، صديقى «بيير أونيك» وأنا بأننا سنتمتع فى ذلك الأحد ذاته بتسلية عظيمة الفكاهة. وكان البرنامج المطبوع الذى نظرت فيه، يعلن، لدهشتى، الفصل الأول تحت عنوان «منازعات باتيفول». ولدى رفع الستار لم ألحظ وحسب أن ذلك العنوان كان مطلقا، فى ذهن المؤلف، على «ماخور» بل أيضا أن الفرقة التى تقدم تلك التمثيلية كانت منتقاة حصرا من بين رواد مقهى شارع «سان ـ مارتان».

سبق أن قلت إن ساعة انقضت دون أن أرى تقدم فتاة المنزل المعتم الشديدة التقلب أو الشديدة السخرية. وكيلا أتناول الطعام وحيدا قررت دعوة الزبونة المبكرة التى أنهت لتوها كتابة رسائلها. وكانت ظريفة جدا وذات جرأة وصراحة فى الكلام لا تقلان فى شئ عن جرأة وصراحة «جولييت» فى كتاب «ساد» الرائع. وأخذت أرد عليها بذات اللهجة. وكانت قحتها المطلقة ترينى عينيها الشديدتى الاتساع أكثر صفاء. ونشأ عن ذلك بيننا حوار ملئ بالمباغتات المدهشة تخللته بشكل ممتع خطابات من أمها ومن أختها قرأتها علي وهى خطابات مذهلة البلاهة ظللت آسفا على أنى لم أستأذنها فى استنساخها. كانت كلها تطالبها، بحد ... عن خورى قرية أن لا تقصر

فى تأدية دقيقة لواجباتها الدينية، ورافقتها حتى «مودون» حيث ينتظرها، كما قالت لى، شيخ معجب بمفاتنها. كلفتنى أن أشترى لها زهورا تهديها إليه. وذكرت لى، خلال الحديث أنها تعرف أو عرفت «هنرى جانسون» المؤلف المسرحى الانتقادى (الأمر الذى، أضاف إلى تحديقها فى شَعرى الحديث القَصة والمرسل إلى خلف طويلا مما بعث لديها الريبة، كان من أثره أن ذكرنى مقال «سانسون» الذى قرأته فى الصباح وجعلنى أخلط فى الأيام التالية بين ذينك الاسمين. وعلمت من جهة ثانية أنها تعمل راقصة فى ملهى «فولى - برجير» وأنها تدعى فنيا «باريزيت». وهذا الاسم الوارد عرضا فى حديثها والشاعرى جدا فى رأيى أعاد إلى خاطرى فيلما مسلسلا فرنسيا كان بهذا العنوان. فقبل عدة سنوات وإجابة على تحقيق لصحيفة «فيجارو» حول اتجاهات الشعر الحديث طاب لى أن أقارن شاعرية ذلك الفيلم العفوية بالشعر المكتوب فى هذه الأيام، وهذا الشعر، حسب تصريحى آنذاك لا يستحق حتى أن يُهتَم به: وخير منه أن يُتابَع فيلم «باريزيت» واستجوابات محاكم الجنايات).

ومطاوعة لانجذابى منذ سنين كثيرة إلى حى «سان ـ دونى» وهو انجذاب أعلله بانفراد البابين الموجودين فيه واللذين يعود ولا ريب مظهرهما بالغ التأثير إلى أنهما كانا جزءا من سور «باريس» القديم، فأصبح لهذين الممرين الأشبه بساقين فى تيار قوة المدينة النابذة هيئة مستوحشة تماما لا يشاركهما فيها عندى سوى برج «سان ـ جاك» العبقرى الإنشاء. كنت أتسكع حول الساعة السادسة فى شارع «بارادى» حين شعرت أنى مررت، دون أن أتبينه بوضوح، أمام شئ غريب فرجعت بضعة أمتار إلى الوراء. كان ذلك الشئ فى

الواجهة الزجاجية لبائع جوارب نسائية صغير، ضمة شديدة الاغبرار من شرانق القز معلقة على أعواد يابسة موضوعة فى إناء عديم اللون. يالها فى الحق من رعاية مقلوبة. وفكرة دودة القز والساق التى صنع الجورب الأقرب إلى الإناء لإلباسها، هذه الفكرة الجنسية الصرف طابت لى للحظات عن غير وعى فى الأرجح ثم حلت محلها الرغبة فى أن أخترع للباقة الربداء خلفية تبرزها على الوجه الأكمل، وسرعان ما استقر فى خاطرى أن أحدد لها مكانا فى الركن الأعلى اليسار من مكتبة صغيرة زجاجية الواجهة فضلت تخيلها من طراز قوطى وقابلة للتعليق على الجدار، فى بيتى، شأن صندوق فراشات مصبرة مسمرة. وافترضت فى تلك المكتبة الزجاجية أن تكون فى حجم كاف لاحتواء مجمع «روايات الرعب» من العهد قبل الرومنسى التى لدى وتلك التى مازلت أتشوق إلى اكتشافها واقتنائها. ورحت أخمن التأثير الذى لابد من أن تحدثه تلك الكراسات الصغيرة فى تجليدها الجميل من طراز «ديركتوار»[1] أو فى غلافاتها ذات اللون الخالص الأزرق أو الوردى الماسح، إذا ما تيسر لها أن تُعرَض فى ذلك الشكل ومن جهة ثانية كانت لتلك الكتب إذا فُتِحَت رائحة ما عبير غابة مظلمة أو قباب عالية السقف، وبطلاتها، غير المحدثات الأشخاص لكن كنهن مكتملات الحسن. وما أروع منظرهن فى رسوم الغلاف الخارجى وهن فى ذعر من رؤية الأشباح المخيفة وقد شحب لونهن فى الأقبية. لا يوجد ما هو أكثر إثارة من ذلك الأدب المفرط للروائية المغرق فى التكلف. كانت جميع

١ ـ الديركتوار Directoire: نظام خلف الثورة وحكم فرنسا من ٢٦ تشرين الأول ١٧٩٥ حتى ٩ تشرين الثانى ١٧٩٨ وكان مؤلفا من خمسة «مدراء» ومجلسين تمثيليين، وقد أعقبه النظام «القنصلى» ثم إعلان «نابليون بونابرت» امبراطورا.

تلك القصور، فى «اوترانت» و«أودولف» و«البيريينه»َ و«لوفيل» و«آثلين» و«دنباين»، ذات الجدران المتشققة والسراديب المتآكلة، تستمر حية فى الزاوية الأعتم من ذهنى حياتها الصنعية، وتلمع ببريقها الطريف. وكانت تذكرنى أيضا طفولتى البعيدة، أيام كنا نستمع بعد انتهاء الدرس، رفاقى الصغار وأنا وكلنا فى السادسة من العمر، إلى حكايات أشد إفزاعاً، كان يقصها علينا معلم غريب الأطوار من إقليم «أوفرنى» اسمه «تورتولو» ولم أستطع قط معرفة من أين كان يقتبسها، والمهم أن تلك المكتبة، لو وجدت، لكانت جميلة جدا. وشغلت نفسي أمسية بتمامها فى تحقيقها المحال. ولعلى كنت أريد إذ ذاك فوق كل شئ إقامة ذلك الهيكل الصغير لشعور «الخوف».

فى صبيحة اليوم التالى، حول الساعة السادسة والنصف، دونت جملة الاستيقاظ هذه: «فى مناطق أقاصى «الشمال ـ الأقصى» تحت المصابيح المنسربة* تتمشى فى انتظارك، «أولغا ـــ» كنت وقعت فى الماضى، خلال «بيان السريالية» الأول، فى خطأ إضفاء تأويل مبالغ الشاعرية لكلمة «بيتون Bethune»[1] التى راودت فكرى بإلحاح دون أن أتوصل إلى إعطائها قصدا معينا، وأعتقد اليوم أنى لم أحسن التفكير. ومهما يكن الأمر فإنه لم يكن حملي على الذهاب إلى «بيتون» (والواقع أنى لم أذهب إليها) ومن العسير التخلص من بعض ظروف المعيشة التعسة كتلك التى ألفيت نفسى فيها صباح

* كانت كلمة «تحت» مشددا عليها من قبل الصوت الباطن الذى بدا معطيا لها عديدا من المقاصد. والنقاط تحل محل مالا أدرى من كلمات ترمى إلى أن تملأ شاعرياً المكان الفاصل بين جزئى الجملة، كان معينا، إن صح القول، أن ذلك الفاصل المفعم والمبهم عمدا، يمكن أن يستبدل به أى كلام آخر بذات القدر من خلو المفاد ومن قابليته فقط أن يبطئ الاندفاع الخطابى.

١ ـ بيتون: قصبة فى شمال فرنسا قرب بحر «المانش».

الثلاثاء (٢٢) نيسان، من إغراء انتهاز أول فرصة تسنح للتحرك، لاسيما إذا نجم عن ذلك تغرب تام. وأعترف بأن أول ما بدر لى وأنا أتأمل تلك الجملة كان أيضا أن أذهب أتحرى فى «ايسلاندا» أو فى أطراف «فنلندا» ما تبتغيه منى «أولغا» هذه. على أن الواقع، كما أتيح لى تبينه هذه المرة كان أقل استنهاضا. وأرى لزاما أن أوضح هنا كيف تألفت «أولغا».

حدث، بكل بساطة، خلال قراءتى قبل يومين كتابا جديدا فى سيرة «رامبو» وأنا أتمشى فى شارع «ماجنتا» أن علمت أن آخر بيت من قصيدة الحروف الصائتة :

(واو، «الأوميغا»[1] شعاع عينيها البنفسجى)

يكشف عن أن امرأة عبرت حياة الشاعر وأثرت فيه عيناها البنفسجيتان وربما أشقاه حبه لها. وكانت لذلك الاكتشاف عندى أهمية عظيمة. فأنا أحمل للبنفسجى كرها لا حدود له يصل إلى منعي من استطاعة الإقامة فى غرفة يسرب فيها هذا اللون، حتى خارج لمحى المباشر، بعضا من أشعته القاتلة* وقد سرتنى معرفة أن «رامبو» الذى كانت تبدو لى أعماله حتى إذ فى عصمة مفرطة من العواصف العاطفية تجعلها غير كاملة الإنسانية، قد أصيب، من تلك الناحية، بخيبة أليمة وفوق ذلك كانت عيون النساء، كما أوضحت كفاية. كل ما كان بوسعى الاسترشاد به، آنذاك، وكنت صارحت مرارا، وفى عهد قريب أيضا، هذا أو ذاك من أصحابى، بالشجو

١ ـ أوميغا هو آخر الحروف اليونانية وصورته (W) ويقابل (الواو).

★ وجد أوبانتشيش «وهو يفحص عددا كبيرا من الأشخاص غير العرضة للسمعية الملونة أن نبرة عالية من «معيار النغم» (آلة موسيقية معدنية على شكل حدوة) تبدو أعلى حين ينظر سامعها إلى لون أحمر أو أصفر أو أخضر أو أزرق، وأخفض حين ينظر إلى لون بنفسجى (هافلوك أليس).

العجيب الذى تبعثه فى نفسى، منذ سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة مثل تينك العينين البنفسجيتين اللتين سحرتانى فى امرأة كانت تصطاد الرجال على الأرجح عند زاوية شارعى «ريومور» و«يالسترو» وأتذكر تماما أنى كنت مع والدى. وأبدا بعد ذلك، وربما لسعدى، فقد كان ممكنا أن لا أعود أهتم بشئ آخر فيها أو فى سواها، لم أقابل مثل تلك المخلوقة الآسرة. وبعد أمد قصير جدا - ويبقى هذا رغم حقيقته أقل وضوحا فى ذهنى - شعرت بشهوة قوية نحو فتاة روسية الأصل كنت أتحايل للجلوس إلى جانبها فى الطابق العلوى من سيارة ركاب كبيرة، كانت تأخذنى إلى المدرسة الثانوية. كانت تلك الفتاة تدعى «أولغا» وحول منتصف نيسان ذكرتنى بها بطاقة بريدية مصورة قديمة خالية من الشرح تمثل شابا وشابة جالسين جنبا إلى جنب ومتحرقين إلى الدخول فى حديث، فى الطابق العلوى من سيارة شبيهة، - وكان حلا لبول ايلوار ولى أن نجمع بطاقات من ذلك النوع - وحل محل حرف «أوميغا» (اليونانى) الذى لم يكن خاليا من معنى من وجهة النظر الجنسية اسم «أولغا» الذى كانت دوافع بقائه أكثر وأقوى. و«أقاصى الشمال الأقصى» كان مصدره كما تحققت مصادفة بعد ذلك، مقطع مقالة فى «صحيفة الشعراء» الصادر فى ١٨ نيسان قرأته دون إمعان يوم ٢١، ففى ذلك المقال المرافق لترجمة «أناشيد قطيع ثيران المسك» و«بلاء الحيتان الكبيرة» وردت جملة ما كان لمطلعها وحده: «أهل أقصى الشمال الشعراء بطبيعتهم لأنهم متدينون بطبيعتهم». إن لم يكن إلا لتأييده فى صيغة سمجة وبفارق ساعات قليلة أشد أخطال «سانسون» بعثا على الأسف، أن يدع لى رغبة فى معرفة تتمته. ولم يبق علىّ فى تلك

الحال سوى أن أستكشف أيضا لماذا كانت المصابيح تتسرب. ولا شك فى أن ذلك كان مجرد أثر الخمر العنبرية التى شربتها فى الليلة السابقة، وأن أستوضح أى فجر قطبى زهيد كان حريصا على الاختباء خلف كلمة «تحت» لكن أعترف بأن اختفاء «أولغا» تلك، التى بدت كأنها تلوح لى من الطرف الآخر من العالم، بدد يومئذ كل رغبة فى ذلك لدى.

هناك زال معظم الأسحار التى انتابتنى منذ عدة أيام. إما لأنى ألقيت على ملامح «أولغا» تلك ضوءا ليس للكائنات الخيالية أن تحتمله ويقضى عليها واحدة بعد أخرى بالتبخر، وإما لأن هذا أو ذاك الحدث فى الأمس كان من شأنه أن يعيد فى عينى للعالم الواقعى نوره الحقيقى، بدا لى أنى استرجعت فجأة إدراكى، غير أن تلك القصة لها كلمة ختام زودها بها«اندريه دوران»[1] يوم الجمعة التالى. لم أكن تخلصت بعد، بل على العكس، من هوسى «بروايات الرعب» وبينما كنت أتمشى فى شارع «فوبورسانت هونوريه» متأبطا «العشيقان اللذان يسيران فى النوم» صادفت ذلك الرجل العجيب الذى أكره رسمه والذى أحب أقواله البالغة البساطة حينا والبالغة العمق حينا آخر لكن النامة على القلق دوما، ذلك الرجل الذى صنفتنى «أوراق فاأله» مرة وإلى الأبد «رجل ريف» والشخص الأوحد الذى أنجح فى أن أكون معه على أحسن وعلى أسوأ علاقة. وكنت أجد داعيا للاعتقاد بأنه يحوم منذ مدة حول المرأة التى أسلمنى غيابها إلى تلك الأوهام المخزية بدرجة أو بأخرى والتى قابلت زوجها قبل دقائق عند تقاطع شارعين. وحين كنا نتصافح «دوران» وأنا دوى

١ ـ دوران Derain (١٨٨٠ ـ١٩٥٤) رسام فرنسى انتسب فى البداية إلى عصبة «الصحر أو الضوارى» Fauves ثم تحول إلى نهج كلاسيكى مميز.

قصف رعد شديد وانهمر على الفور مطر كالسيل فقال لى ضاحكا: «الظاهر أن الجو غير ملائم لنلقى بعضا» وسألته« كيف تؤوله إذن» أجاب «ستكون الخمر جيدة هذا العام».

من المحال فيما أظن، نظرا إلى ما تقدم، أن لايشده المرء للشبه القائم بين الحال التى وصفتها على أنها حالى فى تلك البرهة وبين حال الحلم كما تُتصور عموما. الفرق الأساسى، الكائن فى أنى فى الحال الأخيرة مضطجع نائم وفى الحال الأولى أتمشى حقيقة فى «باريس» لا ينجح فى أن يبعث لدى، هنا وهناك، تمثلات واضحة التميز فعلى ذينك الصعيدين القابلين للتضاد يطاردنى ذات الحظ والنحس. وأبواب الأخلاقية، وهى تتفتح أمامى لا تتيح لى الدخول بيقين فى عالم أشد تماسكا من الذى يمكن بعد حين قصير أو طويل أن تنغلق عليه. حقاً إنى أقوم فى أثناء ذلك بإنجاز عدد من أفعال متباينة الوعي كأن أغسل وجهى وأن ألبس وأن أتصرف كالعادة مع أصدقاء. لكن هذا لا يعدو كونه ممارسة وظيفة مألوفة كالتنفس فى النوم أو كاختلاج نابض لم يتحرر إلا جزئيا. وأقوى دلالة جدا ملاحظة كيف أن إلحاح رغبة تبحث عن غرض تحقيقها يتصرف بغرابة بالمعطيات الخارجية مائلا بأنانية إلى أن لا يحفظ منها غير ما يمكن أن يخدم مرامه. وحركة الشارع الضخمة صارت لا تكاد تزيد فى المضايقة على حفيف أغطية سرير. وأن الرغبة هنا، تشق طريقها فى قلب القماش غير السريع تغير اللون ثم تُجرِى بين المقطع خيطها الواثق الواهن. إنها لا ترضخ لأى منظم موضوعى للسلوك الإنسانى. وما تستعمله، هنا أيضا، لبلوغ مقاصدها قليل الاختلاف جدا عما فى متناولها لتحقيق ذاتها حين يكون الإنسان نائما. ومع ذلك فإن

المواد التى يستخدمها هى هنا مواد حقيقية، أشياء مأخوذة من الواقع. تلك المرأة ذات مثل تينك العينين، إنها لا تريدها، إنها تريد فقط عينيها، مع أنها تعلم أن تلك المرأة موجودة. وذلك الرسم الفكه المقتطف من جريدة يومية وجد حقا سبيله إلى الظهور فى عدد مجلة «الضحك» الأخير. ومقهى «باتيفول» ليس خرافة، بل يمكن الإتيان بوصف له على طريقة الطبيعيين لا تخلو بداهته الشمسية التصوير من بعض شبه موضوعى خارجى. (إنى أحب تلك الأنواع من الوصف فهى تبين ولا تبين هناك يظهر كثير من أعواد «الدريقة»[1] على منضدة الخدمة من رخام مزيف غير خالص البياض والخضرة، وفى المساء، فى ضوء المصابيح يصل خط منقط على الندى من زاوية معينة، تقويرات قمص النساء حيث لا ينى يترجح ذات الصليب الصغير المرصع بماس كاذب والجاهد فى خدم بريق حمرة الشفاه وكحل الرموش إلخ... وما كل هذا بعديم الفائدة تماما، إذ بهذه الواسطة يمكن بلوغ كامل عدم الوضوح) وأحسب أن هناك طرفا من خداع فى التقدير الذى ظن بعض الشعراء وجوب إعطائه لجملة «نيرفال»: «الكل يعلم أن المرء لا يرى الشمس أبدا فى الحلم مع أنه غالبا ما يحس بنور أعظم جدا سطوعا منها». ولا أتبين جيدا ما يمكن لملاحظة سلبية من هذا النوع، حتى على افتراض استطاعة التثبت منها موضوعيا، أن تحوى من تميز، من جزم. على أن لا أهمية فى ذلك طالما أنى فى منتصف نيسان هذا لم أكن فى انتقالاتى محروما كليا من الشمس، كما أخالنى أكدت لدى ذكرى فى خلال مطلع هذه الحكاية لساق كانت الأولى التى، منذ زمن طويل بدت لى فاتنة. الشمس! ما الذى لم ترده لى آنذاك أيضا الكواكب

١ ـ الدريقة: نبات تزيينى من فصيلة الزنبقيات.

الأخرى. أما أنا، فى هذا الصدد، من الألى يترفعون عن استشارة التقاويم. فهناك أنواع مختلفة من وسائل المعرفة، وقد يكون التنجيم إحدى تلك الوسائل، ومن أهمها، شرط أن يُضبَط حداه الأولان المنطقيان وأن يُسلّم فيه بما هو فرض أولى[١] لكن، رجاء، لنستغن عن أناشيد تمجيد الشمس. بل يجدر فى رأيى الاحتجاج على هذه «الشمس» الموزعة الكبيرة للقيم المادية - وليس نقص أو زيادة، بريق، إذا ترددنا فى إعلان حقيقة العالم الخارجى، بالذى يخلّصنا من ترددنا. ذلك العالم الخارجى بالنسبة إلى، على كثافة غيومه، لم يكن على خلاف مع الشمس. ذلك العالم، كنت أعرف أنه موجود خارج ذاتى ولم أنقطع عن إيلائه ثقتى. لم يكن فى نظرى، كما فى نظر «فيخته» اللا أنا الذى خلقه «أناى». وفى حدود ما كنت أتنحى لدى مرور السيارات، ولا أجيز لنفسى التثبت على حساب أى كان، ولو على حسابى، من دقة عمل سلاح نارى، كان يصل بى الحال إلى تحية ذلك العالم أجمل تحية. وظنى أنه ينبغى لذلك أن يكفى، ولا ينقص ذلك، من صحة أنى، باستثناء ذلك الخضوع، كنت أسعى بكل قواى إلى أن أستخلص من الوسط، دون كل ما عداه، ما من شأنه أن يعيد أولا على إعادة تكوين ذلك «الأنا» بأى فطنة غامضة لكنه يمكن لذلك أن يتحقق؟ إنه فى رأيى سؤال ذو صفة «غيبية» يثنينى كل شئ عن أن أزوده بجواب لا يمكن أن تدخل فيه من جديد سوى الضرورة الطبيعية التى تستمر فى عدم كونها الضرورة الإنسانية أو المنطقية والتى هى الضرورة الوحيدة التى يتوقف عليها أنى بدأت أكون وأن أنتهى أن أكون. وطالما أنا موجود ألاحظ أن هيج الأمواج

١ ـ الفرض الأولى Postulat : قضية غير بديهية ولا مبرهنة، يسلم بها مع ذلك كأساس الاستدلال فى المسائل النظرية والعملية.

لابد له من أن يستدعى وجود طوافة الإنقاذ تلك. أعلم أنه ستكون دائما هناك جزيرة فى البعيد طيلة ما سأعيش. ولا شئ مطلقا فى هذا يشبه ما فى الحلم حيث يقع لى أن أصاب بجرح قاتل فيجعلنى ذلك أستيقظ كيلا أموت. ويبدو لى أن النقاش لا يمكن أن يتركز على أفضل من تلك الفكرة «لباسكال»: «لا تأكيد لأحد عدا الاعتقاد على أنه صاح أو نائم، نظرا إلى أنه خلال النوم يظل معتقدا بأنه صاح كما لو كان صاحيا فعلا... بحيث أنه، ونصف حياتنا ممضى فى النوم، باعترافنا أنفسنا... من يدرى إذا كان ذلك النصف الآخر من الحياة الذى نظن أنفسنا صاحين فيه ليس إلا نوماً مختلفاً قليلا عن الأول نستيقظ منه حين نحسب أننا ننام؟» إن هذا المنطق كى يكون مقبولاً يستلزم أولاً فى توازنه إذا كنا خلال النوم نظن أنفسنا صاحين، أن نظن أنفسنا خلال اليقظة نائمين، وهذا التوهم بالغ قدرة الحصول ولا يكون هذا الافتراض أيضا قويا لدرجة تبرير الجزء الثانى من الجملة: فما دام قد ثبت أن النوم واليقظة يتقاسمان الحياة فلماذا هذا الغش لصالح النوم؟ ثم ما هذا النوم غير المحدد بالنسبة إلى اليقظة إن لم يكن، كما أجيز لنفسى الظن باعتبار معرفتى للمؤلف، بالنسبة إلى يقظة أبدية يستحيل بالأولى التأكد منها خارج الاعتقاد. ما هذا الاتهام الموجه إلى الحياة الحقيقية بحجة أن النوم يوهم بهذه الحياة وهما يُكتَشَف لدى الاستيقاظ، بينما الحياة الحقيقية فى النوم، على افتراض أنها وهم، غير منتقدة فى شئ، غيرمعتبرة غرورة؟ ألا يبيح لنا ذلك، بما أن السكارى يرون الشئ مزدوجا أن نقرر بالنسبة إلى عين إنسان لم يشرب، أن تكررَ شئ هو نتيجة سكر مختلف قليلا؟ وبما أن هذا الاختلاف سيكون ناشئا عن

الواقع المادى للشرب ولعدم الشرب لا أرى داعيا لمزيد من القول. وإنها لحجة إضافية لإبراز ما يمكن أن يكون مشتركا بين تمثلات اليقظة وتمثلات النوم. فحين يتم التأكد من مبدأ تماثلها فقط سيُتَوَصَل إلى الاستفادة بوضوح من اختلافها بحيث يقوى بوحدتها التصور المادى للعالم الواقعى.

لقد اخترت عامدا، كى أعيد رسمها، البرهة من حياتي التى يمكن أن أعتبرها، فيما يخصنى، بعيدة جدا عن العقلانية. كانت تلك هى البرهة التى، وقد أقعدنى عن كل نشاط عملى حرمانى المبرح من إنسانة لم أعد أستطيع أن أعتبر نفسى سوى ذات بعد أن كنت قبلها ذاتا وموضوعا، كنت أميل إلى الاعتقاد بأن أمور الحياة التى لم أكن أحفظ منها سوى ما أريد، بل على الأصح التى لم أكن أحفظ منها سوى ما كنت فى حاجة فورية إليه، لم تنتظم على هذا الشكل إلا فى سبيل، ما كان يجرى، لا دون بطء وعوائق مغيظة، فى حدود ما كنت أدركه، كان يبدو لى من حقى، كنت أجد فيه إشارات، ألتمس فيه وعودا. والذين مروا فى حال مماثلة سيجدون لى عذرا، هذا الحلم الصاحى لم يكن للوهلة الأولى محتواه الظاهر أشد وضوحا من محتوى حلم نائم، ربطة العنق أو النبتة الصحراوية، الشحاذ أو المجنونة، ثم غطاء الطاولة الأبيض أو الساحة «البيضاء» ولم تكن خطرت لى بعد - اللذان يعينان على تذكر سيدتين ألمانيتين متميزتين، لا كبير تفوق محسوس بينهما. وكأنما الرغبة، هنا وهناك، التى هى فى جوهرها، تستولى حسبما يتيسر على ما قد يفيد فى إرضائها. وأنه لخداع فكرى صرف أعتقد أنها، فى الحلم الصاحى تخلقه ولو أنها لم تجد ما وجدت، أظن على العكس أن شيئا آخر سيناسبها،

لشدة ما هو صحيح أنها تتمتع بوسائل عديدة للتعبير عن ذاتها. وسيسلم فى النهاية بأن كل شئ يشكل صورة وأن أى شئ لم يعين له دور رمزىّ محدد، قابل أن يمثل كل شئ، فللذهن سرعة شديدة فى لمح أضعف صلة يمكن أن توجد بين غرضين مأخوذين لا عن تعيين، ويعرف الشعراء أنهم يستطيعون القول، دون خشية الغش، عن الواحد إنه مثل الثانى. والمفاضلة الوحيدة بين الشعراء لا يمكن أن تقوم إلا على مقدار الحرية التى برهنوها فى هذا المجال*. أما الرغبة، إذا كانت حيوية حقا فإنها لا تحرم ذاتها من شئ، لكن إذا كانت المادة الأولية التى تستخدمها غير قابلة إلى حد ما أن تثيرها، فلن تكون لديها أساليب كثيرة لمعالجتها. ذلك أنها مضطرة، سواء فى الواقع أو فى الحلم إلى إمرار تلك المادة فى ذات السياق: تكثيف، نقل، تبديلات، تعديلات. إن كل ما جرى لى ما بين الخامس والرابع والعشرين من نيسان محتوى فى بضع الوقائع التى أوردتها والتى إذا وصلت ببعض - مع حساب أوقات الانتظار طبعا لاتشغل أكثر من ساعات قصيرة. ولم أعد أتوصل إلى معرفة مما كان يتألف الباقى. فالحافظة لا تعيد إلىّ من تلك الأيام القليلة إلا ما يمكن أن

* - إن مقارنة شيئين على أقصى تباعد، أو بأى طريقة أخرى مقابلتهما بشكل مفاجئ ومؤثر، تظل أسمى مهمة يمكن للشعر التطلع إلى تحقيقها. وفى هذا ينبغى أن يميل أكثر فأكثر إلى ممارسة سلطتها الوحيدة الفذة التى هى إظهار الوحدة الحسية للحدين المربوط بينهما ولإعطاء كل منهما، أيا كان، قوة كانت تنقصه طوال تناوله أفراديا، وما ينبغى حطمه هو التعارض الشكلى البحت بين ذينك الحدين، وما ينبغى القضاء عليه هو تباينهما الظاهرى الذى لا يقوم إلا على الفكرة الشوهاء، الصبيانية المتخذة عن الطبيعة وعن خارجية الزمان والمكان وكلما بدا عنصر الاختلاف قويا، وجب التغلب عليه وإنكاره، إن الأمر يتعلق بكل مدلول الشئ. وهكذا فإن جسمين متغايرين، إذا حك أحدهما بالآخر، يصلان بواسطة الشرارة إلى وحدتها القصوى فى النار، وهكذا يتوصل الحديد والماء إلى حلهما المشترك الرائع فى الدم، إلخ... والخاصة البالغة لا يمكن أن تكون عقبة أمام طريقة الرؤية والشعور هذه. ذلك أن الزينة المعمارية والزبدة تتواءمان تماما فى «التورما» التيبيتية، إلخ...

يفيد التعبير عن الزغبة التى كانت تطغى عندى على كل ما عداها. وكون الحكاية المروية هنا حكاية أحداث أصبحت قديمة بحيث اختلط بها حتما طرف من تأويل يرمى إلى إعادة تجميعها حول نواتها الحقيقية، قد يجعل أصعب إدراكٰ عمل التحويل. ومع ذلك فقد أسهم في التحويل فى إنشاء ما كان سيفرض نفسه، لو أننى دونت يوميات فى ذلك الحين، كمحتوى واضح على الانتباه. ومن المرجح جدا أن حول النشاط المقاوم للدين كان سيبدو كل شئ آنذاك متركزا. ولن يجد القارئ تناقضا فى ذلك إذا تذكر أن المرأة وقد أصبحت مؤقتا مخلوقة مستحيلة، لم تعد تمثل فى ذهنى إلا كموضع تعبد خاص، بيِّن الوثنية وإنه كان علىّ أن أقاوم ذلك الانحراف اللا إنسانى. وبذا اتخذ النشاط المضاد للدين عندى. خلا القيمة الموضوعية التى منحناها له أصدقائى وأنا، معنى ذاتيا خاصا جدا. وكى يبرز هذا بجلاء فى عرضى ربما كان ينبغى أن لا يتولى الزمن الذى يفصلنى عن تلك الأحداث القيام بتصفية. وفى المقابل كانت استبدالات أشخاص أو أشياء ببعضهم بعضا محسوسة فالانتقال الصريح من عينى ٥ نيسان إلى عينى ١٢ نيسان إلى عينى صورة فى رسم مائى وإلى العينين البنفسجيتين، والخلط بين «سانسون» و«جانسون» والتقريب غير المعقول والمتسرع بين حادث شارع «مالزيرب» وبين توقيف خمسة محتالين ظرفاء تمكن من أن يعين لها خلال ذينك الأسبوعين دورا بالغ التأثير. وكانت هناك، بصورة خاصة، من جهة المرأة محاولة تكوين شخص جماعى قادر أن يحل بذاته، لدواعى بقاء إنسانى شديد الوضوح، محل شخص حقيقى ولن أتوسع فى شأن جهد الإنشاء الثانوى المشرف على التنقيحات فى الحلم، وبالأحرى فى تلك الحال من حلم اليقظة حيث يعمل الجزء الأكبر من انتباه

الصحو ولهذا العمل تدين طبعا الحكاية السابقة بجميع عناصرها النقدية وبتلك الطريقة فى التفكير التى تُلاحَظ فيها: (كما فى الحلم: لا يهم ما دام ذلك حلما) فى صدد الواقع الذى حق لنا لتونا الاشتكاء منه: ما أهمية ذلك مادام حسبى أن أستعين بالنوم، أن أتصرف قدر المستطاع كما فى النوم، كى لا أكترث بذلك الواقع.

بما أن مثل رد الفعل هذا نحو المعطيات الخارجية يتوقف حصرا على حالة الإنسان العاطفية وهى هنا على أقصى درجة من البؤس، يصبح معقولا أن جميع الأوضاع الوسط يمكن أن توجد بين التعرف الجلى على العالم الخارجى كما هو وبين إنكاره لصالح منظومة تمثلات ملائمة «أو غير ملائمة» للإنسان الذى يواجه هذا العالم. وتصورا الاضطهاد والعظمة غير بعيدين عن التدخل ولا ينتظران سوى فرصة الجموح بسبب التبلبل الذهنى. وعند هذا الحد لابد من التسليم، وقد أصيب الانتباه بأزمة خطيرة متميزة جدا، بأن التمثلات، فيما تعرضه عادة من أمور موضوعية تصبح مفسدة. وكما لا يكتشف فى نهاية الأمر خلف الحلم سوى مادة واقعية مقتبسة من الأحداث المعاشة قبلا فإن فقر تلك المادة البالغ يقضى على الذهن أن يلجأ إلى حياة الحلم. وتخزن مواد إنشاء جديدة، كما عند الإفلاس، لا يغدو سوى واجب يؤديه الإنسان على مضض. الديون أبهظ من أن يمكن سدادها، ولا يُعرف إذا كانت السلع الجديدة القادمة ستغطى فقط نفقات تخزينها وهناك ميل إلى التخلص منها فورا. والحلم الذى يفتقر منذ أمد إلى الغذاء يقوم هنا بدور مصفّى التفليسة. إنه ينزع إلى تخليص الإنسان، بالثمن البخس، مما لم يعد يأمل أن يتصرف به. وينال كل ما يريد بإقناعى أنى، وقد تحررت من دَين معين سأجد

نفسى، ربما عنوانا لشركة تجارية جديدة، وأستطيع أن أحيا من جديد تحت اسم جديد، أنه فى منطقة على درجة من الرهافة والغطرسة يتوصل بها إلى الحصول فورا على كل ما كنت، فى أيام أفضل، قد أتمنى حقيقة نيله. إنه يسد علىّ بالمعنى الصحيح سبيل النشاط العملى. والقوانين العامة لحركة ما هو كائن تغيب عن فكر الإنسان الذى لا يعود يسعه اعتبار نفسه كعزم[1] من تلك القوانين والميزان الجدلى يجد اتزانه مختلا لصالح «الذات» الذى، وقد تعب من التوقف على ما هو خارج عنه يسد بجميع الوسائط إلى جعل ما هو خارج عنه متوقفا عليه. وفى هذه النقطة فقط ـ وليس من تفسير غير هذا ولاريب لقرار الانتحار البالغ الغرابة لدى بعض الأفراد ـ تصبح منهجية المعرفة المعاقة فى سعيها الهادفة أكثر فأكثر تجريده عن «الموضوع» قابلة للانجراح وتتعرض لخطرها القاتل الخاص.

هذه الفكرة تعيد إلى ذهنى فجأة الثلاثية المخيفة التى أوردها «بوريل» خلال القصيدة الموجزة الرائعة فى «السيد بوتيقار: العالم، الدير، الموت» كذلك تتراءى فى خاطرى ضحايا «إلهات العمر الثلاث» تلك الأكثر اجتذابا، أرى، فى العهد الحديث «باريس» Barrés و «فاليرى» Valery مسلمين لوحوش الندوات الأدبية وللتكريمات. أراهما يفعلان شيئا فشيئا مثل الآخرين، أسوأ من الآخرين. يعاودنى اللطف البالغ الكآبة البالغ التخييب فى الآنسة «دو روانيز» التى كُتبَت لها على الأرجح المقالة حول أهواء الحب، ذلك اللطف الذى لم ينجح المؤلف بعد فى الاحتماء منه تحت ظلال «بور ـ رويال» المقيتة[2]. ثم الإنذار الغريب الموجه من «باربيه دورفيلى» إلى

١ ـ العزم Moment فى علم الميكانيك: حاصل ضرب إحدى قوتى «مزدوجة» يساعد رافعة هذه المزدوجة والمزدوجة Couple مجموعة من عنصرين متحدين حسب نظام معين.

٢ ـ «بور رويال» دير قرب باريس كان مقرا فى القرن السابع عشر للطائفة «الجانسينية» الشديدة التعصب.

«هويسمان»: «اختر بين فوهة المسدس وبين قدمى الصليب». وأسترجع، قبل أن يقدموا على الحركة الاستفهامية الكبيرة التى جعلت منهم ضحايا، رنين صوت «ماياكوفسكى» ذلك الصوت الذى أتصوره فى قصائده، وصوت «جاك فاشيه» وصوت «جاك ريغو» اللذين عرفتهما شخصيا. ها هو ذا، ممدودا بكل تلك الأيدى، الدواء السيئ، الدواء الذى هو شر من الداء، ها هى ذى عاقبة المنظومة المثالية الذاتية المبلغة أقصى حدودها، المنظومة المؤسسة على الشؤم، ولا شئ يمنع، لاسيما فى الحال الأخيرة، من أن تنمى إلى النهاية بدأب شديد. ولا يسعنى، رجوعا إلى جملة «باسكال» التى أوردتها أن لا أدخل فى الحساب الاعتبارات العاطفية العنيفة التشويش التى قد تكون أسهمت فى إنشائها، وأرفض أن أرى فيها شيئا آخر غير التعبير عن قنوط إنسان الشخصى. إن الأفخاخ، تلك الأدوات التى لا غنى عنها فى «القره قوز» (مسرح الظل) الإنسانى، من الفخ المستعمل لابتلاع عزّاقى الرمل فى «أوبو ملكاً» إلى ذلك الذى شاء مؤلف «فى الطريق» أن يقنع به، مازالت تخدم العالم، فى حدود عدم كفاية عربات الموتى وعربات مصلحة الطرق.(١) دائما يجد المرء ذاته أمام نفس معلم المدرسة المفقوء العينين فى «خفايا باريس» «لأوجين سو» الذي اعتبره «ماركس» النموذج الأكمل للإنسان المعزول عن العالم الخارجى: «عند الإنسان الذى يتحول العالم الخارجى فى نظره إلى تصور مجرد تغدو التصورات المجردة كائنات محسوسة» وليس الدير أولا فى الحقيقة سوى رمز ذلك العمى غير الإرادى أو الإرادى. والإنسان الذى يغريه الدير ليس فى البداية سوى ألعوبة

١ ـ كلمة Voirie الفرنسية تعنى فى وقت واحد مصلحة الطرق وأماكن إلقاء القمامة.

الأولوية الممنوحة بسبب أو بآخر لكن دوما بسبب مرضيّ، للتمثلات الهوسية على التمثلات الواقعية. لكن سرعان ما تعود هذه الأخيرة إلى الإلحاح بما أنه لايمكن التفكير في تجريد العالم الدينى من الزمنية. والشخص الموضوع فى دير، يصبح بكل تصرفه، طوعا أو كرها، صانعاً لذلك العالم الذى لا يوجد إلا تبعاً للآخر ويعيش فى الصعيد الواقعى كطفيلى عليه. وكما بيّن ماركس من جهة أخرى، فى نظريته الرابعة حول «فويرباخ» أن إشطار العالم الدينى إلى أقسامه المتضادة لايمكن أن يحمل مفادا إلا بشرط أن يثبت أن «الله ليس خلقا مطلق التجريد من فعل الإنسان وأن ظروف الوجود المنسوبة إليه ليست انعكاس ظروف وجود الإنسان، لكن بذات طريقة اقتباس الحلم جميع عناصره من الواقع وعدم اقتضائه خارج هذا الواقع الاعتراف بأى واقع آخر أو جديد، بحيث أن انشطار حياة الإنسان إلى عمل وإلى حلم، يسعى أيضا إلى فرضهما كمتضادين، هو انشطار شكلى صرف، هو وَهْم، وكل الفلسفة المادية تدعمها العلوم الطبيعية تثبت أن الحياة الإنسانية، المتصورة خارج حديها الحصريين اللذين هما الولادة والموت، ليست بالنسبة إلى الحياة الواقعية إلا كحلم ليلة بالنسبة إلى النهار الذى سبق عيشه. وفى تمجيد الحلم المعتبر مجال انطلاق، وفى الدعوة إلى حياة غيبية، لا تتبين سوى إرادة تعديل عديمة الفعالية هى فى ذات الوقت عدول تام. وتقابل هذه الإرادة غير العاملة، ولا يمكن أن تقابلها غيرها فى البداية، إرادة تغيير الأسباب العميقة لتكره الإنسان، إرادة قلب عام للعلاقات الاجتماعية، إرادة عملية فى الإرادة الثورية. ـ لا يُعْتَرَضْ عليّ بأنى أفسحت لفقدان الهمة غير ذى الجدوى، كما حرصت أن

أبين خلال أمد مديد: ألم أكن أول من قال، كما يحدث حين يكون المرء نهبا لتأثر مفرط الشدة، أن ملكة النقد كانت مبطلة تقريبا لدى آنذاك؟ لكن بعد انقضاء زمن التعطل هذا، وأطالب بأن يعترف لى بذلك، لم يفسد فى جوهره شئ من مكونات العظمة والقيمة الفائقتين للمحبة الإنسانية فى نظرى. بل على العكس كان أول مسعاى تلمس على أى حجر تعثر، إذا استهنت بعدم الفهم الاجتماعى، كل ما حملت فى نفسى من أجل التوصل إلى الحقيقة. إن المحبة الإنسانية واجبة إعادة الإنشاء. شأنها شأن الباقى: أقصد أنه ممكن وواجب أن تعاد إقامتها على أسس الحقيقة، والألم هنا أيضا لا أهمية له، وبصيغة أدق، يجدر أن لا يؤخذ في الاعتبار إلا فى حدود ما يكون، شأن كل تعبير آخر للحساسية، خلافا لفعالية عملية. ينبغى أن يعين الإنسان لا على تصور المرض الاجتماعى وحسب فى البداية، بل أيضا أن يكون، وكذلك الشقاء، إحدى القوى الكبرى العاملة فى سبيل أن يُحصَر يوماً ما ذلك المرض. العاشقان المتفارقان لا مؤاخذة عليهما إذا كانا قد تحابا، وبتأمل أسباب انفصالهما سيتبين أنهما عموما كانا عديمى القدرة على التصرف بنفسيهما. والتقدم هنا أيضا لا يمكن تصوره إلا فى سلسلة من التغيرات يلازم سيرها إلى حد سير حياتى، من التغيرات التى أعرف جيدا واحداً يجب تحقيقه بسرعة ـ وقصر هذه الحياة يتدخل كعامل محسوس ومثير فى اتجاه تلك الضرورة الأساسية المتخذة صفة الاستعجال ـ واحدا سيمكن من بلوغ المحبة ومباهج الحياة الأخرى لذلك الجيل الجديد الذى يبشر به «انجلز»: «جيل من رجال لم يقعوا قط فى حياتهم فى ظرف أن يشتروا بالمال أو بأية قوى اجتماعية أخرى استسلام امرأة

وجيل من نساء لم يتعرضن قط لحال الاستسلام لرجل بموجب اعتبارات أخرى غير الحب الحقيقى ولا التمنع على عشيقهن خشية العواقب الاقتصادية لهذا التسليم». أعلم، كما قلت، أن هناك مهمة على الرجل الذى اعتبر نفسه محبطا جدا فى هذا المجال أن يتهرب منها. هذه المهمة التي هى أبعد ما تكون عن أن تحجب عنه جميع المهمات الأخرى يجب على العكس أن توفر له، بإنجازها، الفهم العميق لكل المهمات الأخرى، وهى اشتراكه فى كنس العالم الرأسمالى.

« لن تستطيع ابدآ رؤية
هذه النجمة كما كنت اراها .
إنك لا تفهم .
إنها كقلب زهرة
بلا قلب »

«نادیا»

إن الناس الاحياء الآن، الذين تقع عليهم قبل أن تؤول حقاً إلى الناس عامة، مهمة استخلاص المعقول من المحسوس والعمل على تحقيق الخير الذى هو ذاته الحقيقة، يواجهون عائقاً جوهرياً من المناقض للحياة بخسة أهميته بحجة أنه رهن بالزمان الذى هو زمانهم وأنه سيزول حتماً حالما يُنتزع الاقتصاد العالمى من عدم استقراره الحاضر. هذا العائق ناشئ من أن بلداً هو الاتحاد السوفيتي، بعد أن تغلّب حديثاً على أعظم حائل فى المجتمع المعاصر دون تحقيق هذا الخير (وأعنى استغلال طبقة لطبقة) باعتبار أن للتصوّر التجريبى الفعّال دوراً فى الزمان هو بالذات التصدّى لجملة من العقبات بغاية تذليلها، يتعثّر لدى كل خطوة بضرورة أن يردم بأى ثمن الهوّة الفاصلة بين هذا البلد الحر وبين سائر البلاد، ولا يمكن طبعاً أن تجرى هذه العملية إلا فى اتجاه تحرير تلك البلاد لا فى اتجاه إرجاع البلد الأول إلى الاستعباد، ذلك أن كل تصوّر آخر سيتنافى مع فكرة «ما يجب أن يكون» وكذلك مع التميّز الأشد موضوعية للواقع التاريخى الذى تتماثل معه فى نهاية الأمر فكرة «ما يجب أن يكون» هذه. فإذا اكتفينا بهذه المعطيات العاجلة أمكن استنتاج الفعل التجريبى بجميع أنماطه. وسيكون على الجهد الإنسانى أن ينصبّ موقتاً على نقطة واحدة هى أن يتخلّى المثقف خاصة عن صيغ الفكرة النظرية فيما لهذه الصيغ من صفة تجريدية للزمان والمكان المتناهيين. وطالما لم تتمّ تلك الخطوة الحاسمة فى طريق التحرر العام سيكون على المثقّف فى كل شئ، أن يسعى للتأثير على الكادحين كيما يرفع مستوى وعيهم كطبقة وإنماء روحهم الكفاحية.

غير أن هذا الحل الذرائعى[1] الصرف لا يصمد للأسف أمام الفحص، إذ لا يكاد يُقدَّم حتى تقوم فى وجهه تفنيدات من جوهرية وعرضية.

إنه مفرط الاستهانة أولاً بالنزاع المستمرّ لدى الفرد بين التصوّر النظرى والتصور العملى غير الكافيين كل لوحده، والمحكوم عليهما أن يحدّا بعضاً. وهو لا يدخل فى واقع التحول الذى تفرضه على الإنسان طبيعته الشخصية والذى يجعله رهناً لا بشكل وجود الجماعة وحسب بل أيضاً بضرورة ذاتية: ضرورة بقائه وبقاء جنسه، هذه الرغبة التى أنسبها إليه والتى أعرف أنها لديه التى هى التخلّص العاجل من عالم حيث يصبح أفضل ما فيه أعجز يوماً فيوماً عن إظهار قدرته، هذه الرغبة التى أرى ممكناً أن تتركز وتترتب فيها طموحاته الخيرة، كيف يسع هذه الرغبة أن تظل عاملة إذا لم تُعبئ كل الماضى، كل الحاضر، الخاصيّن بالفرد؟ أىّ خطر لن يتعرض له إذا لم يعتمد لبلوغ غايته إلا على توتّر حبل يتوجب المرور عليه بأى ثمن، مع الامتناع، بدءاً من لحظة سلوكه عن النظر إلى فوق وتحت؟ كيف أستطيع إقرار أن تخلص مثل هذه الرغبة وحدها من سياق تحقيق كل رغبة أى أن لا تعيقها الآلاف من عناصر حياة مركبة التى لاتنى، كما تفعل حجارة بساقية، تحوّلها وتقوّيها؟ بل يهم على العكس، فى هذا الجانب من أوربا أن تكون عصبة تتولى حفظ هذه الرغبة فى حال تجدّد مستمر مع لزوم أن تكون موجِّهة بالنسبة إلى الرغبات الإنسانية الأبدية، إذا كانت لا تريد، وهى أسيرة صرامتها،

١ ـ الذرائعية :Pragmatisme مذهب يرى أن معيار صدق الأفكار فى قيمة نتائجها العملية فالحقيقة تعرف بنجاحها.

أن تنتهى إلى الخَوَر. وطالما هذه الرغبة حيّة ينبغى أن لا تعمل على أن لا تبقى كل الأسئلة مطروحة وعلى أن الحاجة إلى المعرفة فى كل شئ لا تُواصل طريقها. حسنٌ، مسعدٌ أن بعثات سوفيتية، بعد بعثات كثيرة، هى فى سبيلها اليوم إلى القطب. إن ذلك أيضاً، فى نظر «الثورة» كيفية لإعلامنا بانتصارها. من سيجرؤ على اتهامى بتأخير اليوم الذى سيظهر فيه هذا الانتصار مشيراً بأصبعه إلى بضع مناطق اجتذاب أخرى ليست أقل قدماً ولا أقل جمالاً؟ إن قاعدة حاصرة كتلك التى تتطلب من الفرد نشاطاً مخصّصاً بهدف كالهدف الثورى مُحْظِرة عليه كل نشاط آخر لا يمكن إلا أن تعيد وضع هذا الهدف الثورى فى إطار الخير المجرد أى فى إطار مبدأ غير كافٍ لتحريك الفرد الذى لا تميل إرادته الذاتية بنازعها الخاص إلى التماثل مع هذا الخير المجرّد. ويصبح أن يرى هنا سبب هام لتباين معنوى قد يسهم فى إبقاء الانقسام الحالى المستمرّ بين الطبقة العاملة فى حين أن من شأن الصفة المتغيرة الأشكال للحاجة الإنسانية أن تُشرك هذه الحاجة فى مجالات أوسع جداً من السعى. وكل قوى المطالبة الفورية أو غير الفورية التى يعود إلى التآلف فيها على أيما شكل العنصر الجوهرى للخير تستلزم أن تستخدم.

والتفنيدات العرضية التى ربما. يكون فيها ما يقوّى هذه التفنيدات الجوهرية تعتمد على واقع أن العالم الثورى اليوم منقسم للمرة الأولى إلى جزئين يصبوان حقاً بكل قواهما إلى التوحد وسيتوحدان لكنهما يجدان بينهما سداً سمكه عدة قرون لا يمكن التفكير فى تجاوزه وينبغى فقط العمل على هدّه. ولهذا السدّ من قوة الحجب وقوة المقاومة ما يجعل القوى الساعية من كلا الجهتين إلى إزالته،

مقتصرة إلى حد كبير على استشعار وتخمين بعض. هذا السدّ الذى تُوهنه فى الصحيح صدوع فائقة النشاط له خاصّة أنه يُدْأب أمامه بشجاعة على البناء على تنظيم الحياة، بينما الجهد الثورى خلفه يكد فى الهدم وفى التشويش الضرورى فى الأوضاع القائمة، وينتج عن ذلك فرق مستوى بيّن داخل الفكر الثورى، وهو فرق مستوى تلقى عليه صفته المكانية المرحلية الخالصة طابعاً كئيباً جداً، فما هو صحيح ومقبول رضائياً فى هذه المنطقة من العالم، ينقطع عن أن يكون مشروعاً ومقبولاً فى تلك المنطقة الأخرى بل قد يحدث أن ما هو الشرّ هنا يغدو بذاته الخير هناك، على أن تعميم هذه الفكرة ستيبدّى عظيم الخطر وعدم الجدوى فلا دليل على أن بذوراً شريرة تحملها الريح الغربية لن تنجح فى تخطّى ذلك السدّ والتنامى خلفه على حساب البذور الأخرى، مُنْجِمة بلبلة هائلة لدى الإنسان الجاهد للتمييز بدقة بين ما يغذى وما ينشئ وما يعلى وبين ما يخفض وما يقتل، ويزيد من صعوبة هذا التمييز ومن قابلية إمكانه أن ما هو متصوّر هناك دون تحفظ تقريباً - مبنى على الإيمان بذلك الانقلاب الذى حدث، وطبيعى أن الناس المفكرين فى هذا الجانب من الأرض، العازمين على الحكم على جميع الأمور فى الغسق المنشور عليهم، لن يملكوا كتم بادرة استغراب، ردَّ فعل قد يكون بذات القدر من الغسقية «أهذا هو الأمر فقط؟» لدى تأمل الصور المعطاة لهم عما يجرى على تلك الأرض الفتيّة دوماً، هناك نحو المشرق، على تلك الأرض حيث على كل شئ أن يكون بالغ الاختلاف، بالغ الفوق على ما ينتظر إلى أقصى مدى والتى لا يتحرك عليها بعد حتى الآن سوى رجال ونساء غير كاملى التحرير من قلق المعاش والمعرفة، وفى أماكن

متفرقة، سواء أخفوا ذلك أم لم يخفوه، من شاغل أن يصبحوا سعداء، وينصرف خاطرى إلى الافلام الروسية المعروضة فى فرنسا، بعد حذف مقاطع منها طبعاً، التى منظورة من هنا، تبين سطحية التفاؤل هزيلة المحتوى إلى حد كبير. وما أقوى الجهاز المصحح الذى ينبغى الاستعانة به كيما تعتبر مؤثرة وجميلة. يجب لذلك أن ننسب إلى الذين يرونها بهذه الصورة تحمساً مستديماً أخشى أن يكونوا واهمين فى تقدير قوّته المعدية فلا شئ تقريباً يمرّ، يصل إلينا، من ضغط واقع جديد، خلال تلك الروايات المعروضة المخونة بشكل مزدوج من قبل الرقابة ومن قبل التغرّب المادى والمعنوى معاً ولا أحسبنى الأوحد فى الاعتقاد بأن قيمتها الدعائية، من وجهة النظر الثورية، مشكوك جداً فيها ويمكن قول الشئ نفسه بالنسبة إلى عدد مفرط الكثرة من الوثائق الأدبية والمصوّرة ظلت لقرابة عشر سنين تقدّم لنا، ولحسن الحظ أننا نعرف - وهذا يعوض بسخاء عن ذلك - نعرف أن الكنائس تنهار هناك وستُتابع الانهيار حتى آخر واحدة منها. أخيراً: أن يكون منتج العمل الجماعى موزعاً دون تفضيل بين العاملين: هذا يكفى. إننا نرتعش للمرة الأولى للحشد البعيد، لجيش هو الجيش الأحمر الذى تشكل قوته أفضل ضامن لنا لقرب انهدام فكرة (جيش) نفسها وما تزال تغذونا بتمثلات جمّة أخرى تتمتّع لدينا نحن المسافرين فى القافلة الثانية - بقيمة محرّكة تفوق جداً قيمة سنابل القمح المتماوجة وإهرامات التفاح التى تعدنا بها «الخطة الخمسية» وطبعاً إذا كنا نريد العظمة والارتقاء المستمر لهذا البلد الذى حقق ما لم نعرف نحن أن نحقّق حتى الآن والذى يعجبنا أن يكون سكّانه متقدّمين لا علينا بل فى سبيلنا، فليس لهذه الأمنية أن

تلهينا، بل على العكس، عن كل ما هو باق، منافاة لذلك، فى مكان آخر، ليس لها أن تدعونا إلى الصبر على تشنجات الوحش المؤذى الذى هو الحضارة البورجوازية المزعومة. إن القمع الأدمى فالأدمى الذى يجتاح العالم، والهتاف الذى لا يُنسى الذى يصرخه أولئك، المتزايد والمتكاثر، الذين يمضون إلى الموت فى نشيد حرية، يجعلان واجباً علينا أن نجد فى أنفسنا، وخاصّة فى أنفسنا، البصيرة والشجاعة اللازمتين لنهاجم فى وقت واحد، وفى كل نقاط ضعفه، النظام المضطهد الرهيب الذى ينبغى القضاء عليه عالمياً. وبما أن الواقع الثورى لا يمكن أن يكون هو بالنسبة إلى أناس يميل بعضهم إلى هذا الجانب وبعضهم إلى الجانب الآخر من التمرّد المسلح، فقد يبدو إلى حدّ ما من المجازفة ابتغاء إنشاء وحدة واجبات لأناس متعاكسى الاتجاه فيما يتعلق بحدث مادى بمثل هذه الجوهرية، إن الفروض الدبلوماسية التى أُلزِم بها الاتحاد السوفيتى المُكره إلى أمد على مواصلة علاقات هزيلة مع الدول الرأسمالية بحرمانها إياه من أن يتخذ لدى كل اقتضاء اللهجة الصارمة المناسبة، من شأنها أيضاً، ولابد من قول ذلك، أن تُفاقِم البلبلة. وحاجة الاتحاد السوفيتى المؤكدة إلى بلوغ حدّ معين من الاستقرار المادّى ليست بالتى تخفِّف فى الخارج من أثر تأجيل تغييرات أساسية مختلفة أخرى كان يؤمل أن تستطيع الثورة المنتصرة إجراءها فى مجال العادات والطبائع. وواضح، من جميع تلك الوجوه، أن تعليم الثورة الروسية فى مرحلته الحالية لا يمكن أن يكون بمفرده إلا تعليماً ناقصاً وأن هناك داعياً إلى سحبه بأقصى حرية فى كل زمن وكل بلد آخرين كى يدخل فى اندماج حقيقى مع القوى الموضوعية والذاتية التى يبتغى إعمالَها الثوروى.

هكذا نصل إلى موقف تأليفى يوفق فيه بين الحاجة إلى تحويل العالم بشكل جذرى وبين تأويله على قدرٍ واسع هذا الموقف. نحن عصبة نفقه منذ سنين ونثابر على اعتقاد مطلق بأنه شرعى. لم نيأس بالرغم من الحملات الكثيرة التى أثارها علينا، من إمكان الإفهام بأنه لا يتناقض البتة مع موقف الثوريين المحترفين الذى سننقم على أنفسنا أن نسبب له أىّ انحراف لو استطعنا ذلك بفرض المستحيل. إن طموحنا على العكس، هو أن نوحّد برباط أبدىّ، برباط نكون قد فتشنا بحماس عن سرّه ليغدو أبدياً حقاً، بين نشاط التحويل ونشاط التأويل. كلا، لسنا مزدوجين، ما هذا بصحيح، كلا ليس فى وضعنا من إضرار[1] سخرى. نريد لهذا الرباط أن يُعقد، وأن يبعث الرغبة فى حلّه، وأن يُعجز عن ذلك. لقد تحدثت عن انتحارات كثيراً ما شدت الانتباه رغم كل شئ. هذه الاستئذانات بالانصراف المفاجئة التى قام بها رجال كان يتجسّد فيهم حماس شديد العصرية أى تابع للزمان، للحاضر إلى أقصى حدّ. شعراء، رجال، بعد التأمل فى كل شئ فى الحياة، فى علل وجودها البعيدة عن التفه، فى فكرة الأفضل الواجب أن يُبلَغ، وبالأحرى الذى يُبْلَغ، خلَوا لأنفسهم ذات مساء، ذات صباح، فى كأب شديد، وقرروا أن لا داعى فيما يخصّهم لمتابعة التجربة (وأخالهم قد تعمدوا خطل استعمال كلمة «تجربة» هذه) وتأخذ زمرتهم الشاذّة فى تهانف[2] وصرير أسنان متميزين. كلما ساقنا حبنا الطبيعى للمهارة، وحتى للبهلوانية الظاهرية، إلى السير على شفا هوات سحيقة، كما فعلوا قبلنا، دون أن يطلب ذلك منا.

١ – أضر الرجال إضرارا : تزوج على ضرة.
٢ – التهانف : الضحك فى سخرية.

والظلام النهائى الذين يتشاركونه لأنهم، فى أطراف العالم المتنائية وجدوا لأنفسهم معه ذات التجانس، سيلفّ بازدراء متماثل كل ما خالجهم وشوّشهم وأهمدهم بعد الإخفاق فى غير ما فائدة. ويندرج بينهم فى مكان بارز ثوريّون، قوم لم يترددوا بعد أن ألقوا بشموخ فى إحدى كفتى الميزان عبقريتهم وإيمانهم ومعه، كما شوهد، إيمان مئات الآلاف من الناس، أن يُسقِطوا بذِلّة فى الكّفة الأخرى صرخة جوفاء من معاناة شخصية من شأنها أن تغلب كل ما عداها، الجميع يتذكر ميتة «يسنين» و«ماياكوفسكى» الغامضة، وكيف لا نقف أيضاً عند بيان أرسله قبل أشهر إلى الصحافة الثورية «ايلى سلفنسكى» زعيم «المدرسة البنائية»[1] المختتَم، نعم، فى اتجاه معاكس كلياً، لكن الذى، لكثرة ما فيه من اعتبارات عاطفية شخصية، لا يمكن إلا أن يبعث الجزع؟ فى هذا البيان يقول الكاتب الذى حفلت حياته بالأحداث (فقد مارس عشرين حرفة وقاد سيارة مصفحة مسلحة بمدفع ورشاش فى توريد[2] وذاق السجن ولقى نجاحات أدبية، إلخ...) إنه وقد أشرف على منعطف الحياة الذى يشعر المرء فيه «بالانحدار» (كيف؟ لماذا؟ ما هو المنعطف المقصود؟) لم يعد يستطيع استرجاع إمكاناته وقواه إلا بالالتحاق بمحطة كهرباء «موسكو» بصفة عامل لحام متدرّب. ويخبرنا قرار من لجنة المحطة، أبلغنا إياه بفخر، أن رفاقه العمال أشادوا دون تحفّظ بالقصيدة التى خصصها، بعد انتسابه بقليل، لحياة وعادات المحطة، منتظرين منه إنجازات

١ - المدرسة البنائية Constructivisme نظرية جمالية ظهرت عام ١٩٢٠ لتحل محل النحت التقليدى نحتاً مفرغاً مكشفاً بشابك خطوط وسطوح.

٢ - «توريد» Tauride اسم لإقليم فى روسيا القيصرية كان يضم شبه جزيرة القرم وبعض المناطق الساحلية حولها.

جديدة فى ذات المجال، وليس لى أن أنكر على «سلفنسكى» المقدرة التى اعترف له بها حكّام يفضلوننى فى تلك المناسبة بيد أنى آسف على أن مجرّد وهن ملكته المبدعة هو الذى أسلكَه ذلك السبيل، وأرى فيه برهان أن تناقضاً بارزاً يظل قائماً فى تفكير بعض الناس الذين لا يمكن جحدهم صفتهم كثوريين. أفى وسع كاتب أو مثقف فى نظام جماعى إذن أن يتهرب حسب هواه من الواجبات المشتركة إلى يوم يعيده إلى الانتظام استياؤه من نفسه؟ إن فى هذا، عموماً بخس تقدير دور الغرور والكسل، وإنى لأرى فيه أيضاً تصوراً للحياة مجازفاً وخطِراً دون فائدة. إذ سيكون الانفعال وفقدان الانفعال هما المتحكّمان. والذى يريد إقناعنا فى هذا المجال بأنه غير ما فى ذاته لا يصل إلى أن يعيد، فى تمام سطوته ومستقلاً عن غرضه، الرغبة «أو الشهوة» التى فى جوهرها الانتقال من غرض إلى آخر غير معطية أهمية بين تلك الأغراض سوى للأخير. يالغرابة وطمأنة الحظ المنكسر السائر من تعب إلى نصب من المقاهى الشعرية إلى المصنع، ماراً بما يسميه «سلفنسكى» هذا باحتقار «بوابيج النساء الظريفات الصغيرة»(١) والحقيقة هى أن عمل التأويل يرتبط هنا بعمل التحويل بعقدة بالغة الارتخاء - يتقدّم المشعوذ البارع مُوثَق القدمين واليدين، وما أن يُسدَل ويُرفَع الحجاب (فالحجاب هنا هو مالا يُعرَف فى الشخص) حتى، بسلطاته وحده تشتعل كل الشموع، ضجة فى الصالة، ويعود هو إلى الظهور مقيداً لم يُكسر طبعاً أى قُفل، ويغدو الجمهور الصبيانى مستعداً للتوقيع على جميع الشهادات المطلوبة.

١ - معنى كلمة (Pantoufle) الفرنسية هو «بابوج» أو الخف الذى يحتذى فى المنزل. لكن اللغة الدارجة منها فعل Pantoufler لوصف تصرف موظف دولة كبير يتخلى عن منصبه ليخدم فى مؤسسة خاصة.

إن الحكم التأويلى الذى أبداه (سلفنسكى) شأنه شأن حكم «ماياكوفسكى» أو «يسنين»، هذا الحكم الذى ربطه كل بنفسه، بسياق حياته الشخصية، يتبدى لدى التأمل بالغ القصور بالغ الرداءة، فمن غير المقبول أن تظل الحياة الخاصة، بنجاحاتها وخيباتها، هى الشاحذة الكبرى وكذلك المثبطة الكبرى للعزائم. والوسيلة الوحيدة لتحاشى ذلك هى أن يهيأ للحياة الذاتية ثأر باهر على صعيد المعرفة ، والوعى دون خور أو خجل ، فكل خطل فى تأويل الإنسان يجر خطلا فى تفسير الكون، وهو بالتالى عائق دون تحويله. لكن ينبغى الاعتراف بأن عالما من تحيّزات مخزية يسير إلى جانب الآخر، ذلك الذى لا ينجح فيه سوى الكى ما إن تلاحَظ بالتكبير الشديد، لحظة تألم، إنه مكون من فقاعات كدرة مشوهة تطفو فى كل ساعة من القعر المستنقعى، من لا وعى الفرد. والتحويل الاجتماعى لن يعتبر حقا فعليا وكاملا إلا يوم يقضى على هذه الأصول المفسدة. ولن يقضى عليها إلا بقبول إعادة الاعتبار لدراسة «الأنا» كيما يستطاع إدماجها فى دراسة الكائن الجماعى.

***

إن «بونابرت» يحيرنى، حين، بعد أن أمر بتحطيم أبواب «بافيا» بقنابل المدفع، وأعدم العناصر المتمردة بالرصاص، خطر له أن يطرح -و«هيغل» هو الذى أورد ذلك -على صف الايديولوجيا فى الجامعة التى زارها ، السؤال «المربك» عن الفارق بين اليقظة والنوم. علىّ التسليم إذن أن مثل هذا التمييز حتى عند هذا الرجل القادر أكثر

فى أى سواه على إنجام الحدث المادى، لا يتبرهن دون اعتلاج باطنى متباين الشدة. فى شهر «بريريال» ذاك من العام الرابع، عندما أخمد نهائيا «الثورة» التى كانت توشك أن تنبعث من رمادها (وكل حل «جمعية البانثيون» قد تم فى شهر «فنتوز»[1] وبدا قابضا فى يده على مصير أوربا، من المبين جدا أن نرى المنتصر، الفاتح الذى يثنيه كل شىء عدا الشك فى سعد طالعه، يلتمس اليقين حول المؤثر، المهم، المستحق، بين الوقائع الدامية التى يجريها التاريخ عند قدميه ، وتلك التى تحاك على غفلة منه أو معرفة، فى الضبابة الغيبية فى سريره الميدانى. وينتقل بعض من هذا الشك ، موضوعيا ونقديا إلى خطاباته، إلى رسائله إلى «جوزفين» حيث الانتصارات المجيدة تلى فى الأهمية، بل وفى الواقعية اختلاجات القلق الغرامى لدى رجل قيل فيه مع ذلك أنه يفضل «الحب الجاهز» على «الحب المستوجب التجهيز» ولا تردد فى قلمه إلا كحاشية وفى سطر قصير. لا تواضع البتة طبعا فى هذا ولا التزام تهذيب. ومن المبهج أن نرى هوى أقوى من الهوى الدافع إلى السيطرة على الناس وتقرير مصير بلاد وتغيير مؤسسات يخط تلمه فى قلب «بونابرت» ما إن يهبط الليل، حاجبا فجأة عنه المنظر الحربى، مانحا السلطة الوحيدة الكافية لإسباغ الواقعية... على ماذا؟ على أمر غاية فى التفه، على سلوك امرأة طائشة لكن مشتهاة، معربدة لكن غائبة. هنا يظهر البطل بكل شفيفه

١ ـ أشرنا قبلا إلى (التقويم) الجمهورى «الذى وضعته (الثورة الفرنسية) وجعلت سنته الأولى تبدأ فى «ايلول ١٧٩٢» وأطلقت على الشهور فيه أسماء مقتبسة من أسماء الأنواء والثمار والمواسم و«بريريال Prairial أى شهر الحقول» يمتد من ٣٠ آيار إلى ١٨ حزيران و «فنتوز Ventose أى شهر الريح يمتد من ١٩ شباط إلى ٢٠ آزار ـ و«البانثيون» بناء فى باريس أقيم ليكون كنيسة، خصصته الثورة ليكون مدفن العظماء واستعارت له اسم هيكل إغريقى شهير فى «أثينا». و«جمعيته» هى مجلس ممثلى الشعب.

وغروره، إذ نرى من خلاله صور حفلة بعيدة عادية جدا، بالغة الاستحواذ، تبرز من لوحة الخلفية التى ستصير موضع التأمل المستقبل، والجديرة بذلك حقاً بسبب تفرّدها على الرغم من ضوئها المُكئب[١] والقيمة الخاصة التى اعطيها لهذا المثل آتية من أن الحدث «المجحود» هنا من النوع الذى تتبدّى عالمياً وبجلاء باهر صفته الإيجابية والذى يؤكد بقوة ذات رجعة فى الزمان هذه الصفة الإيجابية. هل ينبغى إذن أن لا ينتهى الفعل إلى الغرق والتلاشى فى ضدّه إلاّ عند فاعله؟ ربما ينبغى ذلك كى يتوصّل الفاعل إلى المحافظة فى داخله على تصوّر الزمان، الزمان الذى ينشأ ويزول فيه كل شئ، هذا التصوّر الذى من شأن امّحائه أن يفقده إدراك قدره وضرورته الذاتيين، أن يجمّده فيما يشبه الانجذاب[٢] وهذا الاستعداد الفطرى الصرف للتقرير المباشر السالب (الميل إلى التملّص فى الحلم، فى الحب) يسهر على أن تظلّ سلسلةٌ بالغة التنوّع والإثارة من وقائع مُعاشة باقية فى إطارها من الترابط الطبيعى. فالحدث الخارق، لو أمكن أن يقع، سيفقد الذهن حيلته الرئيسية ويجعله عاجزاً عن أن يحقق جدلياً نقيضه. ومثل هذا الحدث، حسب اعتقاد العامة، لا يمكن أن يُتصوّر إلا باغتاً كل من يشهده، ولن يتخلف أىّ ارتباط له.)

هذا الجحود، هذا الزهد، هذا النبذ، حيث يرتسم مُسبقاً «لبونابرت» نفيه المقبل، تُبين أيضاً وبشكل جلىّ، الحصول اللازم، من

١ - «اللوحة الخلفية» تعبير مستعار من المسرح ويعنى إطار آخر فصل مثل على الخشبة - والتفرد هنا يعنى أن النصر فى المعركة لا يمكن أن يقارن به نصر آخر - والضوء فى التصوير هو الجزء المهم الذى تسلط عليه الإنارة، وهو هنا القتلى والجرحى.

٢ - (الانجذاب Extase) فى علم النفس مرض نفسى يتميز بثبات البصر وجمود الجسم وفقدان الحساسية.

خلاله، لسلسلة الوساطات التى تميز المنهج الخاص للفكر. ويجدر فى رأيى التشديد على ذلك فى هذه القضية بعينها إن لم يكن إلاّ لدحض التصوّر «التوثينى»[1] القائل إن شخصاً فائق الصلابة والمناعة يستطيع العيش دون أن يطاوع فى شئ كل ما ليس «رسالته الوحيدة»[2] وكما فى نفس واحد، أن يصل إلى ذروة سلطانه وأن يثبت فيها. هل القائد العظيم الفلانى حقق تماماً انتصاراته وهل الشاعر الكبير الفلانى - وقد طُرح السؤال بخصوص «رامبو» - يمكن اعتبار أنه كان متفهماً تماماً رؤاه؟ هذا غير محتمل. إذ ذات طبيعة «الواحد» سواء عدّ عبقرياً أو ساذجاً أو مجنوناً، تُعارض ذلك بكليتها. يجب أن يفارق «الواحد» ذاته، أن ينبذ ذاته، أن يدين ذاته، أن يمحو ذاته لصالح الآخرين كيما يتكون مجدّداً فى وحدتهم معه. هكذا يتطلب فى تعقّده جهاز الدواليب المسننة الباطنة الذى يتحكم فى الحركة ونظام الشموس المتعاقبة التى لا تجود احداها، دون إيقاظ الأخريات، بشعاع واحد من نورها. إن الحيوية العظيمة تبْلَغ لقاء هذا التدافع المولِّد للتجاذب سواء كان العمل المسبب لها من الأهزل أو من الأفعل، لكننا نلمس هنا - وهو ما يجب الاعتراف به - نقطة ضعف أغلب الايديولوجيات الحديثة التى غدا بالنسبة إليها من أشد الأمور غموضاً وتحدياً، تأكيد أن ما يتنافر متوافق مع ذاته، حسب تعبير «هيراكليتس» الذى يوضح «انسجام التوتّرات المتضادّة، كتوتّر القوس والقيثارة وأوتارهما». ما من شئ كان موضع نزاع

١ - «التوثين أو «التأليه» Idoladrie هو رفع بطل إلى مرتبة «فوق إنسانية» والإعجاب به، بما يقارب العبادة والمقصود هنا هو طبعا نابليون «بونابرت».
٢ - ليس لكلمة Vocation الفرنسية مقابل فى العربية. وأقرب ترجمة لها هى «ماندر له الشخص خلقة» وتعنى أيضاً الميل والأهلية الغالبين لعمل ما. وكذلك الموهبة المخصصة لحقل من حقول الممارسة الحياتية وأتينا «بالرسالة» هنا باعتبارها تفيد تقريبا كل ذلك،

أشد خلال العشرين أو الخمسة والعشرين قرناً الأخيرة. والرأى العام فى أيامنا، والذى هو فى الجزء الأكبر من العالم من صنع الصحف المأجورة للبورجوازية، يكفهر بأجمعه تقريباً أمام فكرة أن الآلة الكونية تطبع على السواء الدوافع الأشد اختلافاً، وأن لا مجال لاعتبار بعض هذه الدوافع فعالة والأخرى غير فعالة، وخاصة كما قال «الايفيزى»[1] القديم: «إن الناس فى نومهم يعملون ويسهمون فى أحداث الكون» وحتى الرأى العام الذى يحفزه أمل البناء الاشتراكى، يرفض بطريقة مؤسفة مماثلة هى فى نهاية الأمر على ذات القدر من التزام الأعراف السائدة كل ما ليس الجهد المنحصر فى نقطة واحدة هى إنتاج الثروات والسعى البشرى إلى الصنع، وهكذا تصبح قضية المعرفة مغفلة ويعود الزمان إلى الظهور فى شكله الأشدّ طغياناً - التأجيل إلى الغد لما لم يُستطع عمله اليوم، تحرّى الفعالية المحسوسة، المستمرة، المباشرة، محاكاة دون حدود، وفى الشوارع اختلاط، كمّى للانشغالات الثانوية المتنازعة وتنافس من الأبلغ غباء مسيطر على الجميع، هنا، هناك، فى سبيل الامتلاك، فى سبيل التماجد، وقصور خاصة، لوحات شرف، وأرى الجمالات الطبيعية وقد غدت فجأة مريبة، مُسقَطة هائمة فى التماس استعمال جديد، مُبدِية مع ذلك مقاومة ضارية لمحاولة أن تُعيّن لها غاية غير غايتها الأصلية، هذا الزمان الذى أعيش فيه، يمضى للأسف ويجرنى، والقلق الجنوني، شبه المباغت الذى يُنظَر إليه به، لا يتجاوزنى. وفى الحق أنْ لا كبير متسَع اليوم، لمن يودّ بأنَفة شامخة

١ - ايفيز Ephèse مدينة على الساحل التركى هى مسقط رأس هيراكليتس وتعرف اليوم باسم «افسيس».

أن يرسم المسار المتعرّج المعقد الذى تتبعه الشموس التى ذكرتها آنفاً. فمع علمنا الأكيد أن مقابض توجيه الجهاز الأساسى لا حصر لها وأنه يتجاوب على الدوام وأن إجابته أبداً واحدة وعبثاً ترجى منه غيرها، فلا جدل فى أن كل ميقات رغم اندماجه فى كل المواقيت الأخرى، يظلّ متميزاً بذاته. وها أنا فى هذا الوقت الحاضر الذى تنبئ كل نُذره بسحابة أدنى من سواها، هى التى سيخلص وابلها العالم من نظام اقتصادى ظهرت وتكاثرت فيه تناقضات مستعصية قاتلة. وينبغى أن تُظلّل هذه السحابة الصفحة التى أحرّر، أن يؤدى هذا المَغْرَم للجماعة المُقتضى كيما أجرؤ على الكتابة، كى أضيع فيها وأجد نفسى معاً. وبعد ذلك، بعد ذلك فقط، قد يجوز لى أن أجهر بما يحرّكنى من شعور شخصى، قد يحق لى المطالبة، بمفردى تقريباً، أن لا تصرف الإنسان شواغله الأخص حاليّةً، واهتماماته بالتدخلات الألحّ استعجالاً عن واجب الفهم والمعرفة وأن تبقيه فى سبيل ذلك قادراً على استيعاب الحدث التاريخى المحقّق، أو الذى سيحقق قريباً - كالثورة الاجتماعية مثلاً - لصيرورة الكائن الإنسانى الشاملة التى لا ننسى أنها - بعد هذه الثورة كما قبلها - تستمر أبداً فى التكوّن ولا تكتمل أبداً. يلزم كما قلت، الحذر بأىّ ثمن من الإفساح غير المعقول لسدّ أو لتعطيل أجمل سبل المعرفة بحجة أن لا مجال مؤقتاً إلا لتعجيل ساعة الثورة. وبقدر ما أقر أن الفكر الإنسانى، المرتقى إلى مستوى أعلى بعد إنجاز الثورة، سيُدعى للانطلاق للمرة الأولى من ذاته فى درب لا تعترضه عَقَبَة، بقدر ما أنفى أن يتوصل إلى ذلك إذا لم يتجنّب، بكل معنى، الاستهانة بكل ما كانت قدمته له التجربة السابقة. وليس شرّ ما يمكن أخذه على هذا العهد ملاحظة أن عرضاً

فى مثل هذا المنطق البديهى لم يلق قبولاً، وكل يوم يوافينا، فى هذا الصدد، برفض أشدّ إذهالاً وأشد عمقاً من قبل الذين انبروا لتغيير العالم عقلانياً وغيروه بالفعل جزئياً. ليس يكفى البتّة فى رأيى النصح باستعمال مقبض معين - كقوة العمل مثلاً - دون سائر المقابض الأخرى، فضلاً عن أن ذلك يعرِّض إلى تخرب الآلة. ومع ذلك فإلى التقيد الدقيق بهذه القاعدة يسعى إلى إلجائنا أناس، يمكن لتعليم «ماركس» و«لينين» على ما يبدو أن يزودهم بتبصّر أعمق. إن الإخفاء البالغ الخوف لما قد يكون الأثمن، من وجهة النظر المادية، فى اكتشافات كاكتشافات «فرويد» والتأبى الفعلى عن كل مناقشة لنظرية خارجة قليلاً عن المألوف، والمرواحة المحسوسة الناشئة عن ذلك، إضافة إلى الميل إلى إضفاء العصمة على فكرة بعض الناس فيما يمكن أن تحتمله، شأن كل فكرة، من تأكد ومن مجازفة، إن هذا يبرر عندى تبنّى موقف خارجى عن المواقف المعتادة، يصعب الصمود فيه طبعاً، لكن يمكن منه على الأقل عدم التخلى عن روح النقد فى سَبيل أيّما إيمان أعمى. من يدرى أن من غير المناسب فى أشد العهود تبلبلاً أن تتعمق على الرغم منهم بضعة أفراد دورُهم تحاشى أن يهلك ما لا يجب أن يعيش مؤقتاً إلا فى ركن من غرفة زجاجية كيما يجد بعد أمد طويل مكانه فى وسط نظام، جديدا، مُبرزاً هكذا بواسطة وردة حاضرة بكليّة وببساطة، لأنها حقيقية، وردة «مِحْوَرية»، إن صحّ الوصف، بالنسبة إلى الزمان، إن على الغد أن يتّحد مع الأمس اتحاداً يزيد من وثوقه أن عليه الانفصال عنه بشكل باتّ.



فى جلجلة الأسوار المنهارة، وبين أهازيج البهجة الصاعدة من

المدن المنجزة، وعند منطلق السيل الذى يعلن العودة الأبدية للأشكال التى لا ينفك يتخذها التغيير، وعلى الجناح الخافق للعواطف والأهواء المُعْلية والمُسقِطة على التوالى الكائنات والاشياء، وفوق النزوات العابرة التى تتململ فيها الحضارات، ومن وراء اختلاط الألسنة والعادات أرى الإنسان، ما يبقى منه، ساكناً إلى الأبد فى قلب الزوبعة. إنه، قد خلص من هموم الوقت والحوز، يبدو حقاً كمحور هذه الزوبعة ذاتها، كعمود الوسط الأمثل. وكيف أوفِّقه معى إذا لم أرجعه إلى تلك الخاصّة الجوهرية التى هى خاصة النوم، أى الانغماس مجدداً، كلما دعت الحاجة، فى مهجة تلك العتمة المتخمة بالسكان، والتى جميع من فيها من أحياء وأشياء هم هو، من ذات طبيعة كيانه الأبدى الساقط مع الحجر، المحلِّق مع الطائر؟ أرى فى وسط الساحة العامة هذا الإنسان الثابت الذى بدلاً من أن تتفانى، تتنسق وتتجاور فيه بدرجة رائعة الإرادات المتضاربة لكل الأشياء فى سبيل مجد الحياة وحده، مجد هذا الإنسان الذى هو لا أحد والذى هو الجميع. وإذ أريده أن يكون بعيداً عن التنازع الاجتماعى متنزهاً عن طموح جامح وشائن أبداً، أؤكد لنفسى أن العالم بأسره يتركّب من جديد، فى عنصره الجوهرى، انطلاقاً منه. فليعتزّ إذن وليعمد بداية، وهذا ضرورى، إلى هزم الإنسان الآخر، ذلك المحرم عليه كل «استبطان»(١)، العابر المستعجل فى الضباب. إن هذا الضباب موجود. وهو مكوّن، خلافاً للفكرة الرائجة، من سمك الأشياء المحسوسة فوراً حين أفتح عينى. وهذه الأشياء التى أحبّ كيف لا أكرهها أيضاً لأنها تحجب عنى بسخرية كل الأشياء الأخرى؟ لقد

١ - الاستبطان Interiorisation فى علم النفس : التعبير بنشاط نفسى.

بدا لى، ولا يزال يبدو، بل إن هذا كل ما يشهد عليه هذا الكتاب، إنه، بفحص دقيق للنشاط الذهنى الأشد عفوية، ومع تجاوز الفوران فوق العادى وغير المطَمْئِن الحادث على السطح، يمكن كشف «نسيج شعرى» يحاول عبثاً، إذا تجوهل، تصورُ الدورة الذهنية. ودور هذا النسيج، كما رأينا، هو تأمين التبادل المستمر الواجب ان يجرى فى الذهن بين العالم الظاهر والعالم الباطن، ذلك التبادل الذى يقتضى التأويل الدائم لنشاط اليقظة ونشاط النوم. وكل تطلعى كان إلى أن أعطى هنا لمحة عن بنية، ومهما تكن الطموحات الكبرى إلى الوعى الكامل والهذيانات الطفيفة المتحتّمة الوجود، لا يمكن انكار أن هذا النسيج يغطّى حقلا عظيم الاتساع. فيه ينجز عند الإنسان التبادل المتصل بين حاجاته المشبعة وغير المشبعة، فيه يحتدم الظمأ الروحى الذى لابد له، من الولادة حتى الموت، من أن يسكّنه دون أن يرويه. ولن أكلّ من معارضة الضرورة الملحة الحالية التى هى تغيير أسس العالم القديم الاجتماعية المفرطة التضعضع والنخر، بهذه الضرورة الأخرى التى لا تقل إلحاحا والتى هى أن لا يرى فى الثورة القادمة غاية ستكون حقا وفى ذات الوقت غاية التاريخ، إن الغاية لا يمكن أن تُعتبر لدىّ إلا معرفة المصير الأبدى للإنسان، للإنسان عموماً، التى فى مقدور الثورة وحدها أن تحققها كليّة لهذا المصير. وكل ارتياد آخر، بأىّ حرص على الوقائع السياسية يتذرع، هو فى نظرى باطل ومعطِّل، ومن وجهة النظر الثورية الحصرية، انهزامىّ. إن من بالغ السذاجة فى اعتقادى ابتغاء خفض حاجة الانسان إلى التواؤم مع الحياة إلى رد فعل انعكاسى مؤلم قد يزول بإلغاء الطبقية. لذا كانت هذه الحاجة عصيّة جداً على توضيعها فى الزمان. ولأنى أريد أن

أراها تفرض نفسها دون عائق على الإنسان - وهذا ما لا أخاف من الجهر به - صرت ثورياً. فتقديرى إنها لن تفرض نفسها على الإنسان بلا قيد إلاّ حين يسعها فرض نفسها على كل إنسان، حين لا تعود العرَضية الصنعية كلياً لوضع الإنسان الاجتماعى تخفى عنه العرضية الحقيقية لوضعه الإنسانى. وأؤكد أن ليس فى ذلك من طرفى أىّ تشاؤم لكن على عكس ذلك تماماً أن من باب الرؤية الوجلة المقتصرة المؤسفة إقرار أن يكون العالم قابلاً للتغيير نهائياً والامتناع من ثمّ، كما لو أنه تدنيس، عن كل اختراق للأراضى الشاسعة التى ستبقى تستدعى الاستكشاف.

إن الداء المحرّم الذِكر(١) الداء العقام، كامن وسيظل كامنا فى العاطفة ولا جدوى البتة من إنكار ذلك وخير من كل وجه أن نذعن لسوراتها المدمرة وأن نسعى، من داخل جهاز الفوضى ذى الجوانب الرجاجة المستخدم فى ولوج دائرتها إلى تنظيم ولو قليل للمشاقة الوضيئة التى تثابر عليها. ليس عبثا إن الفرد إذ يتصل عن طريقها بمحتوى ذاته، يشعر بصورة متباينة الفجأ تريحه أو ترعبه، إن هذا المحتوى متميز عن المعرفة الموضوعية الظاهرة وينبغى الدأب على العمل بكل وسيلة على محاولة استجلاء غوامضها وعلى تبيّن ما يمكن اعتباره صحيحاً أو باطلاً فى اليقين المرافق لها. وفى سبيل ذلك يجدر لا عدم التخلى وحسب عن أىّ من كيفيات المعرفة الحدسية المجرَّبة، بل أيضاً الجدّ فى استنباط كيفيات أخرى. وأكرر القول إن

١ - الداء المحرم الذكر mal Sacré هو داء الصرع أو داء «النقطة» والعقام هو مالا يرجى البرء منه.

لا شئ ألزم فى هذا الصدد من استقصاء متعمق لسياق تشكّل الصور فى الحلم، مع الاستعانة بما يمكن علمه، من جهة أخرى، عن التأليف الشعرى. ما سبب أن صوراً معينة اختيرت تفضيلاً على صور معينة غيرها بين جميع الصور؟ وكون بعض منها يبدو بوضوح مستمداً أصله من الترديد العارضى خلال اليقظة لبعض تمثّلات بالغة التحديد يدعو إلى الظن بأن ليس فى هذا التحرّى ما هو شديد الصعوبة شديد التحيير، وبشئ من حيلة الرأى لن يستحيل التوصّل إلى بعث أحلام لدى فرد آخر، بمجرد المواظبة فى غفلة منه على إيقاعه فى سلسلة، مثيرة للانتباه، من الأحداث المتزامنة ولن يكون خيالياً مطلقاً تأكيد التأثير عن بعد وبشدة فى حياته. والحدث الواقعى الذى هو نتيجة، سيزيد ثبوتاً حين يصبح أحد مركباته الأساسية على أوسع مدى، مقرّراً قبلياً ومعلوماً. وبودى لو يلقى هذا الاقتراح قبول بعض ذوى الرأى الحكيم فيعمدون إلى تطبيقه العملى، ولا أرى ما هو أقدر من هذا على إنارة دائرة العاطفة التى يدخل الحلم فى ملكها الخصوصى، الأمر الذى يؤهله اصطفائياً كى يكون حقل اختبار ما أن يُقتَضَى، وسيقتضى أبداً، سير الطبيعة الفردية جميعاً فيما قد يكون لها من إدراك كلّى لماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وبما أن نشاط اليقظة الفعلى يُنجم للإنسان ضعفاً مستمراً فى المادة الحيوية لا يجد تعويضه جزئياً إلا فى النوم، ألا يستحق نشاط الترميم الذى هو وظيفة الحلم خيراً من هذا الازدراء الذى يجعل كل إنسان تقريباً يخجل من أن ينام؟ أىّ كسل وأىّ ولع حيوانى صرف

بالوجود للوجود يظهر أن، نهاية، فى موقف الامتناع عن إدراك أن كل شئ كائن موضوعياً هو ضمن حلقة مستديمة الاتساع من الإمكانات، كيف يظن الإنسان نفسه قادراً على أن يرى ويسمع ويلمس إذا أبى أن يأخذ فى الاعتبار هذه الإمكانات التى لا تحصى والتى تنقطع عن أن تُتاح لدى معظم الناس عند أول تقعقع عربة بائع الحليب. إن الجوهر العام للمادة الذاتية، هذا الميدان الوسيع والأغنى بين الجميع متروك بوراً. ينبغى الذهاب بكرة للتطلع من فوق رابية «القلب المقدس Sacré - Coeur » فى باريس، إلى المدينة وهى تبرز من حجبها الرائعة قبل أن تمد أذرعها. حشد عظيم من الناس متفرق أخيراً ومقرور يستكره ويشق، كما باخرة، الظلام العميم الذى يعرف أنه لا يميّز بين آيات الفن والقمامة والنُصُب المزهوّة التى تتأهب الشمس لتكليلها بطيور أو بهطولات لم تشْفَ تماماً بعدُ من غبار العواصم الدفينة. والمصانع، السابقة إلى الارتعاش قرب المحيط، تتألق بوعى العمال المتنامى يوما بعد يوم. الكل نائم عدا أسوأ العقارب ذات السحن البشرية التى تبدأ تنشوى، تغلى فى قشراتها الذهبية. والجمال النسوى ينصهر مرة أخرى فى بوتقة جميع الأحجار النادرة. وما هو أبدا أشد تحريكا للشعور، أشد إثارة للحماس، أشد تولها منه فى هذه الآونة إذ يمكن تصوره منصرفا كليا عن الرغبة فى بعث إعجاب هذا أو ذاك، أولئك؛ أو هؤلاء. جمال بلا هدف فورى، بلا هدف معروف منه، زهرة خارقة مؤلفة من كل تلك الأعضاء المتناثرة فى سرير يسعه الطموح إلى أن يكون بحجم الأرض، فى هذه الساعة يبلغ الجمال ذروته، إنه يلتبس بالبراءة، إنه المرآة المثلى التى يغرق داخلها كل ما كان وكل ما ينتظر أن يكون

فيما سيكون هذه المرة. إن السلطان المطلق للذاتية الكلية الذى هو ملكية الظلام يخنق العزائم المضطرمة دن تفريق والفحمة غير الملتهبة تستقر فوق بنائها الداخن المحكم التركيب، هل سيكون الجو صحواً؟ هل سينزل المطر؟ والإمحاء المرهف للزوايا يشكل كل تجميل للغرفة. واللمم(١) البالغة البطء على المخادّ لا تدع شيئا يُقمَش(٢) من الخيوط التى ترتبط بها الحياة المعاشة إلى الحياة الواجب أن تعاش، والثانوى الجامح، المنقلب سريعا إلى ضار، يذرع كالنمس محبسه، متشوقا إلى أن يشوش بعدوه الغاية بأسرها. بين العقل والجنون اللذين يتوفقان عادة إلى حد بعض تقوم الهدنة الآن، المصالح القاهرة تكاد لا تكدر بظلها المفرط الشحوب الجدار العالى المنحَتّ الذى فى شقوقه تتسجل لكل فرد الصور المبتذلة دوما لأفراحه وأتراحه، لكن كما فى حكاية جنيات، يبدو أبدا أن امرأة مثالية ناهضة من سريرها قبل الأوان، وقد تعلقت فى خصلاتها آخر نجمة، ستخرج من بيت معتم وتذهب وهى نائمة لتجعل تغنى ينابيع النهار. أى باريس، يا لمخزوناتك العظيمة من جمال، من شباب، من عافية. كما أود معرفة كيف أستخلص من ليلك المقتصر على بعض ساعات ما يحتويه أكثر مما يحتوى الليل القطبى، كم أتمنى أن يكون التأمل العميق فى القوى اللاواعية، الأبدية، التى يكنها، فى مقدور كل إنسان كيما يتحذر من أن يتقهقر وأن يخضع. إن الاستسلام غير مكتوب على حجرة النوم المتحركة والنسيج القائم الهائل المحاك كل يوم يحمل فى وسطه العيون المذهلة لانتصار منير فمما لا يقبله الفهم

١ ـ اللمة: الشعر الذى يتجاوز شحمة الأذن. استعرناها مقابل Chevelure وتعنى الشعر الطويل المشعث.

٢ ـ قمش: جمع من أماكن متفرقة.

أن يتردد الإنسان بلا انقطاع إلى هذه المدرسة دون أن يتعلم فيها شيئا. لكن سيأتى يوم لن يعود يستطيع فيه أن يعهد بتقرير مصيره الشخصى إلى نزوة النظام الاجتماعى التى تؤمّن تمتع بعض قلة بشقاء الجميع تقريبا، وأعتقد أن ليس من الشطط التنبؤ له بكسب هذه التجربة الأكبر فى يوم قريب. ومع ذلك لنتذكر أنه يجب أن يكون له التصرف بهذا اليوم، وهذا التصرف هو بالضبط ما أود إعطاءه له. إنه ينمى فى جوانحه لغزا، ومن آن إلى آن يشارك على الرغم معه فى فكرة «لوترياموِن» المبطنة المقلقة. «ذاتيتى والخالق، هذا أكثر مما يتحمله عقل». فإذا وضعنا الخالق جانبا، إذا لم ندخله فى الحساب تبقى الذاتية بالفعل نقطة الاستعصاء. وتاريخها، الذى لا يُكتَب يظل مع ذلك، على هامش التاريخ المكتوب، يعرض شواشه المسخط. هذه الذاتية يقوم الأدب المبتذل من جهته يغطيها ويكشفها على التوالى كما يشاء متحاشيا قدر الإمكان متابعتها إلى معاقلها وتطويقها. ألم نشهد فى الأيام الأخيرة الإقبال فى القراءة على لون السير المصاغة روائيا التى لا أتفه منها ولا أكره. ومن السهل جدا تصور ما يمكن أن يُسقَط فى مشاريع على هذا القدر من الشمول مما يجب فى الحق أن يصير عليه التشديد. تحدثت آنفا عن العاطفة والشعور. وأوضح أن الغاية ينبغى أن تكون قبل كل شئ فهم كيف ينفعل الفرد الفلانى بسياق مراحل الحياة من جهة وبتصوره الشخصى للعلاقة الجنسية من جهة ثانية. إنهما طبعا تحريان يجعل الاستحقاق العام والرثاء الاجتماعى متابعتهما بشكل مترابط مستحيلة التطبيق وهكذا يضيع آخر أمل للحصول فى موضوع الذاتية على أسانيد حية لها بعض قيمة. وعلى رغمى والحالة هذه أن

لا أعتمد إلا على الشعراء - ولا يزال منهم نفر - لاستدراك هذا النقص بالتدريج، فمن الشعراء فى الصحيح وعلى توالى العصور يمكن تلقىّ ويجوز توقع المنهضات التى من شأنها إعادة وضع الإنسان فى قلب الكون، وتجريده برهة من مغامرته المنهكة وتذكيره بأنه مرجع عزاء وصدى مستديم التكمّل لكل ألم وكل بهجة خارجيين عنه.

إن شاعر الغد سيتغلب على الفكرة المحبطة، فكرة وجود انفصال لا يلحم بين العقل والحلم، سيمد يده بالثمرة الرائعة للشجرة ذات الجذور المتشابكة وسيحسن إقناع الذين سيذوقونها بأنها لا تحوى مرارة. ومحمولا على موجة زمانه سيتولى للمرة الأولى دون ضيقٍ استقبال ونقل الدواعى المسرعة نحوه من صميم الأجيال. سيُبقى متواجهَين مهما كلف الأمر حدى العلاقة الإنسانية التى بزوالها تصبح أثمن المكاسب على الفور باطلة الأثر، وهما الإدراك الموضوعى للوقائع وتطور هذه الوقائع الباطنى فيما يحمله حتى إشعار آخر بفعل الإحساس الفردى من جانب والإحساس العام من جانب ثان، من صفة سحرية. ويمكن اعتبار هذه العلاقة سحرية من حيث أنها مكونة السياق من التأثير اللاواعى المباشر للباطن على الظاهر، وأن فى التحليل المجمل لمثل هذا المفهوم تتسرب وساطة «غيبية» هى وساطة «شيطان الشعر». وسيقف الشاعر فى وجه هذا التأويل المفرط التبسيط للظاهرة المعنية. ففى الدواعى المقامة منذ أقدم الدهور من قبل المعرفة العقلانية على المعرفة الحدسية، سيكون

★ يقول «فرويد»: «الشعراء، لكنهم فى معرفة الروح أساتذتنا نحن، لأنهم ينهلون من منابع لم نجعلها بعد فى متناول العلم. ليت الشاعر كان اختار الوقوف، بدرجة أصرح مما فعل، إلى جانب طبيعة الأحلام الحافلة بالمعانى».

له هو أن يبرز المستند الرئيسى الذى يضع نهاية للنقاش. وبعدئذ ستجرى العملية الشعرية فى وضح النهار. سيكون قد تم التخلى عن مشاحنة بعض الناس الذين سيسبعون إلى أن يصيروا جميع الناس، حول الممارسات التى ظلت طويلا مريبة لدى الآخرين وظلت طويلا ملبسة لديهم هم، التى يقومون بها كيما تُحبَس الأبدية فى الآنية، ويُصهر العام فى الخاص. وهم ذاتهم لن يعودوا يستعجبون حين ينجحون، بمزجهم غير الثابت المعايير بين هاتين المادتين العديمتى اللون اللتين هما الوجود المخضع لاتحاد الكائنات الموضوعى والوجود غير الواقع حسياً ضمن هذا الاتحاد، فى الحصول على راسب ذى لون جميل ثابت. سيكونون آنذاك فى الخارج مختلطين بالآخرين تحت الشمس الساطعة ولن يوجهوا نظرة أكثر منهم تواطؤا وحميمية نحو الحقيقة حين ستأتى ترسل لمتها القاطرة بالنور أمام نافذتهم العتمة.

ملحق

ثلاث رسائل من سيغمون فرويد إلى أندريه بروتون

«فيينا في ١٣ كانون الاول ١٩٣٢»

السيد العزيز

كن على ثقة من أنى سأقرأ بعناية كتابك الصغير «الأوانى المستطرقة» الذى يلعب فيه تفسير الأحلام مثل هذا الدور الكبير. حتى الآن لم أتوغل بعيدا فى هذه المطالعة لكن إذا كنت بادرت إلى الكتابة إليك فلأنى وقعت فى الصفحة (١٩) على إحدى (صفاقاتك)(*) التى لا أجد بسهولة تفسيراً لها.

تلومنى على أنى لم أذكر فى جدول المراجع «فولكلت» الذى اكتشف علم رموز الحلم بالرغم من أنى انتحلت أفكاره. إنه لاتهام خطير يتعارض تماما مع طريقتي المعتادة.

ليس «فولكلت» فى الحقيقة مكتشف علم رموز الحلم بل هو «شيرنر» الذى صدر كتابه عام ١٨٦٠ بينما يعود كتاب «فولكلت» إلى عام ١٨٧٨، والمؤلفان مذكوران عدة مرات فى المقاطع المتصلة برفدهما فى نصى كما أن اسميهما موردان معا لدى إشارتى إلى «فولكلت» على أنه من أتباع «شيرنر» كما أن الاسمين أيضا مدرجان فى جدول المراجع، فلى إذن أن أطالبك بتفسير. كعذر لك وجدت الآن

★ إشارة إلى الإهداء الذى أرفقت به نسخة كتابى والذى ذكرت فيه أنى ارتكبت فيه نحوه بعض صفاقات.

أن اسم «فولكلت» غير موجود بالفعل فى جدول مراجع الترجمة الفرنسية (ميرسون. ١٩٢٦)

المخلص جدا لك

فرويد

١٤ كانون الأول ١٩٣٢

السيد العزيز

اعذرنى أنى عدت مرة أخرى إلى قضية «فولكلت»، إنها بالنسبة إليك لا يمكن أن تعنى الكثير لكنى حساس جدا لمثل هذا العتب وحين يأتى من «أندريه بروتون» فإنه يُمضّنى أكثر.

كتبت إليك أمس أن اسم «فولكلت» مذكور فى الطبعة الألمانية «لعلم الأحلام» لكنه مغفل فى الترجمة الفرنسية. الأمر الذى يعذرنى وإلى حد ما، يعذرك أيضا، على الرغم من أنه كان يسعك أن تكون أشد حذرا فى تفسير ذلك الحال (فقد كتبت: «المؤلِّف الذى أغفل اسمه إغفالا ذا دلالة فى جدول المراجع...») بينما قد لا يكون هناك سوى إهمال غير ذى أهمية من قبل المترجم «ميرسون».

على أنه بذاته لا ذنب له فقد أعدت المراجعة بصورة أدق ووجدت ما يلى: صدرت لكتابى «علم الأحلام» ثمانى طبعات من عام ١٩٠٠ إلى ١٩٣٠ والترجمة الفرنسية اعتمدت الطبعة الألمانية السابعة. والواقع أن اسم «فولكلت» ورد فى جدول مراجع الطبعات الأولى والثانية والثالثة والرابعة الألمانية لكنه غاب فعلا فى كل الطبعات اللاحقة، بحيث لم يستطع المترجم الفرنسى العثور عليه.

والطبعة الألمانية الرابعة (١٩١٤) هى الأولى التى تحمل على

صفحة العنوان إشارة «بالاشتراك مع أوتو رانك» وقد تولى رانك منذئذ وضع جدول المراجع الذي ما عدت اهتممت به مطلقا. وقد حدث على الأرجح أن سقوط اسم «فولكلت» (بين الصفحتين ٤٨٧ و ٤٨٨ بالضبط) غاب عنه وفى هذا يستحيل أن يُعزى إليه قصد معين.

واستغلال مثل هذا الحادث يجب أن يُستَبعد، خاصة لأن «فولكلت» ليس الذى تؤخذ حجته فى الاعتبار فيما يخص علم رموز الحلم، بل هو بلا أى شك آخر اسمه «شيرنر» كما ذكرت مرات عديدة فى كتابى.

مع فائق تقديرى

فرويد

٢٦ كانون الأول ١٩٣٢

السيد العزيز

أشكرك بحرارة على رسالتك البالغة التفصيل واللطف. كان بوسعك أن تجاوبنى بشكل أوجز: «زوبعة فى فنجان...» ـ لكنك تكرمت بمراعاة حساسيتى الخاصة حول هذا الموضوع التى هى ولا ريب نوع من رد فعل ضد طموح طفولتى الشطط، الذى تغلبت عليه لحسن الحظ. لا يمكننى أن أحمل أيا من ملاحظاتك النقدية الأخرى على محمل سوء على الرغم من أنى قد أجد فيها العديد من مواضع جدل. من ذلك، مثلاً، أنى أعتقد، إذا لم أتعمق فى تحليل أحلامى الشخصية تعمقى فى تحليل أحلام الغير، بأن السبب لم يكن إلا نادرا تهيبى من بحث الأمور الجنسية. والحقيقة أن ذلك كان يوجب علىّ فى معظم الأحيان أن أكشف بانتظام الخلفية الخفية لكل سلسلة

الأحلام المكونة من علاقتي مع والدى الذى كان حديث الوفاة. وأؤكد أنى كان من حقى أن أضع حدا للمعالنة التى لم يكن منها بد (وكذلك لنزعة طفولية تمّ كبتها).

والآن إليك اعترافا ينبغى أن تتقبله بتسامح. فمع كل ما يردنى من شواهد على اهتمامكم أصدقائك وأنت بأبحاثى، لا أجدنى قادرا على تبين ما هى وما تبغى السوريالية. ولعلى غير مؤهل فى شئ لفهمها، أنا البعيد جدا عن الفن.

المخلص الوديد

فرويد



١ ـ المعالنة أو الإظهارية Exhibition: طبيعة من يحب كشف ما يخصه للغير. فإذا تطورت إلى الحد المعيب انقلبت إلى مرض نفسانى يسمى «الاستعرائية Exhibitianmisme» أو «التهتكية».

توضيح ختامي

إن كنت حسبت سائغا لى، فى القسم الأول من «الأوانى المستطرقة» أن أعزو إلى «فولكلت»، لا إلى «شيرنر» الفضل الرئيسى فى اكتشاف الرمزية الجنسية للأحلام فذلك لما بدا لى، فى شهادة «فرويد» نفسه - من أن «فولكلت» كان تاريخيا أول من نقل إلى الصعيد العلمى النشاط الخيالى الرمزى المتناول هنا بالبحث، صحيح أن الطابع الجنسى لهذا النشاط كان قد استُشعر منذ زمن طويل من قبل الشعراء، وفى جملتهم «شكسبير» لكن اعتبار «هذه المتفرعات الطارئة للمعرفة الحدسية» كما يقول «رانك» لا ينبغى أن يحجب عنا ما قد حوت من عبقرية فكرة المنهجة المبداة قبل «فرويد» والتى عنها نشأ علم التحليل النفسى.

«تشوش روحانى» «هراء مفخم»، ذانك هما التعبيران اللذان قدَّر بهما على التوالى كل من «فولكلت» و«فرويد» أعمال «شيرنر» ولم أرنى شذذت فى تحميل مسئولية توجيه المسألة إلى السياق العلمى الحق «لفولكلت» الذى سعى، حسب قول «فرويد»، «إلى تعرف أعمق على كنه تخيل الحلم وإلى إدراجه بعدئذ بدقة فى منهج فلسفى»(*).

غنى عن البيان أنى لم أنسب قط لـ «فرويد» نية الإغفال المتعمد لأعمال رجل قد يكون هو مدينا له فكريا، فما كان لاتهام من هذا النوع أن يتلاءم مع التقدير السامى الذى أكنه له، لكن كل ما فى الأمر هو أنى، وقد لاحظت إسقاط مؤلف «فولكلت» من جدول المراجع

* - علم الأحلام.

المرتب سواء فى آخر الطبعة الفرنسية أو فى آخر طبعة ألمانية سابقة جدا لها، تذكرت المبدأ القائل «إن النسيان، فى جميع الأحوال، لابد من أن يكون راجعا إلى شعور استكراه(★)» وأعتقد أن سبب ذلك لا يخرج عن كونه «عرضيا»(١)، وما من شأن القلق الذى أبداه «فرويد» (فقد كتب إلىّ رسالتين خلال ساعات قليلة، وتبرأ، وألقى الخطأ الظاهر على آخر لم يعد من أصحابه... وانتهى بالشهادة لهذا بالسهو غير المقصود) إلا أن يثبتنى على هذا الرأى. والفقرة الأخيرة من الرسالة الثالثة النامة، فى فاصل اثنى عشر يوما، على رغبته «الفكيهة جدا» فى أن يرد علىّ ضربة بضربة - ليزيدنى يقينا أنى مسست نقطة بالغة الحساسية - هل «طموح الطفولة الشطط» لدى «فرويد» فى عام ١٩٣٣ «متغلب عليه لحسن الحظ» إلى هذه الدرجة؟

وللقارئ أن يحكم إذا كان يجدر، من جهة أخرى، تجاوز تناقضات التحليل الذاتى الغريبة فى علم الأحلام «والتباين الصارخ، من حيث المحتوى الجنسى، بين تأويل أحلام المؤلف وتأويل الأحلام الأخرى التى يستحكيها، ويظل يبدو لى أن خشية «المعالنة» فى مثل هذا المجال ليست بالعذر الكافى، وأن تحرى الحقيقة الموضوعية لذاته يوجب بعض التضحيات، والحجة المتذرع بها - أن والد «فرويد»(★★) توفى عام ١٨٩٦، - ستتبين هنا فى غاية الضعف طالما أن الطبعات التسع التى توالت منذ عام ١٩٠٠ قد أفسحت «لفرويد» كل الفرص المرتجاة للتخلى عن تحفظه السابق، أو على الأقل لتفسيره بشكل محسن.

★ علم الأمراض النفسانية فى الحياة اليومية.

١ - العرض Symptome هنا هو الظاهرة التى تنبئ عن علة.

★★ خلف كل هذا يقف «سيغموند» الصغير المدافع عن نفسه: لقد طرحته أرضا لأنه طرحنى أرضا «فينلر»: «فرويد» (و«سيغموند» هو الاسم الأول لـ «فرويد»).

وليستقر تماما فى الأذهان أن هذه الاعتراضات التى لا تزال تستهدف «فرويد» اليوم، وإن كنت أوجهها إليه، لا تنال فى شئ من الاحترام والإعجاب اللذين أحملهما له، بل على العكس، تبرهن فى نظرى على حساسيته الرائعة الدائمة التيقظ وتطمئننى على حياته الغالية.

أندريه بروتون

١٩٣٣

إشـــارات

المؤلف : أندريه بروتون

أحد أكبر الأسماء فى هذا العصر، ليس لأعماله الشعرية والفنية والنقدية والفكرية المتقاطعة مع فهم سياسى عميق، بل لأنه أطلق شرارة أهم حركة شعرية وفنية فى القرن العشرين بكامله (الحركة السوريالية). مواليد ١٨٩٦، الانطفاء ١٩٦٦. من كتبه (الخطوات الضائعة، ١٩٢٤)، (المدخل للحديث عن القليل من الواقع، ١٩٢٣)، (حول الواقعية الاشتراكية كوسيلة استئصال أخلاقى، ١٩٥٢)، (الأوعية المتصلة، ١٩٣٢)، (بيان السوريالية الأول، ١٩٢٤)، بيان السوريالية الثانى، ١٩٣٠)،... (من دواوينه : (جبل التقوى، ١٩١٩)، (ضوء الأرض، ١٩٢٣)، (هواء الماء، ١٩٣٤)، (المسدس نو الشعر الأبيض، ١٩٣٢)، (فاتا مورغانا، ١٩٤٠/١٩٤٣)، (كوكبة نجوم، ١٩٤٠/١٩٤١)، (الحقول المغناطيسية، ١٩٢٠، مع فيليب سوبو)،...

المترجم : صلاح الدين برمدا

مترجم عربى من سوريا.

الفنان : رضا عبد السلام

فنان مصرى معاصر. مواليد السويس ١٩٤٧. أستاذ التصوير بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة. كان رساماً بالأهرام من ١٩٧٦ - ١٩٨١. يعمل رساماً بالمصور منذ ١٩٨١. أقام ١٧ معرضاً داخل مصر ، وشارك فى العديد من المعارض الدولية (بغداد، أنقرة، بولندا، هافانا، شيلى، فرنسا،...). له مجموعة من المقتنيات فى مصر والبلاد العربية وأوربا وأمريكا. يهتم بمساحة اللون وكثافته والخط وفاعليته، وعناصر التجديد والرمز فى هندسة درامية لجماليات اللوحة والإيقاع الدينامى للحياة.



آفاق الترجمة

(يوليو ٩٥ ـ يونيو ٩٦)

النظرية الأدبية المعاصرة	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
مدن الآخرين	أشعار ترجمة : أحمد ع. حجازى
صحراء التتار	رواية : دينو بوتزاتى ترجمة : موسى بدوى
الحب	رواية : مارجريت دورا ترجمة : د. فوزية العشماوى
أساطير	تأليف : رولان بارت ترجمة : سيد عبد الخالق
نشيد بحرى	شعر : فرناندو بيسوا ترجمة : المهدى أخريف
هبة الطوطم	أساطير الهنود الحمر ترجمة : راوية صادق
أزهار الشر	شعر : شارل بودلير ترجمة : محمد أمين حسونة
مرآة الحبر	نصوص : بورخيس ترجمة : محمد عيد أبراهيم
النظرية الأدبية المعاصرة (ط ٢)	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
الشعر والتجربة	تأليف : أرشيبالد مكليش ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسى
رامبو وزمن القتلة	تأليف : هنرى ميللر ترجمة : سعدى يوسف
مداخل الشعر	تأليف : باختين . لوتمان . كوندراتوف ترجمة : أمينة رشيد . سيد البحراوى
باختين : المبدأ الحوارى	تأليف : تودوروف ترجمة : فخرى صالح



آفاق الترجمة

(يوليو ٩٦ ـ يونيو ٩٧)

عراف الضوء	شعر للمكفوفين الإسبان ترجمة : إلهام عيسى
التأويل والتأويل المفرط	تأليف : امبرتو اكو ترجمة : ناصر الحلوانى
عصر البنيوية	تأليف : إديث كريزويل ترجمة : د. جابر عصفور
الدراسة النفسية للأدب	تأليف : مارتن ليندأور ترجمة : د. شاكر عبد الحميد
هبوط الليل	شعر : و. هـ. أودن ترجمة : د. ماهر شفيق فريد
الغرفة الفارغة	شعر : جاك آنصى ترجمة : محمد بنيس
قصيدة النثر	تأليف : سوزان برنار ترجمة : د. زهير مجيد مغامس
ساعى البريد يدق الباب مرتين	رواية : جيمس كين ترجمة : أحمد عمر شاهين
قصر الضحك	شعر : زبيجنيف هربرت ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم
الملاك الصامت	رواية : هاينرش بول ترجمة : طلعت الشايب
مصباح اللذات	الشعر الفارسى المعاصر ترجمة : محمد اللوزى
الأنا الآخر	قصص من أمريكا اللاتينية ترجمة : د. طلعت شاهين
السرير المائدة	شعر: بول ايلوار ترجمة : إدوار الخراط
همس الأمواج	رواية: يوكيو ميشيما ترجمة : مدحت محمد عبد العزيز
الدودة الهائلة	كافكا، الأعمال الكاملة ـ ١ ترجمة : الدسوقى فهمى
النقد الأدبى	مجموعة نقاد فرنسيين ترجمة : د. هدى وصفى



آفاق الترجمة

(يوليو ٩٧ ـ يونيو ٩٨)

أغانى شيراز (ج ١)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشواربى
حرب مع السمندر	رواية: كارل تشابك ترجمة : حسين العامل
هذا هو الإنسان	تأليف : نيتشه ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد
منظورات	نصوص : چورج حنين ترجمة: بشير السباعى
أغانى شيراز (ج ٢)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشواربى
رسائل إلى ميلينا	رسائل: كافكا ترجمة : الدسوقى فهمى
اكتب إليك من بلد بعيد	نصوص : هنرى ميشو ترجمة : سامى مهدى
السقوط على الأرض	أشعار : تيد هيوز ترجمة : سهيل نجم
بيانات السوريالية والأوانى المستطرقة	نصوص : أندريه بروتون ترجمة : صلاح برمدا



بيانات السوريالية و الأوانى المستطرقة

(جُعلت اللغة للإنسان كى يستعملها سوريالياً. وفى نطاق حاجته إلى الإفهام يستطيع أن يُعبّر إلى حدّ، وأن يؤمّن بذلك إنجاز بعض الوظائف من التى لا تتطلب دقة. ولن يلزمه لذلك أن يُدير سبع مرات لسانه ولا أن يشرح سلفاً أى شئ. إنى لا أستعجل فى فهم ذاتى. لا فرق ! سأظل أفهم ذاتى ...)

فى لغةٍ نوّارة تشع بالبهجة والكآبة كأساً واحدة، ينسف **أندريه بروتون** كل الأوطان، والمبادئ، والسماوات ويجود بوعود، حتى أن الوفاء بأقل ما يمكن منها سيُدهش. رغبة سرية تذوب حناناً وترعد بغضا. فهو المفاجأة المرغوبة، السمكة قابلة الذوبان.

وبضربةٍ واحدة، تنالون كتابين فى مجلد واحد: **بيانات السوريالية و الأوانى المستطرقة**. الأخير كتاب عن الأحلام يُعارض فيه فرويد ويُخطّئه، حيث يرى أن العالم المحسوس وعالم الأحلام يؤلفان واقعاً واحداً.

نصوص تنحو إلى فلسفة المستقبل، فالسوريالية لم تمت، بل ستطل برأسها بعد حين فى عصمة ألطف وبالطريقة الأعنف. ولأن الكتابين يكملان بعضهما البعض، لزم حصرهما معاً.

على الإنسان أن يُلحم بين العقل والحلم، يمدّ يده بالثمرة، ويُحسن إقناع الذين يذوقونها بأنها لا تحوى مرارة ! ★

Manifestes du Surréalisme
et Les Vases Communicants

الثمن
جنيهان

المركز المصرى العربى